خريف الكيال

رواية

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : خريف الكيال

المؤلف : محمد نبيل صالح

تدقيق لغوي : محمود البكري

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم إيداع : 1701601248 - 2019



دار مسار للنشر و التوزيع


01020439639


massar.pub1@gmail.com


ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

محمد نبيل صالح

خريف الكيال



إهداء

إلى أبي البعيد في المكان، والقريب في المكانة.. اهدي إلى روحك هذا العمل الأدبي لعله يكون على خُطى نضالك الإنساني مع الحياة.

مدارس زهرة اللوتس الخاصة المشتركة (إدارة غرب القاهرة التعليمية)

ينتهي اليوم الدراسي وسط صيحات التلاميذ خلف باب المدرسة (افتح /افتح) يحمسُون عم زكي حارس البوابة لفتح الباب في الميعاد المحدد وهو الثانية عصرًا, فينفرج الباب الخشبي الكبير ذو الرمز الفرعوني لزهرة اللوتس تيمنًا بالحضارة الفرعونية الخالدة كأسماك السالمون في موسم الهجرة يندفع التلاميذ مبتهجين بانتهاء يوم شاق من أيام الأسبوع وهو الأربعاء الذي يمتاز بطول ساعته وغياب حصصه الترفيهية مطلقًا.

الجدار الخارجي لسور المدرسة يحكي روايات بعبير الماضي واستمرارية الحاضر، وكأن التلاميذ في تلك المرحلة العمرية لن يكفوا عن سرد أحلامهم الصغيرة بكتابتهم أو حفر أسمائهم على طول الجدار, فهناك قلب يخرج منه سهم بحروف إنجليزية اختصارًا لأسماء المحبين ونتائج مباريات الدوري، ولا يخلو أيضًا من توجيه السباب لمجموعة من المدرسين المتغطرسين عبروا عنها بأشكال رمزية

ألقى الصديقان أحمد ناجي الشهير ب (ميدو) ومحمد حسن دعبس الذي اختزل الجميع اسمه في لقب الجد (دعبس) الحقائب التي تحمل الماركة الشهيرة الأخطبوط البحر (إكتوبس) بجانب السور وتفرقا كلٌ منهما في اتباع ميوله

فتوجه ميدو إلى بائع الطوابع يستطلع الجديد منها، وهرع دعبس إلى كشك عم عابدين، حيث تنتظره الفتاة الجميلة إنجي ابنة مدام ناهد مدرسة اللغة الفرنسية ذات الشعر الأصفر المصبوغ والقوام الممتلئ والعصا الغليظة.

يحين وقت العودة للمنزل في الساعة الثانية والنصف ظهرًا, فيلوح ميدو لدعبس بيده يحسه على الانتهاء من حديثه الرومانسي مع إنجي، بينما يرد عليه دعبس بضم قبضة يده وتحركها إلى الأسفل؛ لينتظره لدقائق معدودة.

وفي طريق العودة سلكا طريقهما المعهود إلى المنزل حيث يقطنان

في نفس الشارع متجاورين في عمارة ٨ و١٠ شارع الفلكي لا يفرق بينهم سوى فيلا همت هانم الكيال وطول الطريق يتحدث دعبس عن خوفه من مدام ناهد إذ اكتشفت تحدثه الدائم مع ابنتها التي فاجأته اليوم بهدية صغيرة عبارة عن حظاظة جلد سوداء تجلب له الحظ السعيد

يستمع ميدو لكلام دعبس ضاحكًا وهو يقذف طوبة بقدمه عدة خطوات. ثم يعاود الكرة مرة أخرى ويتركها عند الوصول إلى باب منزله وهي عادته اليومية في اصطحاب طوبة من عند باب المدرسة حتى باب المنزل

ولكن تعثرت الطوبة عن جموع من البشر أمام فيلا الكيال، وأشاح عم عادل المكوجي لهما كي يبتعدا, بينما يزداد أعداد الحضور أمام باب الفيلا وسط همهمات تونبئ عن حدث جلل

تسمرت قدمى الصبية وسط الجموع وهرعت سيارات الشرطة والإسعاف ذات الصوت الهادر التي توقفت أمام باب الفيلا مباشرة وخيم الذهول على الجميع بينما يتعثر شاب يرتدي البلطو الأبيض على سلالم الفيلا أثناء نزوله مسرعًا ويلتف حوله أبناء الحي، والجميع يسأله

الحكاية إيه يا دكتور. سامي.

هكذا صاحت أم مريم بائعة الجرائد التي اتخذت من رصيف الفيلا متكأً لفرشتها, بل بالغت في الأمر واتخذت من سور

الفيلا معرضًا لمجموعة من المجلات ذائعة الصيت (مجلة أكتوبر والشباب وحريتتي وروزاليوسف) لم تجد رادعًا يحول بينها وبين احتلال المكان حتى الوريث الوحيد للفيلا لا يرى سوى في آخر الليل على فترات متباعدة مرهقًا، وكأنه كهل على رغم من أنه في العقد الثالث من العمر.
يخرج الدكتور سامي علبة سجائره المريت ويلتقط واحدة بصعوبة، ويدخن صامتًا متجاهلًا أسئلة الجموع وممسكًا برأسه ويضع ورقة فلوسكاب بيضاء في جيب البلطو الأبيض, يلاحظ مراقبة الصبية للمشهد، فيذهب إليهم ويربت على كتفيهم يحسهم على الانصراف, لكن في ظل استغراب ميدو وصيحات دعبس برفض الانصراف ونباح الكلب في حديقة الفيلا مع بكاء مريم المتواصل, يسمع أزيز شباك الفيلا الرمادي الكبير وتتساقط الأتربة، وتخطلت مع ضباب الخريف وينفرج الشباك على مصرعيه نتيجة دفعة قوية من أحد الحضور
يبهت الجميع لمشهد ذلك الشاب المعلق في سقف غرفته منتفخ يتدلى إلى الأسفل بحبل غسيل وبجواره مجموعة من أبناء الحي وأمام المسجد المجاور للفيلا
لم يتوقع أحد أن تلك الفيلا رائعة المعمار التي تحتوي على نقوش جميلة أعلى الأبواب والشبابيك لطفل صغير في هيئة ملاك ويمسك قوسًا صغيرًا يتجه سهمه إلى أسفل أن يكون السهم هو إشارة على

شكل مفزع ومروع للحاضرين
صرخت أم مريم بأعلى صوت ولعنت الشاب واتهمته بالجنون على الرغم من احتلالها الغاشم لفيلا عائلته ولملمت أوراق جرائدها سريعًا للبحث عن مكان آخر بعيدًا عن تلك الفيلا المشؤومة
هنا أدرك الفتية أنهم كانوا يتحتم عليهم الذهاب ولكن قد فات الأوان, همم الحاضرون بكلمات عجز عن تفسيرها الصغار واتهم أغلبية الحضور هذا الشاب المعلق في سقف الغرفة بالكفر والإلحاد وتبارى الجميع في إلقاء الحكم عن حال الدنيا ونهايتها البائسة، بينما لم يتحمل د سامي الافتراء الشديد على هذا الفتى الذي عرفه صديقًا أيام الصبا
وقف صامتًا إلى أن انتهى الجميع من ثرثرته وأصبح المشهد جليًا يتغلل النفوس ببطء حيث خيم الصمت المفاجئ على الحضور وهم يتابعون إجراءات الشرطة في تحرير المحضر والكشف عن ملابساته إذا كان حادث انتحار أم قتل أو ماهيته, بينما أخرج د سامي من البلطو الأبيض الورقة الفلوسيكاب التي كتبها المنتحر بخط واضح وفيها كلمات قليلة جدًا وموجزة
(أعتذر للجميع وأرجو أن يسامحني الله على فعلتي, تجاوزت الثلاثين ولم أجد معنى حقيقي لوجودي, اهتموا بالحديقة واطعموا كلبي الصغير)

البعض قال إن المنتحر كان في صحة جيدة ولكنه كان يمر بأزمة نفسية بسبب فقدانه لأهله واحد تلو الآخر، والبعض الآخر شطح تفكيره تمامًا واتهموا بالذندقة والإلحاد، وكأن الكثير منهم لم يعي رسالته الأخيرة

أغلقت النيابة المحضر بناءً على تحريات المباحث التي أثبتت أنها حالة انتحار عادية ولا يوجد شبهة جنائية, لكن ذلك المشهد الدرامي تخلل وجدان كل الحضور بل أصاب البعض منهم، أسئلة كثيرة عن معنى الحياة والوجود

اعترى كل من ميدو ودعبس حالة من الحزن غير المعروف لصبية في مقتبل العمر لم يتمكنا من ترجمة المعنى الحقيقي وراء المشهد سوى بمرور الأيام

ومنذ ذلك اليوم تم وضع قفل كبير على باب الفيلا وتسريح الكلب وهجرت الحديقة تمامًا ولكن رائحة شجرة الكافور الفواحة المزروعة داخل الحديقة تذكر الجميع بالحادثة

الوصية التي كانت إلى من يهمه الأمر أو لألي الألباب، لم تُنَفَذ وظلت كلمتها البسيطة تسيطر بشكل كبير على خيال كل من حضر خاصة الصبيان والدكتور الشاب بل تم حفر الكلمات في ذهن كل منهم

تجاوزت الثلاثين ولم أجد معنى حقيقي لوجودي

صافرة تنبيه على نغمة بيانو (دينج دان دونج) تنطلق بشكل متكرر من إذاعة المبنى الاجتماعي للنادي الأهلي بالجزيرة, على الطفل أحمد ناجي (ميدو) التوجه إلى مبنى الإدارة, والدتك بانتظارك.

تم إعاده النداء أكثر من مرة في مذياع إدارة النادي, وقفت والدة ميدو تبكي وحولها عدد من النسوة الأصدقاء, هرع الأزواج من الرجال للبحث عن ميدو في كل مكان داخل النادي من صالة الطعام إلى ملعب الجمباز وحمامات السباحة ثم ملاعب التنس مترامية الأطراف.

ميدو هو اسم التدليل لمعظم أبناء جيله، ونظرًا لالتصاقه الدائم

بأمه ومجتمعات النساء التي خالطها صغيراً أصبح يستغرب اسمه الحقيقي (أحمد) وعند التحاقه بالعام الدراسي الأول وارتدائه المريلة الزرقاء, شاع اسم التدليلل وغلب على اسمه الحقيقي بين التلاميذ والأساتذة، فهيئته الرقيقة من الشعر الناعم المنسدل أعلى جبهته الصغيرة، وعيناه الواسعة بنية اللون وبشرته البيضاء رقيقة الملمس تدفع من يراه على تدليله مباشرة دون تفكير وخاصة النساء.

ترك ميدو والدته التي قامت بالتنبيه عليه بعدم الابتعاد عن حديقة الألعاب وأن يمكث فيها حتى ينتهي من اللعب تمامًا ثم الانتظار لحين عودتها إليه مرة أخرى حثته أيضًا على أن يحاول التعرف على مجموعة من الأصدقاء يشاركهم اللعب كي يتثنى له الاستمتاع بوقته والبعد عن الوحدة.

بالفعل ذهب ميدو للمكان المخصص للألعاب المكتظ بعدد كبير من الأطفال وبعض من أولياء الأمور, في البداية، وقف ميدو ساكنًا ينتابه خوف من مشاركة الأطفال الغرباء في اللعب وشيئًا فشيئًا بروح الطفولة الغامرة جذبه بعض الأولاد يتنافسون حول المزلجة (الزحلقة) في بهجة شديدة وصراخ عالي فمنهم من يتزلج بصورة طبيعية ومنهم أيضًا من يفتعل بعض الحركات الأكروباتيه أثناء التزلج ليبهر الحضور.

انغمس ميدو معهم في اللعب بشكل عفوي, ولنشاطه الكثيف

استحوز على أكبر قدر من مرات التزلج وفي المرة الأخيرة ارتطم جسده بفتاة صغيرة الحجم كانت تجلس بنهاية المزلجة مما جعلها ترتطم بالأرض بقوة وبدأت في الصراخ بشكل هستيري لمحها والدها كثيف الشارب وانتابته مشاعر الغضب عندما وجدها ملقاة على الأرض ويغطي وجهها الرمال ودون أي تفكير حصيف من الأب, قاده انفعاله وغضبه، فهرع إلى ميدو ووبخه بالألفاظ بذيئة, وأمسكه من البلوفر الأزرق وجذبه منه في حركة سريعة ذهابًا وإيابًا وهو يصرخ (فين أبوك يا ولد.... أنت زي البغل وبتتزحلق فيين أبوك)

لم يجد من ميدو سوى البكاء خوفًا فتجسد هذا الرجل أمامه كأنه صورة وحش الإشكيف الذي قام برعب لجيل ميدو كاملًا واستطاع الكلام بصعوبة متهدجًا

بابا مسافر أنا مع ماما بس

فما كان من هذا الأب الغبي سوى التلفظ بكلمات تؤزي مشاعر طفل في غاية البراءة

آه أبوك مسافر وسايب أمك أكيد على حل شعرها مش وخدة بلها من ابنها وسيباه يعور ولاد الناس ونظر إلى ميدو بشراسة

أكيد أبوك دا معندوش دم وأنا هوديك عند أمك وأضربك قدمها

استطاع ميدو أن يفلت من قبضة هذا الوحش الجاسمة على رقبته وجرى إلى لا شيء, كان كل همه فقط ألا يرى هذا الرجل

والدته فيؤذيها بسبسة هكذا صور له خياله
عيناه زائغتان تبحث عن مكان ليختبئ به وقدماه مستمرة في الركض بشكل هستيري وتتصاعد أنفاسه في زعر إلى أن وصل إلى آخر ملعب كرة القدم الخاص بالناشئين وصعد أعلى المدرجات وجلس هناك وحيدًا يجهش في البكاء ويخفي وجهه بكلتا يديه.
لم يتعود ميدو على كلمة أبي منذ أن استطاع الكلام، فكل الذي يعلمه عن والده أنه يأتي في السنة شهرًا في الصيف محملًا بالهدايا واللعب القادم بها من الخليج يمكث شهرًا ثم يعود أدراجه
تمنى ميدو في تللك اللحظة أن يظهر له أبوه كأبطال الكارتون الأسطوريين كي يلقن هذا الرجل درسًا أو حتى يحتمي فيه كما يفعل الصغار، ولكن كان قدره أن يهرب دائمًا في أي موقف يستدعي ظهور الأب ويكتفي فقط بالبكاء.
أخيرًا تم العثور على ميدو بواسطة أحد عمال النظافة الذي وجده نائمًا في مدرج الكرة مدمع الأعين ويخفق صدره بشدة كأنه يرى كابوسًا مرعبًا, حمله العامل إلى أمه التي أجهشت في البكاء عندما رأته من بعيد وخلعت نعليها وجرت إليه تتفقده, انهالت عليه بالقبلات وضمته إلى صدرها بقوة، فما كان منه إلا أنه فاق من غيبوبته وبكى بكاءً مكتومًا في أحضانها بكاء الطفل الذي حال بينه وبين الهلاك قدرته على الإفلات والركض السريع
دائمًا يتكرر السؤال في المدرسة بين الزملاء، وفي النادي وسط

الأصدقاء مما جعل ميدو يصاب بنوع من الخجل غير المبرر في هذا السن الصغير الذي يقترن فيه الأطفال بالآباء كعائل للأسرة، وجد نفسه دائمًا في أي احتفال أو مناسبة تقف أمه بجواره وكأنه يتيم الأب وعند عودة الأب في الأجازة السنوية، يشعر بأنه رجل غريب بل يحمل في داخله بغضًا تجاهه

غمرة بالألعاب الجديدة والملابس لم يكن ليرضيه أبدًا، ولكن عجز في صغر سنه أن يشرح مشاعر كامنة بداخله عن معنى الاحتماء والأمان

كان يرى الرجال تحاول دائمًا التودد إلى الأم, خاصة لجمالها الملحوظ وشبابها اليافع، وكانت تقابلهم بكل صرامة وتغيير ملامح وجهها إلى الجدية الشديدة والحزم عندما يلقي أحد من الحضور على أذنيها كلامًا يمتاز بالسخافة والابتزال, فكم من مرة سحبته من يديه في غضب في مناسبات اجتماعية كثيرة، وهرعت إلى المنزل وجلست إلى المرآة تبكي وحدتها وتنعت حظها العثر, طلبت من والده أن يبقي ولا يرحل، ولكنها في النهاية كانت ترضخ إلى رأيه عندما يحدثها عن مدرسة الطفل غالية الثمن والسيارة الحديثة والمشروع السياحي الذي يخطط للشروع فيه عند العودة إلى أرض الوطن, فأصبحت بمرور الأيام لا تناقشه في الاستقرار لأنها تعلم الإجابة جيدًا.

* * *

هل يكفي أن يكون المنزل مرتبًا بعناية شديدة وهادئًا في أغلب الأوقات لكي تشعر أنك تنتمي إليه, ترى ظاهر المكان هو الفيصل في شعورك بالانتماء إليه أم الروح التي تدب الحياة في أرجاء المكان سؤال أرق دعبس الصغير كثيرًا

يجلس الوالد مستمعًا إلى الراديو وحيدًا داخل بلكون غرفة النوم، بينما تقوم الأم بإعداد الطعام وتجهيزه للصغار وعند الانتهاء يقوم الأبناء بالذهاب إلى إناء غسيل الصحون (الحوض) وترك الأطباق هناك مرتبة كي يتجنبوا تعنيف الأم بينما يكون الاستحمام بمواعيد ومشاهدة التلفاز أيضًا له ميعاد وبرامج محددة حتى كلمات متفق عليها مسبقًا المسموح التفوه بها في الرد على الهاتف أو مبادلة أحد التحية كل شيء مراقب بشكل يدعو الاستغراب, لم تخلُ الانفعالات أيضًا من الملاحظة، فإذ بكى أحد الأطفال هناك طريقة معينة للبكاء حيث يجلس الطفل الباكي في غرفته وحيدًا ويضع يده على فمه حتى ينام دون أن يكترث أحد إليه.

 تعود دعبس وأخته داليا على تحية المساء الفرنسية (بون وي) والصباح (بون جور) وكلمة الحند لله, الحند وليس الحمد فلم يلحظ الأبوان نطق الكلمة بحرف النون وليس الميم، كل ما يهم الأم قول الجملة فقط بعد العطس مباشرة باختصار الآلات صغيرة مبرمجة على أفعال دون أي نوع الفهم

لم يقصر أحد من الأبوين مع أولالدهم في شيء مادي قط إلا في ما اعتبره دعبس عمود المنزل الفقري بل هو الحياة كلها فبلرغم من الاحترام المتبادل بين الزوجين أمام الأبناء، فإنهم يبدو كل منهم في عزلة تامة عن الآخر, لم تلتقط آذانه مرة كلمة ود بينهم أو مداعبة بسيطة أو حتى قبلة امتنان

علاقة الأبوين ينتابها الفتور الذي أثر تمامًا في أخته الصغرى داليا التي أصبحت تجلس في غرفتها وحيدة تلعب بعرائسها وتكلمهم وكلما حاول مشاطرتها اللعب، كانت تشعر بلضجر من المشاركة شعر دعبس أنه يعيش في منزل يبدو للجميع أنه في قمة السعادة، بينما هو الوحيد الذي يشعر بالتعاسة الخانقة كل يؤدي دوره فقط، الأب يجلب المال والأم تهتم بالتربية والتعليم، ولا يغلف هذا الجهد الواضح من الأبوين أي نوع من الألفة, ففي الغالب يتحدث كل منهم للآخر أمام الناس فقط أو عند الضرورة كي يبدو أنهم عائلة سعيدة وبعيدًا عن الناس لا وجود للانفعال تمامًا, لا شجار أو مشاحنة ولا يوجد ضحكة من القلب أو أغنية تنتشر عبر الأثير يتشاركا في سماعها بشغف المحبين.

سمع دعبس أمه كثيرًا وهي تتحدث لأقرانها أنها تعيش فقط من أجل تربية الأبناء أي أن سبب هذا البناء الفارغ الرخو الذي يطلق عليه أسرة هو تورط كل من الأم والأب في الإنجاب واستمراريته مرهونة بوجودهم. جدران المنزل خالية تمامًا من

صور أفراد العائلة حتى تشعر بأنك داخل إحدى عيادات الأطباء أو في مشفى ونور المنزل هو الأبيض المائل للزرقة (الفلوروسنت) كحضانة أطفال حديثي الولادة

في سن الطفولة، لاحظت مدرسة التربية الاجتماعية شكوى الطلاب من أنانية الطفل محمد دعبس حيث لا يسمح لأحد أن يشاركه اللعب أو حتى قلمه الرصاص وفي كرة القدم وهي لعبة جماعية اشتهر دعبس بلأنأنية الشديدة.

استدعت مديرة المدرسة ولي أمره وقامت بتوضيح المشكلة لوالدته التي لم تنزعج وأخذت الموضوع باستهتار ودافعت عن ابنها بأنه طالما ينجح في الدراسة، فلا بأس, فكل ما يهم هو اجتيازه مراحل التعليم أما عن سلوكه فتوهمت أنها تقوم بتربيته أفضل تربية

اجتاز دعبس المرحلة الإعدادية بتفوق وخط شاربه وازداد صوته غلظة، ولم يعد يصغي إلى كل تعليمات أمه وإملاآتها عليه وعزف تمامًا عن مصاحبتها في الخروج من المنزل وزيارة الأهل واكتفى بلجلوس في المنزل أو انتظار أصدقائه للعب الدمينو أو الأتاري

وكما لكل مرحلة عمرية تجتازها أيقونة أو سلوك مرتبط بمكان وصيحة خاصة في الموضة بين الرفاق اهتم دعبس بالموضة السائدة وكان يتبعها بشغف، فهو من الأوائل الذين قاموا بحلق جوانب الشعر فقط (كابوريا) في المدرسة، وقام الأخريان باتباعه وكأنه

الفاتح العظيم الذي تمرد على الموضة التقليدية, فبدأ نوع جديد من تغير السلوك يطرأ عليه في هذا السن من بدايات المراهقة، فأحب دعبس دائمًا أن يحظى بالاهتمام الذي يفتقده كثيرًا في المنزل

وكان ينتشي أيضًا من حديث الأخريين عنه في أي شيء كأي مراهق في مثل هذا السن ولكن تحول الأمر مع دعبس إلى نوع من النرجسية، فبدأ في التعالي على بقية أقرانه مما استفز البعض من الزملاء الذكور ولكن بدى الأمر بالنسبة للإناث العكس، فكانوا يحاولون التودد إلى دعبس لقلة حديثه واعتنائه الشديد بنفسه، وعندما هم أحد الأشقياء من المتنطعين أمام باب المدرسة بمعاكسة إحدى الفتايات التي استغاثت بدعبس انتابته حالة من الجنون الوقتي، فقام بسحب المتنطع من قميصه وخنقه وسدد له عدد غير محدود من اللكمات والركل والصفع دون رحمة وقام بكسر قنينة (قلة مياه) موضوعة مصادفة على رأسه حتى انهار تمام في ذهول وعدم تصديق من الحضور.

تحول هذا الفتى صاحب الجسد الرشيق والوجه الأبيض والعيون الزرقاء إلى الرجل الأخضر الشهير ولم تكن تلك هي نهاية جولاته في شجار الشوارع ولكن كانت البداية

فبعد هذه التجربة الناجحة وعلاوة على النرجسية المتأصلة في شخصه بدأت أعتى مراحل المراهقة تتجللى, فأصبح كل همه أن

يصارع ويغلب كل المنافسين إلى أن لقبه البعض بالديزل لسرعته في الانقضاض على مهاجميه
يكفي فقط أن تكون بصحبة الديزل لتحظى بالحماية والاحترام وتثنى له أيضًا التعرف على بعض بلطجية الشارع والخارجين على القانون ولكن كان الكل يحذره بسبب واحد فقط القلب الذي لا يعرف الخوف من المواجهة
بعد أن توطأت علاقة دعبس بمنحرفي الشوارع ونزوله معهم في المشجارات, انهالت على والده عدة محاضر من أولياء أمور لبعض الطلبة الذين اعتدى عليهم دعبس بشكل مبرح فأصبح شديد الشبه بالذكر المسيطر في عالم الحيوان صاحب السطوة على شارع المدرسة وربوعها القريبة.

* * *

بلكون دكتور سامي علم الدين القاطن في العمارة رقم ١٢ شارع أمين سامي يكشف فيلا الكيال من خلف السور الأخضر الغامق, تحمل نقوش تللك الفيلا الطابع المعماري البلجيكي الذي يحتوي على الكثير من الأيقونات ميزت أغلب بنايات منطقة وسط البلد, تحيط بالفيلا حديقة صغيرة تحتوي على كوخ صغير من الخشب ذي سقف على شكل مثلث ويقع أمامه مباشرة شبكة متهدلة لكرة السلة وفي الخلف شجرة الكافور العتيقة التي تفوح رائحتها

وتملأ الأنوف في الخريف من كل عام.
أتذكرمباريات كرة السلة التي كنت أشارك فيها مراد في ليالي الصيف وأول تجاربي في التدخين كناحينها نقوم بفرك أيدينا بأوراق الكافور بعد تدخين السجائر خلسة كي تتشبع أيدينا برائحة الكافور وتمحو تمامًا رائحة التبغ، فكانت حيلة ذكية لا أتوقع أن يعيد تكرارها أحد مرة أخرى سوى جيلنا مواليد أواخر الستينيات.
أواة يا مراد لم أتوقع لك تلك النهاية المفزعة إطلاقًا
كنت أعلم أنه يعاني حالة اكتئاب بعد فقده والدته همت هانم الكيال الابنة الصغرى للكيال باشا وكيل وزارة الري أبان الحكم الملكي
.تللك العائلة التي سلبت منها الثورة أموالها وممتلكات أفرادها ولكنها لم تسلبهم التربية الجيدة والأرستقراطية التي تظهر في طريقة الكلام والجلوس وتدخين السجائر
عاش غريبًا مشتتًا ورحل هكذا, نعم فرقنا الزمن فمنذ تخرجه في كلية الفنون الجميلة وعمله مدرس رسم في مدرسة الفرير انقطعت الصلة به نهائيًا, كنت أعلم أنه إنسان في غاية الرقة لم يتحمل فراق أمه التي كانت هي كل حياته.
ولكن رسالته التي قرأتها أنا على الحضور كانت تنم على معاناة مزمنة, أعتقد أن من أهم أسباب نهايته هو انتحار الطموح

بداخله والاستسلام للحياة كان يريد أن يصبح رسامًا مشهورًا، وفشلت المعارض الفنية التي أقامها واحد تلو الآخر هو من أدخله في هذا النفق المظلم الكئيب.
قد أكون أخطأت في إهمال دعواته المرسلة لي مصحوبة بكلماته الرقيقة لحضور معارضة وفي عدم الاتصال به والاطمئنان على أحواله ولكنه القدر الذي لم يمهل أحدًا لإعادة تفكيره في أمر قصر فيه بقصد أو بغير ويصفع الكثير منا بحقيقة الدنيا.
تتغير ملامح الدنيا كلها بعد فقد صديق وينتاب القلب نوع من الخوف أن النهاية قد تكون اقتربت وأن موعد الرحيل قد حان وما يزيد الأمر مرارة أن يكون الفقيد أيضًا مقاربًا لك في العمر فيختل توازنك وتعيد النظر إلى الأمور بطريقة مختلفة تمامًا.
بعد تخرجي بنحو عام قابلته هائمًا في الطريق, وجهه الجميل فقد بهجته لوحته بيدي كي ينتظر ولكنه أشاح بوجهه إلى الجهة المقابلة وصعد سلالم الفيلا سريعًا وأغلق الباب.
العمر المتقارب والذكريات أن وُجِدت تدعوك للتساؤل هل ما أنا فيه هو الطريق الصحيح أم يجب علي تغير المسار بشكل جذري, فإذا لم أتعظ من تللك الحادثة الأليمة فمن سوف يكون لي واعظًا لم أعد أملك الآن من رفاهية الوقت ما يدعونني إلى التمحيص والتدبر أكثر من ذلك فأنا على مشارف الثلاثين أصارع طواحين الهواء التي لم تأتِ بجديد ولا أجد صبرًا يرضيني أو يدعونني إلى

الانتظار أكثر من ذلك.
مشهد صديق الطفولة المتدللي من سقف غرفته أكبر دليل وحافز على حسم أمور كثيرة وبداية التحرك الآن وكان كفيلًا لإعادة حسابات الزمن بشكل دقيق
فكرت في الاستقالة من وزارة الصحة مرارًا، فأنا غير منتج بالمرة، هناك هو مجرد عمل أتقاضى منه أجرًا ضعيفًا، ولا يحقق لي أي نوع من تحقيق الذات, من الممكن أن أظل هكذا حتى أنهي دراستي التكملية من الماجستير ثم الدكتوراة، ولكن الطريق طويل وممل وأعتقد أن هناك في الحياة ما هو أفضل من هذا التفكير العقيم الذي قطعًا يرتبط ارتباطًا شرطيًا بالزواج والإنجاب ودائرة طويلة لا أحبزها لأنها تبعدني عن تحقيق الذات واكتشاف نفسي كما أريد.
أغلب الأطباء الزملاء سافروا لتكميل دراستهم العليا بالخارج ولا أحد يعود, حتى القسم الوحيد الذي أحببته بداخل الدراسة صاحبه السبع العجاف (جراحه القلب) يستحوز عليه عدد قليل جدًا من الأسماء اللامعة حيث التواجد بجانبهم هو نوع من الانتحار المبكر.
كم حلمت بأن أطوف العالم منذ الصغر طبيبًا أداوي جراح البشر دون مقابل وسوف أفعلها الآن حتى لا أضطر لكتابة نفس رسالة مراد الكيال _(لم أجد معنى لوجودي) نعم هو حلم روائي مخمللي

جميل ولكن عسى أن يتحقق فأشعر بأني صاحب رسالة أو هدف.
الوظيفة المتاحة الآن سوف تمكنني من تحقيق حلم الدوران حول العالم طبيبًا على باخرة تنقل الركاب من الهند إلى السعودية فماليزيا ودول الشرق الأدنى سوف أتعرف بالتأكيد على ثقفات مختلفة ولعلي أجد رفيقة الدرب تناديني.
حزم د سامي علم الدين أمتعته وتوجه إلى غمام البحار بقلب جسور لا يحمل شيئًا ليخسره, يدفعه الطموح للغد المشرق ولتحقيق الذات بحرية بعيدًا عن تبوهات الحياة الباهتة المكررة.
رفع سيارته الريتمو في جراج الفلكي وودع أمه وأباه وأخته اللذين لم يقف فيهم أحد سدًا أمام أحلام الطبيب الشاب وقد من الله عليهم جميعًا بالصحة والعافية والستر.
أرسل برقية تهنئة في عرض البحر إلى أخته نيهال بالخطوبة واتصل بها ووعدها بالمجيء إلى مصر في خلال عام ليحضر عقد القران الذي تم بالفعل يوم ٢٥/٥/ ١٩٩٦
من ميناء إلى آخر ومن صديقة إلى أخرى انخرط د سامي في الدنيا بشكل قوي أطلق شعر رأسه يتدلى أسفل قبعته البيضاء وأطلق اللحية وحفها ثم أطلق شاربه وكأنهم علامات دوران الزمان بالنسبة له
وفي خلال رحلته اكتشف شغفه بمتابعة الأديان، فتربيته الوسطية في بيت مصري يمتاز بلسماحة، جعلته يتقبل فكرة تنوع الأديان

بين البشر فكان يحب التعرف على منظور الآخر للدين بوجه عام كنوع من الشغف

صلى العصر في جامع السطان حسن في برنوواي وأخذ صورة أمام تاج محل وتأمل الطبيعة في جبال التبت الصماء

ولم يدخر مليمًا واحدًا كل راتبه يضيع على أشياء يحبها (أفخر أنواع التبغ والأغلى من الطييب والعطر والأجمل من النساء والأشهى من المأكولات البحرية)

تنقل د سامي ما بين باخرة وأخرى إلى أن تمكن من الالتحاق بأحد أكبر سفن نقل الركاب التي تحمل علم بنما, وكان جليس القبطان السلوفاكي المولد الذي كان يحكي له دائمًا عن طفولته البائسة وهروبه من أبيه الصياد المتوحش الذي كان يعاقر الخمر دائمًا ويضرب أمه بشكل جنوني.

كانت حكايته عن مولده وأبيه تشعر د سامي بأدبيات الكاتب الإنجليزي شكسبير بما تحويه من كآبة الصورة والأم المغلوبة على أمرها والهروب إلى جحيم المدارس الأهلية التي تمتاز بطابع الصرامة المبالغ فيه حتى أنه كان يستعجب من طريقته الغريبة في الضحك المتقطع كأنه يرتكب إثمًا فتصبغ الضحكة بملامح حزينة ومن القبطان السلوفاكلي إلى المجري ثم السوداني فالإنجليزي حتى لقبه طاقم المركب بجليس القبطان

بنما هي أكبر دول العالم تسجيلًا للسفن

تعد بنما مركزًا بحريًا دوليًا لأعمال التمويل المصرفي والتأمين والشحن حيث ترفع أكثر من ٩٠٠٠ سفينة ضخمة وعدد كبير من المراكب من جميع أنحاء العالم علم بنما وتتمتع بإعفاء من ضرائب الأوفشور ببنما والقواعد الصارمة للسلامة البحرية والحماية التنظيمية والقانونية، ونظرًا للمزايا الواضحة التي تحظى بها السفن التي ترفع علم بنما، وموقع بنما الجغرافي الاستراتيجي في مجال النقل البحري العالمي، يصبح من الواضح سبب امتلاك بنما لأكبر مكتب تسجيل للسفن في العالم سواء من حيث الحمولات الإجمالية أو عدد السفن والمراكب المسجلة

* * *

كابوس مزعج أدى إلى قيام ميدو من مضجعه مفزوعًا ضائق الصدر ومنقبضًا, فكر في إيقاظ والدته وإخبارها بهذا الحلم الغريب الذي ظهر والده فيه يصارع الغرق، ولكنه تراجع وخلد إلى نومه مرة أخرى بعد شرب جرعة من الماء البارد.
وفي الصباح قبيل ذهابه إلى المدرسة, سأل أمه عن والده وهل استطلعت أخباره مؤخرًا, فطمأنته أنه بخير وأنه أخبرها عن شوقه وانتظاره الأجازة الصيفية بشغف لشراء شقة المصيف, ومن المنتظر أن تكون تللك آخر أسفاره إلى الخليج, وأنه أصبح في حاجة إلى دفء الوطن والعائلة.

أردفت أمه وهي تضع لفافة الطعام داخل حقيبته المدرسية الثقيلة, بأنها تحلم بهذا اليوم لكي يرتاح زوجها من عناء الغربة، ويجتمع الشمل وإأنها لم تصدق نفسها عندما حدثها عن العودة أخيرًا بعد أربعة عشر عامًا من الغربة., حمل ميدو حقيبته في همة وانصرف إلى يومه الدراسي العادي بعد سماع مجموعة من التعليمات اليومية المشروطة بافعل ولا تفعل.

أبان اليوم الدراسي، شوهد ميدو يجلس وحيدًا ولا يشارك أقرانه المزاح وكأنه يستشعر شيئًا ما قادمًا من المجهول لا تفسير له مطلقًا فهو مجرد ضيق للنفس,

انتصف اليوم في سلام وتم استدعاء ميدو إلى غرفة ناظر المدرسة أستاذ حسين همام

اعتقد ميدو أن هناك شيء ما يخص مسابقة أوائل الطلبة التي يشترك فيها دائمًا, فهو قطعًا ليس بالطالب المشاغب الذي يتم استدعاؤه لحجرة الناظر لتوبيخه أو تعنيفه على خطأ ما ارتكب أو حماقة طائشة.

عند دخول ميدو إلى حجرة الناظر وجد خاله سيد طويل القامة ممسكًا بسبحته المتواترة حبيباتها ويقف جانبًا شارد اللب, فاستغرب لمجيئه إلى المدرسة واعتراه نوع من الحيرة الممزوجة بالقلق.

مسح خاله على رأسه بحنان وقام أستاذ حسين الناظر بغلق

حجرة المكتب بهدوء
اقترب أستاذ حسين من ميدو في أبوة وسأله
إنت يا أحمد يا ابني مؤمن بالله طبعًا وكلنا مسلمين وموحدين صح وإنت راجل كبير في الإعداية دلوقتي مش كدة
نظر ميدو إليه نظرة من يستشعر البلاء من خلال المشهد، فهو يستطيع أن يقرأ جيدًا ما بين السطور,
سأل ميدو خاله عن أمه وحالها وما سبب زيارته المفاجئة في هذا الوقت
حسم خاله المتدين الأمر واستلهم آيات الذكر الحكيم الآية ٥٦من سورة العنكبوت وتلى عليه قول الله تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أستاذ ناجي توفي في حادثة شد حيللك يا بني
بهت ميدو وتضاربت مشاعره أيبكي أباه الذي رآه مرات معدودات أم يظل صامتًا أم يهرع إلى والدته كي تفسر له طلاسم الموقف, حضنه خاله في أبوة فلملم شتات أفكاره واستأذن مدير المدرسة بالانصراف, فأذن له بكل ود وأسى على حال الطفل الذي تيتم مبكرًا
يوم تشييع الجثمان، كان يومًا طويلًا ابتداءً من إنهاء إجراءات خروج الجثمان من مطار القاهرة الدولي إلى دفنه بقرية طناح بلمنصورة, يوم كئيب تأبى ساعاته أن تنتهي وسط مشاعر ذهول

وحزن واستغراب من الزائر المجهول الذي يقضي على كل شيء أحلام البسطاء وصحة الأقوياء ومرض العجائز وغنى الملوك وغربة الآباء.

وقف ميدو يتلقى العزاء في سرادق مسجد نبيه هانم بحي المنيرة مرتديًا البدلة السوداء ويقف بجانبه خاله سيد وبعض من الأقارب من بلده الأب وموطنه الأصلي قرية طناح

قاطع المقرئ الحضور أكثر من مرة، وهو يحسهم على التوقف عن الثرثرة ويذكرهم بقول الله تعالى وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون, ولكن بلا فائدة.. جمع من أصدقاء والده الذي لم يعرفهم مطلقًا, وخيل له أنهم التقوا توًا في العزاء, فبدخول واحد تلو الآخر، يهم الكل بالقيام للسلام عليه والغوص في أحضان دافئة وكأنهم لم يروا بعضهم البعض منذ سنوات.

استرق السمع على همس الكثر منهم أن والده أضاع كثيرًا من العمر خارج الوطن وأنهم يشفقون على هذا الصغير مرتدي البدلة السوداء الذي يتلقى العزاء بيد مرتعشة.

امتزج دخان السجائر الكثيف مع دخان البخور ورائحة القهوة والثرثرة وبتصديق الشيخ والدعاء للمُتَوَفى انتهت مراسم العزاء, احتضن أغلب المعزيين ميدو بقوة ومسحوا على رأسه وترك له معظمهم أرقام الهواتف وأقسموا عليه بسرعة الاتصال بهم في أي وقت إذا احتاج لشيء وسمع تلك الجملة المكررة

(اعتبرني زي بابا يا حبيبي)
كان يريد أن يصرخ من أبي في الأصل كي أستعين بكم لم يستوعب هذا الكم المبالغ فيه من ادعاء الحزن على شخص حتى لو كان في مكانة أبيه ولكنها غربة المكان والسنين والآن يغربه الموت ويضع حدًا لأوهام الأبوة، بينما في عزاء السيدات اكتظت النسوة متشحي اللون الأسود داخل أروقة المنزل تتعالى الأصوات في الحديث عن حال الدنيا وعن سعر كيلو البامية وانخفاض درجات الحرارة والأكازيون الشتوي إلى أن قطع تلك المكلمة صوت الأم الهادر
شكر الله سعيكم يا جماعة, أنا عايزة أستريح أنا وابني متشكرين جدًا
شوفوا الست القادرة,
هكذا تمتمت خالة المُتَوَفى تاركة المكان تتعجب من فعل والدة ميدو الحاسم, وخلفها أغلب المعزيين إلى أن أصبح البيت خاليًا من النسوة سوى أم منى الشغالة التي وقفت على حوض غسيل الصحون منهمكة في عملها في صمت.
اقتربت والدته منه واحتضنته وبكت لأول مرة يرى عيونها حزينة بتلك الدرجة تلك السيدة التي زادها الحزن جمالًا ووقارًا في آن واحد, استطلع فيها قوة غير عادية، عندما نهرت الجميع ودعتهم إلى الانصراف تحولت إلى رجل قوي الشكيمة بين ليلة وضحاها. أخبرته أنه أصبح رجلًا الآن بفعل القدر وعليه تحمل المسؤولية

بجانبها وأنه لم يتغير من الأمر شيء سوى عدم مجيء الأب في أجازة الصيف ولكن كل الأمور الأخرى ثابتة كما هي, بدت وكأن بداخلها مرارة فقد الزوج ومرارة أخرى لم يشعر بها أحد سوى ميدو وهي الإخفاق في تكوين أسرة بمعنى الكلمة وفي عينها عتاب خفي لزوجها على عدم استيعابه كلامها ومكوثه في أرض الوطن عوضًا عن الغربة التي أنهاها القدر.

تغيرت طباع الأم إلى الحدة وأصبحت شديدة العصبية ومتقلبة المزاج, أنهت إجراءات إعلام الوراثة والمجلس الحسبي ووقفت على الموقف المالي لزوجها جيدًا ذهبت إلى البنك وجزأت الميراث إلى وديعة سنوية لا تفك إلا عندما يبلغ ميدو سن الرشد, والمتبقي من نصيبها اشترت سيارة مستعملة فيات١٢٨ زرقاء اللون وعكفت على تدبير أمور المنزل بالمعاش الشهري لزوجها

فكرت في عمل مشروع يدر عليها دخلًا إضافيًا لكن واجهت نفسها بالأمر الواقع فلا داعي للدخول في أي نوع من المشاريع دون خبرة, فهي من القلائل اللائي تزوجوا أبان المرحلة الجامعية في السنة النهائية لجمالها الهادئ وأدبها الجم

اختار أستاذ ناجي والد ميدو زوجته جيدًا وهو مطمئن, فعند زيارته لدكتور حمدي الدالي طبيب الأسنان بشارع نوبار فضلت الآنسة ليلى عدم مشاركته ركوب المصعد وانتظرت حتى تصعد بمفردها, حينها دق قلبه لها سريعًا فكان حلمه فتاة من المدينة

تحمل خجل بنات القرية وحياءهن, فأرسل لأهله بالمنصورة واستدعاهم لزيارة والدها وتم الزفاف في غضون شهور قلائل في شقته الجديدة الإيجار بشارع الفلكي.
كانت لا تحمل أحلامًا كبيرة بالزواج من ثري أو انتظار الأفضل, فمنذ شبابها وهي تحلم بمنزل هادئ وأطفال كثر وزوج متعب من كفاح يده يأتي مساءً يلاطفها بكلمات الغزل ويحكي لها عن يومه الشاق, تزيل عنه هموم اليوم وتشعر معه بالهناء والدفء والمحبة
ولكن فاقت أحلام أستاذ ناجي أحلامها بعد أول عام زواج، عندما غزت عقود العمل في الخليج عقول الشباب أبان تلك الفترة، وتركها بحثًا عن المال لزيادة الدخل ورفع مستوى المعيشة والاشتراك في النادي وشراء شقة للمصيف في العجمي وإشباع أحلام اعتقد فيها أنها جالبة للسعادة والأمان الاجتماعي.

* * *

تغير فكر دعبس تمامًا وكف نهائيًا عن الدخول في مشاجرات وكأنها نهاية مرحلة، يكون الهم الأكبر للذكور فيها هو استعراض القوة العضلية أو مرحلة الذكر المسيطر وبداية مرحلة جديدة ترتبط تلك المرحلة ارتباطًا وثيقًا بالتعرف على الجنس الآخر (المصاحبة) وهي أن يكون لكل فرد من الأصدقاء رفيقة على سبيل الارتباط

وتقليد الكبار
صاحب دعبس الكثير من الفتايات في المدرسة ومجموعة أخرى من الدروس، لم يجد أي صعوبة في تكوين صداقات مع الفتايات، فمنهم الكثر اللاتي أحببن أن يبقوا بجانب دعبس الفتى المشهور القوي الذي يهابه من حوله، فهو بالنسبة لهن نوع من المغامرة الجميلة التي لا يصاحبها ملل ولكن لم يتعلق قلب دعبس بأحدهن واكتفى فقط بكونهم حوله, وتحول شغفه الأكبر إلى الدرجات البخارية وجنون السرعة, فبعد إلحاح شديد استطاع إقناع والده أن يشتري له دراجة بخارية موتوسكل ماركة (هوندي راسينج cbr ٢٥٠),
مساء الخميس من آخر كل أسبوع يحتشد الأصدقاء في شارع أحمد راتب بحي جاردن سيتي أمام لابوار, وتلك هي نقطة التقائهم في المرحلة الثانوية أسفل منزل أحد الأصدقاء حيث وجدوا في هذا الشارع تحديدًا مساحة للجلوس على رصيفه الواسع بحرية ودون استياء من الجيران لصوتهم العالي الذي يمتزج فيه الضحك بالصراخ.
دخل دعبس الشارع في سرعة قصوى وركن دراجته البخارية عند الكشك بمحازاة لابوار ونادى الرفاق كي يستطلعوا الماكينة الجديدة والسريعة وهم بعض الحضور من الفتايات في الركوب خلفه والصراخ بصوت عال عند محاولة رفع العجلة الأمامية والسير

على العجلة الخليفية فقط (حصان), شعوره بالزهو يزداد وهو يرى الجميع يتمنوا مكانه أو ما حظى به من اهتمام الفتايات حتى لقبه البعض بلقب جديد السندباد من كثرة تغير الفتايات خلفه واستمر الحال هكذا, وبدأ هوس الدرجات البخارية يجتاح الجميع, الكل يتبارى في سباقات السرعة والاستحواز على قدر كبير من الفتايات بل اعتبر الكثير منهم دعبس هو القدوة, فبالرغم من تهوره، فهو يحمل إيجابيات كثيرة على المستوى الإنساني أيضًا، فهو شهم يدافع عن أصدقائه دون تردد حتى لو كلفه ذلك دخوله في مشاجرة جديدة أو محضر جديد يقيد ضده

لم يكتمل حلم طالب الثانوي إلا باقتناء الكلب الشرس هو نوع من تكملة زمرة الأحلام المحدودة التي لا ترتبط كثيرًا بالسعي الشخصي أو النضال من أجل تحقيق الرغبات والتي يرجع الفضل في تحقيقها إلى حرص الوالدين على تحقيق أماني الأبناء لمجرد إسعادهم فقط, فهم يعتقدون أن العمر قد انتهى ويكفي الفرحة في عيون الأبناء وبالفعل قام بشراء أنثى كلب من نوع البوكسر شديدة الشراسة أطلق عليها توسكيينا وزين رقبتها بطوق من الجلد البني العريض.

وكما كان دعبس الملهم بين الرفاق في ركوب الدرجات البخارية، كان له السبق في تربية الكلاب, وفي حي جاردن سيتي مساءً تجد معظم أبناء الحي يقومون بتمشية الكلاب وتريضها, يختار

دعبس سور أحد السفارات دائمًا لاستقامته وعرض حجمه لتريض كلبته ويشرع في فك الطوق السميك من رقبة توسكينا ويأذن لها بالحرية والركض ويركض دعبس بالقرب منها أو بمحازتها وهو يرتدي الملابس الشبابية الخفيفة الكاب والشورت الجينس الأزرق والحذاء البومي الأبيض

ما أجمل أن تمرح وسط الأصدقاء تشاركهم الركض في ليالي الصيف التسعيناتي البديع لا يعلو الهم الوجه بل يعلوها الهمة في الوصول إلى نهاية الرصيف فقط وكأن أجمل أحلام العمر سوف تتحقق عند انتهاء الجولة، ويتوج الكلب الفائز بالسباق, تتعالى الضحكات في مرح إلى أن رفعت توسكينا أذنيها وهي عادتها عندما تنتبه إلى شيء ما غريب أو قطة شاردة وبدأت في العواء وكشرت عن أنيابها وأفلتت من يد دعبس ركضًا خارج الرصيف. فجاءت حركتها السريعة دعبس لعلها لمحت شيئًا لا يعلمه استمرت في الركض وهو خلفها وكل ما يدور في باله كيف استطاعت توسكينا أن تكسر أوامره والخروج عن المتعارف عليه وتمردها وهو الذي اهتم بتدريبها على الطاعة من أول يوم امتلكها

وصلت إلى نهاية الشارع تسمرت أسفل قدم فتاة تحمل على كتفها كلبًا من نوع الشيبواوا. صغير الحجم نسبيًا وخائف من نباح توسكينا الشرس، بينما تقف صاحبته مرتعدة، ولكنها تحتضن كلبها بقوة للدفاع عنه من همجية هذا الكلب الشارد

حاولت أن تلوح لتوسكينا بيدها الصغيرة كي تبتعد ولكن بلا فائدة بل زادت عصبية توسكينا وتحفزت للهجوم على الفتاة وكلبها الصغير, عندها وصل دعبس لاهثًا فأحكم قبضته على رقبة توسكينا وقام بختفها تأديبًا لها على ترك الرصيف والجري العشوائي وقام بضربها على مقدمة فمها (بوزها) كان كل ما أزعجه هو كيف تتركه توسكينا وتجري هكذا وهو الذي يتفاخر دائمًا بأن كلبته شرسة، ولكن تطيع الأوامر انتهى من تعنيفها حين سمع صوتها تئن وكأنها تألمت من شدة الضرب فتوقف على الفور وانتبه أنه أفرط في العقاب بشدة

تنتابه دائمًا هذه الحالة عندما يتملكه الغضب لا يتوقف عن الضرب إلا عندما يجد غريمة تهاوى تمامًا يشعر في نفس اللحظة بنوع من الألم الشديد على ما اقترفه وكأن الندم يأتيه فورًا قبل أن تهدأ أنفاسه من المجهود, نظر لتوسكينا يعاتبها ويحملها ذنب تهوره ثم بدأ في تحسس من حوله بإجهاد

وجد الفتاة في شدة الانزعاج فتهيأ له أنه بسبب هجوم توسكينا المباغت لها وبدأ في الاعتذار بشكل هستيري وغير مرتب, لم تعره الفتاة انتباهًا وكأنه غير موجود بالمرة وجلست القرفصاء وأخذت في احتضان توسكينا ومداعبتها إلى أن قامت توسكينا بهز ذيلها يمينًا ويسارًا تعبيرًا عن الفرحة

أصبح موقف دعبس الآن في غاية السوء وشعر بالخجل من

نفسه وأنه بدى للفتاة بأنه حيوان منزوع الرحمة، فبدأ في ترتيب كلماته وتبرير عقابه الشديد لكلبته الضالة، فابتسمت له الفتاة متظاهرة بتفهم موقفه

اطمأن دعبس عندما ظهر عليها حالة التفهم وأمعن التركيز في وجهها شديد الجمال العينان سوداء داكنة وواسعة والأنف دقيق واللون الخمري الأصيل والطول المناسب والشياكة المتوافقة مع موضة العصر في هذا الوقت حيث لمح سلسلة سوداء تنسدل أعلى التي شيرت تحمل علامة السلام (١) وبدأ في مداعبة الكلب الذي تحمله وسألها عن اسمه فشاورت له أن يتوقف عن مداعبة الكلب وقالت في هدوء

متهياألي إن الكلب دا غلبان أوي معاك, أعتقد إن العنف بتاعك دا ميستحملوش حد وخصوصًا إنو مبيتكلمش

تركته الفتاة واجمًا ينظر إليها وهي تختفي عنه ببطء, كلمتها صفعته أشعرته بخلل نفسي هو يعلمه ولكن يتباهى به، ظل ينظر إليها حتى وصلت إلى منتصف الشارع وصعدت عمارة صغيرة من أربعة أدوار يحاط بها حديقة صغيرة تحمل اسم عمارة القبطان.

* * *

حياة البحر ليست هي أحلى حياة، كما غنى الفنان محمد ثروت

تلك الشطرة الخالدة في الأوبريت الشهير يا طيور النورس في ثمانينيات القرن الماضيأيامه طويل ورتيبهمما يجعل أغلب الطاقم يتجرع النبيذ بشكل مبالغ فيه وينتظر تتابع الأيام الثقيلة حتى تمر, يدعون السعادة في بعض الأحوال وينفجرون في الغضب أوقات أخرى على أهون الأسباب وينتاب معظمهم حالات اكتئاب من طول الرحالات وغربة الوطن.
أحيانًا يكون الليل بديعًا وهادئًا وأحيانًا أخرى يكون في قمة الكآبة والعتمة والصمت والبحر أيضًا في طباعه قمة الغرابة والتقلب إذا غضب فلتهرع بتلاوة الشهادة مباشرة دون تفكير واستعد للدار الآخرة وأن سالم كان كالطفلة الصغيرة في جمالها وشقاوتها البريئة.
أفتقد كل شيء فلم أرَ الأهل في الخمسة أعوام الماضية سوى مرة خاطفة منذ أن التحقت بتلك العبارة العملاقة التي لا ترسو على شواطئ الوطن قط, فخط سيرها من الهند مرورًا بأغلب دول العالم ولكن قلبي دائمًا معلق بشارع الفلكي وقهوة زغلول بالمنيرة حيث ضحكات الأصدقاء التي ما زالت ترن في أذني إلى الآن.
دائمًا المسافر والمهاجر يعتقد أن الزمن يتوقف في موطنه الأصلي على آخر مباراة كرة قدم وكوب عصير وبولة إستميشن على القهوة مع الشيشة السلوم وإن الأصدقاء لم يتفرقوا قط، وهذا غير صحيح، ففي الغالب تتبدل الأيام على الرفاق وسرعان ما تبقى تلك الجلسات الجميلة ذكرى لديهم ولكنها حية في وجدان

المسافر فقط وربما أكون مخطئًا.
وجوه من البشر تتوافد علي كل يوم، تتبدل الأشكال من العرب إلى الآسويين والأفارقة والروس والأمريكان والأوروبيين وبلاد الفرس وكل من يأتي إلى حجرة الطبيب للكشف، ألمح في عينيه نظرة خائفة أن يكون مصابًا بمرض عضال ويلقي حتفه قبل الوصول إلى الشاطئ ويقذف في البحر وتقام عليه الصلوات الجنائزية، وأغلب الحالات تكون أوهامًا ورهاب من ركوب البحار.
 لا أعلم كوني طبيب يشكو إليه الناس أوجاعهم هو الذي علمني أن أفهم ما وراء نظرات العيون الزائغة أم هي قسوة القلب التي أصابتني من تكرار المشهد الذي أصبح شيئًا عاديًا لي, أبدأ علاجي للمرضى بمطمئن نفسي أو مهدئ وفي حالات أخرى منوم حتى تنتهي الرحلة ويفاجء الراكب بالوصول إلى رصيف الميناء فيحتضنني بقوة ويشكرني على تعبي في علاجه وأنا لم أفعل شيئًا قط
عدل د سامي من وضعية جسده للنوم على شقه الأيمن بعد أن طال نظره لسقف غرفة نومه الضيقة رافعًا قدمه على الحائط وواضعًا يده أسفل منطقة الظهر.
اعتاد أن يحملق إلى السقف ويترك أحاديث نفسه تنساب متفاعلة مع دقائق المنبه المسموع وتعلم هذه الحلية لتفريغ شحنات الضغط النفسي من درس يوجا لمحاضرة ألمانية في جبال التبت.

بدى خياله يسرح في جمال الطبيعة الجبلية لجبال التبت الخضراء وتسرب النوم إليه في هدوء رويدًا رويدًا إلى أن سمع صفيراً عاليًا وخبطًا قويًا على باب غرفته.

استشاط غضبًا وتوقع أن تكون الممرضة هيام التي ينعتها بأم الشهيد من شدة بؤسها؛ فهي دائمًا تكرر نفس الأخطاء والأمر كلعادة لا يستدعي إفاقته من النوم

قام بفتح الباب بعصبية شديدة، فوجده ضابط ثاني المركب يخبره أن القبضان ينتظره في غرفة الاجتماعات فورًا

ارتدى د

-سامي زيه الأبيض سريعًا وهرع إلى غرفة الاجتماعات, لاحظ وجود أغلب طاقم المركب والمهندسين الفنيين بزيهم الأزرق وتظهر على ملامحهم علامات القلق الشديد

وقف القبطان على رأس الطاولة وأخبر الجميع أن هناك عطلًا فنيًا في ماكينة الطرد الرئسية مما يؤدي إلى دخول الماء إلى المركب بنسب بسيطة, ومن سوء الحظ يصاحبه عطل في خراطيم التنشيف التي تعمل على شفط المياه إن زادت وطردها خارج المركب ومن المرجح أن تغرق السفينة في خلال خمس ساعات تقريبًا وهذه مدة لا تكفي للوصول إلى أقرب ميناء

أشعل القبطان سيجارة الكوبي وابتسم ابتسامة الواثق في فريق عمله وأخبرهم أنه المطلوب إجلاء الركاب جميعًا دون أي نوع

من الإصابات أو الحوادث في أقل من ساعة وطمأنهم أنه أرسل رسالة استغاثة تلاقتها الفرقاطة الثانية للبحرية الأمريكية التي تحركت بالفعل لنجدتهم من نصف ساعة مضت
نظرات حيرة ممزوجة بحماس من كل طاقم السفينة حتى شيفات المطبخ وعامل النظافة الذي أصر القبطان مارجو البرتغالي على حضورهم الاجتماع كي يرفع من روحهم المعنوية لتحقيق الهدف وهو نجاة الركاب جميعًا دون إصابات أو مفقودين.
د\سامي
انتبه د سامي ونظر إلى القبطان ينتظر الأمر
أنت قائد المجموعة الأولى للإخلاء التي سوف تمهد العمل لباقي الفريق كي ننهي الأمر سريعًا وهو دور مهم وخطير, عليك أن تخبر الركاب بهذا الخلل الفني بطريقتك الدبلوماسية، والأهم أن يتركوا حقائبهم هنا ويأخذوا فقط المتعلقات الشخصية سهلة الحمل خفيفة الوزن, انتهى الاجتماع سريعًا، فالجميع مدرب على حدوث تلك الأزمات والتعامل معها.
تحرك د سامي مباشرة إلى ضابط الإشارة وأمسك الميكرفون وابتدع حيلة في منتهى الذكاء لتجميع الركاب بأخف المتعلاقات الشخصية
أمسك الميكرفون أدار نغمة مبهجة كإعلان بدء احتفال وأخبر جميع الركاب الصعود إلى مطعم السفينة لعمل سحب على

أرقام جوزات السفر والفائز سيجني ألف دولار وعليهم إحضار أطفالهم إن وُجِد لتوزيع الهدايا المجانية
اجتمع معظم الركاب في صالة الطعام وأمر د سامي الشيفات بتوزيع قطع من الحلوى والعصائر
أمسك د سامي المكريفون وبدأ شرح الوضع للحضور بابتسامة وجد سيدة تصرخ وتحتضن طفلها الصغير فأخبر الجميع في حزم أن طاقم السفينة مجهز ومدرب جيدًا على حالات الإخلاء ويجب أن يثق الجميع في عناية الله ثم الفريق كله وأردف أعلم أن الوضع خطير ولكن لن نسلم أنفسنا للهواجس
اتفضلوا علشان هنبدأ عملية الإخلاء في خلال ٢٠ دقيقة وكل واحد يقف أمام غرفته بجواز سفره وحافظة نقوده فقط حتى الساعات اتركوها حتى ننظر في الأمر
كان البحر في منتهى الطاعة في تلك الليلة والقمر منير بقوة، وكأن العناية الإلهية لاحظت ما يحدث
وبعد ساعات قليلة من عمر الزمن انتهت أفضل عملية إخلاء حدثت بشهادة الخبراء في مدة قياسية وصعد كل الركاب والطاقم أعلى الفرقاط الأمريكية التي غيرت من طريق سيرها خصيصًا لمساعدة السفينة العالقة في البحر والغريب في الأمر، أنها كانت تقوم بتصوير كل فرد قبل أن تطأ قدمه الفرقاط كأنهم من أسرى الحروب

كان دور د سامي فعالًا جدًا في تلك الحادثة، وقامت هيئة السلامة البحرية بتكريم طاقم السفينة في حفل مسائي ومنحهم شهادات تقدير وأوسمة وتحدثت الصحافة عن بطولة الطاقم
كانت تلك الحادثة سببًا مباشرًا في العودة إلى مقر الشركة الأم في مدينة الضباب في المملكة المتحدة حيث منح د سامي لقب كبير أطباء أعالي البحار من شركة أيليت للنقل البحري التي تحمل علم بنما ومقرها لندن وتعويض يقدر ب ٢٠ ألف دولار عن فقده معظم متعلاقاته وعقد لمدة ثلاث سنوات بأضعاف مرتبه وتذكرة سفر إلى أرض الوطن مدفوعة الأجر على ألا تتخطى أجازته أكثر من شهر ويلتحق بالمركب ثانية بعد انتهاء أعمال الصيانة للبدء في الرحلات القادمة.

* * *

انتقل ميدو إلى مدرسة الإبراهمية لاستكمال مرحلة التعليم الثانوي وكان لهذا التغير أكبر الأثر، فَقَدَ ميدو دعبس صديق الطفولة علاوة على دور البطولة في حياته وأول المناصب التي تقلدها وهو رئيس فقرة الإذاعة الصباحية بمدرسة اللوتس الخاصة، حيث إنه كان يطلق لإبداعه العنان عندما يرتب الفقرات التي تبدأ بآيات الذكر الحكيم وتنتهي دائمًا بحكمة اليوم, ويأسى ميدو بضياع شغفه الحقيقي على مدار أعوام متتالية

حينما كان يصتف الطلاب أمام العلم في مبنى القصر تشرئب أعناقهم إلى الأعلى في كسل صباحي يتابعون فقرات الإذاعة المختلفة إلى أن يحين دور ميدو في الخاتمة, فيمسك ميدو بميكرفون الإذاعة ويحتضنه وينظر إلى التلاميذ أسفله ويلقي حكمة اليوم بلسانه ويستشعرها بقلبه وبعدها مباشرة يبدأ الطلبة بتحية العلم ثم الانصراف إلى الفصول بنظام

اعتاد ميدو ذلك طوال أيام الدراسة، فهو يعشق الحديث إلى الطلبة من خلال هذا الشيء المعدني شديد التأثير الذي أكسبه شهرة كبيرة بين الطلبة وينتشي ميدو عندما يسأله أو يناقشه أحد في معنى الحكمة أو ما هدفها ومغزها

لا شك أن جيل ميدو هو آخر جيل سمع الإذاعة بكل أنواعها، فكان يفتح عينيه الثقلتين من النوم على برنامج بصبح عليك ولأنه قارئ شرهة لرجل المستحيل وسلسة عبير فكان يحول تلك الألغاز إلى مسلسلات صوتية يقوم هو بتسجيلها بنفسه يغير من طبقات صوته ويستخدم أيضًا تقنيات بسيطة كغطاء حلة أو قاعدة خشبية لكرسي قديم لإصدار صوت الانفجارات أو الصفعات, قام ميدو بتسجيل كثير من تلك الحلقات ولكن دائمًا كان يحتفظ بها في درج شرائط الكاسيت

حبه الشديد للميكرفون جعله يستمر في تلك الهواية وإنما بشكل آخر واستخدم تقنيات العصر فاستبدل الكاسيت الناشونال الذي

أحضره والده من الخليج بجهاز حاسب آلي للتسجيل واشترى ميكرفون حديث التقنية

وفي ركن من أركان الغرفة، صنع لنفسه إذاعته الخاصة وحلمه وعالمه الخاص يتحدث الآن ولكن لا يوجد مستمعون ولا أنظار تنظر له من أسفل

يقوم بتسجيل كل مشاعره المضطربة ويصيح ويختار الأغاني التي تناسب حالته وينجلي بالساعات حتى أنه كان يشعر أحيانًا بحالة تقع بين الوعي واللاوعي وهو يرتجل الكلمات ويشعر بالسعادة عندما يعيد على آذانه ما قام بتسجيله

وأثناء إعادته لسماع مشهد قام بتسجيله من روايات ألف ليلة وليلة حيث يعتللي بطل الرواية أجنحة الجني ويسبح به في الفضاء الخارجي, سمع ضجيجًا في الخارج وصوت مشاجرة قوية تدور في الصالون فهرع إلى والدته يستطلع ما في الأمر

فوجد أمه تقف على قدميها المرتعشة أمام أحد الجيران وتأمره في حدة

اتفضل اطلع برة يا كلب, برة يا وسخ يا ندل

وقامت بإغلاق باب المنزل بقوة خلف الزائر صاحب الكرش الكبير والصلعة اللامعة الذي حال بينه وبين اشتباك والدته معه بالأيدي هرولته السريعة إلى الخارج وكأنه كورة قدم تتدحرج إلى الباب في خفة

سأل ميدو مندهشًا والدته عن سبب شجارها مع هذا الجار الودود الذي طالما ألقى عليه السلام وسأله عن حاله إن قابله مصادفة حتى أنه يستشعر من ناحية حنان أبوي وطيبة قلب واضحة

فما كان جوابها إلا

طبعًا بيتمحلسلك ابن الكلب

أخرجت من بين طياتها علبة سجائرها الكليوبترا السوبر, فهي لم تتعود التدخين قط طيلة حياتها ولكن منذ حالة الوفاة اتخذتها حيلة للتنفيس عما بداخلها كانت تريد أي نوع من المشاركة الصامتة حتى ولو بينها وبين سيجارتها الطويلة التي لا لن تفشي سرًا ولا تثرثر كالنساء

وبصوت مكتوم

الرجالة كلهم ولاد كلب أوساخ

الراجل النجس بيقوللي عيني عينك كدا أتجوزك عرفي وبيلمح باحتياجي لراجل في الفراش قال إيه كمان يحميني من الفتنة فاكر نفسه راجل أوي وهو شبه النسوان طب يبص لنفسه في المرايا الكلب دا الأول

نظر لها ميدو مستنكرًا لكلامها فهي لأول مرة تصرح بهذا الكلام الجريء أمامه مما أثار فيه حمية الرجل على أهل بيته واستشعرت تلك الحمية أمه في عينه الغاضبة

وكأنها تعاتبه على فعل لم يرتكبه
أيوا لازم تبقى فاهم أنا بعمل إيه وبحاول أحافظ عليك وأحميك لحد متبقى راجل الناس تعملك حساب
أبوك سيبني لسة شباب وراح..
وكل كلب نجس يجي يمسح ديلو فيا أنا تعبت..
ودخلت في نوبة بكاء شديدة، فما كان من ميدو سوى أن يضمها إلى حضنة الصغير ويهمس في أذنها برجولة صبي يستشعر المسؤولية
معلش يا ماما بكرة أوقف كل واحد عند حده متزعليش والنبي خلاص
أدرك ميدو أن أمه تعاني تلميحات الرجال البذيئة, وطالما عانت لأنها قضت معظم حياتها في وحدة, وأن الرجل المطرود ما هو إلى أحد الجيران الذي ادعى أنه يريد تدخل أمه في حل مشكلة عائلية وبعد شكوى مريرة من أفعال زوجته أخبرها برغبته في الزواج العرفي منها حتى لا ينقطع معاش زوجها, فما كان منها سوى طرده خارج المنزل
أمسكته والدته من يديه بقوة, أخبرته أنها تريده أن يكبر بسرعة حتى يحميها من الأعين الجائعة والذئاب في شكل بشر, تناست الأم بفعل الضغط النفسي القاسي أن ابنها لا يزال صغير الاستيعاب هذا الكم من الهموم الطارئة، فهي تطلب منه أن يصبح رجلًا

سريعًا على الرغم من تسلطها على كل أفعاله في تناقض شديد.
فهم ميدو الأمر جليًا, كان للقدر حكمه في أن يترك ميدو دراجته وألعابه من بين يده كباقي الأولاد في نفس سنه ويبدأ في التفكير في مشاعر إنسانية جديدة على صبي يافع كحماية والدته من أطماع الناس ومحاولة البعض هتك أسرار المنزل بدعوى التعاطف مع الأرملة وابنها اليتيم.
مسح بيده على وجنتها فقبلت يده وأخبرته بأنها ترى فيه والده المفقود وسوف تعيش لأجله, وأنها تريد العيش في عزة وكرامة والابتعاد التام عن المتاجرة بحالتهم الاجتماعية كما يفعل أغلب الضعاف من النساء.

ا

تنهش توسكيينا على باب الغرفة بقوة كي يفتح دعبس لها الباب, كما تعودت أن تبقى بجانبه طيلة الوقت تؤنث وحدته ولكن ضربها بعنف سبب لدعبس اضطرابًا نفسيًا وشك بأنه غير أهل لامتلاك صديق وفي, فهو لا يستطيع أن ينسى عواءها وهي تئن من الوجع وكيف يشرح لها أنه لم يقصد إيلامها على قدر تعليمها أصول الركض في الشارع وطاعة الأوامر, اكتشف أول انعكاس لتربيته البلاستيكية الخالية من الروح تمامًا فعندما تحمل مسؤولية كلب أليف أخرج ما به من نواقص وتنسى أنه يتعامل مع كائن حي وليس آلة مبرمجة كتربيته هو وأخته في الصغر.
في تلك الآونة أيضًا يعاوده الإحساس ببرودة المنزل وخلوه الدائم

من المشاعر تمنى أن يفتح باب غرفته ويجلس مع عائلته أمام مسلسل السابعة والنصف كأي منزل مصري أصيل أو حتى يحكي لهم الموقف الذي أشعره بأنه حيوان في نظر الغرباء ولكنه تنهد واتهم أمه وأباه بأنهما السبب في كل شيء غير طبيعي يصدر منه فهو تعود دائمًا كتمان مشاعره داخل المنزل، وعندما تتاح له الفرصة للتعبير يجنح إلى العنف مباشرة دون تفكير

لا يعلم ماذا أصابه من كلمات تلك الفتاة المرتب والصادم جدًا الذي كشف عما به من خلل وتذكر حاله عند الخروج من أي مشاجرة بقدر زهوه بالانتصار على خصمه وتلقينه درس قوبي، ولكنه دائمًا في الليل عند الظلمة والوحدة كان يبكي بكاءً شديدًا, لا يعلم لماذا يفرط في القسوة في حالات العنف حتى وإن كان منتصرًا, وعلى الرغم من مكانته كذكر مسيطرًا وسعى الجميع لخطب وده وتقليده فيما يفعل إلا أنه كان يشعر بألم وتأنيب ضمير ولعل هذا السبب الرئيس الذي جعله يقرر ألا يدخل في مشاجرات مرة أخرى.

شعر دعبس بالوحدة رغم الكثرة، فهاتف المنزل لا يهدأ أبدًا من الاتصالات التي تلاحقه لترتيب خروج أو نزول ليلًا أو من فتاة تريد أن تعترف له بأنها تحبه وترغب في مصادقته أو أخرى تشكو له حالها مع من تحب وتريد نصحه كنوع من إرهاصات المراهقة وتعجب من حال تلك الفتاة التي اتهمته وكانت محقة تمامًا بأنه

قاسي ولا يحمل من الرحمة شيئًا وكيف لم ترني كما يراني الكثير
ممن حولي ولما لم تحاول حتى أن تقف وتسمعني
نهش توسكينا يزداد ونباحها أيضًا وأمام إصرارها قام من مجلسه
بمشقة مريض وفتح لها الباب جرت عليه هزت ذليها يمينًا ويسارًا,
حملت كرة التنس في فمها تريد أن يشاركها اللعب وقامت
بلحس وجهه عندما اقترب منها وحضنها نست كل العنف وكأنها
لا تحمل قلب بشر يعرف اللون الأسود ربط عليها كثيرًا ونظر
لها ضاحكًا
(بسببك اتهزيت من بنت معرفهاش, بس يا ريت كلنا بنسامح
زيك) ربط عليها ثانية وأمرها بالجلوس ساكنة ((set أدار المسجل
على أغنيته المفضلة التي تشعره بالأمل والحماس killing me
softly عرج على غرفة أخته وجدها مظلمة ومغلقة كالعادة
أراد أن يتحدث مع أحد بحث عن والده وجده ممسكًا بكتاب
يقرأه فعرف أنه لا مجال للكلام حتى ولو باح بكل ما فيه فذهن
والده قطعًا مع الكتاب, وكأنه هروب من الواقع, فبحث عن أمه
وجدها ممسكة بهاتف المنزل الذي لا تتركه إلا عند الخلود للنوم
فتح الدولاب وتأهب للنزول، أخذ خوزته وودع توسكينا وأغلق
باب المنزل بقوة بعد إخبار أمه التي سألته لمجرد السؤال إلى أين
أنت ذاهب ولم تسمع حتى رده أكملت حديثها الهاتفي الذي
قطعًا سيكون الشكوى المائة بعد المليون من جفاء أبيه

اجتاز شوارع الحي بسرعة فائقة، وكأن السرعة تعطيك إحساسًا بالتحرر من قيود كثيرة، خلع الخوذة أثناء سيره ليشعر بقوة الهواء التي تصفع وجهه وتجعل العين تزرف الدموع في حاله من النشوى
الذمالك مبتغاه تعود أن يبدأ جولته بهذا الحي من البداية عند كوبري قصر النيل إلى المنتصف شارع المنتزة الذي يتواجد به ديسكو الريجينا الشهير وعشاق الليل إلى مرحلة التشويق في الجولة شارع الجبلاية عند حديقة الأسماك كان يقطع هذا الشارع بسرعة قسوى يعجبه منحنايات الشارع الضيقة أحيانًا والتي تتسع فجأة وكأنك في مغامرة تصل فيها إلى الذروة أسفل الكوبري عند فندق أم كلثوم يزيد من سرعته هنا أكثر بل يساعدك المنحضر على اجتيازه سريعًا وفجأة يرفعك عاليًا وكأنك تطير في السماء ثم يهبط بك مرة أخرى إلى الشارع, وكأنك في مضمار سباق بالفعل, يشعر دعبس بعدها بسعادة شديدة، كلما ارتفع أكثر في كل مرة وعند النادي الأهلي ونهاية جولته يبدأ السير متمهلًا ليستمتع بصوت موتور الماكينة، فكر في لحظة الهدوء تلك أن يستفسر عن تلك الفتاة التي نهرته منذ أيام ولم تعره اهتمامًا، فكر أنها مختلفة بالفعل طريقة كلامها وملابسها تختلف عن كل من هم حوله من فتايات فهم من الصعب التفرقة بينهم من شدة التطابق في كل شيء, وبالفعل جنح نحو حي جاردن سيتي

بحثًا عن العمارة التي تسكنها الفتاة، ولكنه نسى اسمها القطان أو القبطان فوجد أنه لا بأس من التجول حتى العثور على تلك الفتاة

المتعارف عليه في هذا الحي العريق أن يطلق أسماء مالكي البنايات والقصور والفيلل القديمة تخليدًا لذكرهم فهنا قصر سراج الدين باشا وهناك عمارة فلوريدا ورمسيس وفينوس ولكن عين دعبس كانت تبحث عن اسم محدد وهو عمارة القطان يتمهل عند كل عمارة ليتفحص اسمها ثم يمضي في سيره حتى وصل أخيرًا

أوقف دراجته البخارية أمام العمارة مباشرة وبدأ في مهمة الاستطلاع في تردد, دخل من بوابة حديدية صغيرة تلتف حول العمارة برمتها تفدي إلى مدخل العمارة الرئيس, دخل دعبس من الباب الرئيس في حذر وتفحص على الجانبين أسماء السكان عن طريق صناديق البوسطة القديمة بنية اللون

لم يجد أحد يمنعه ولكنه أحس أنه مغامر يبحث عن شيء أو من الممكن أن يعترضه أحد من السكان ويصرخ ويتهمه بالسرقة، وعندما وصل إلى المصعد كان الخوف تملكه تمامًا فتلفت ورجع إلى الخلف وانتهت فكرة البحث عن الفتاة في تلك اللحظة، ولكنه عند خروجه لمح شيئًا يتبعه وقبل أن يتأكد من ماهية من خلفه بدأ في الهرولة السريعة إلى الخارج ولكن نباح الكلب الشديد جعله يقف لدقيقة ليتوقف الكلب عن مطاردته, وهنا انفرج

شباك عتيق من العمارة حاملًا صوت فتاة في غاية العذوبة والرقة.
كستل كستل مالك

خرجت الفتاة من الشرفة، ولمحت دعبس يقف أمام الكلب أخذت في تفحص وجهه بدقة صامتة وهو الآخر عجز عن التحرك أو الكلام أو فعل أي شيء وكان العالم انقطع فيه حبل الزمن في دقائق معدودة من الغياب الوقتي كذلك يشعر مرتجفو القلوب ارتجف قلبه ليس خوفًا ولكن بلا أي أسباب فليس لهذه اللحظات من تخبط القلب وسرعة ضرباته وتوقف العقل لحظات من مسمى إعجاب أو حب من النظرة الأولى فتلك هي مسميات البشر ولكن الواقع لا مسمى لشعور قد ينتاب القلب لحظات أو دقائق معدودة من العمر قد لا تتكرر

قطع هذا الصمت إشارة منها لكلبها بالهدوء والتزام الصمت حتى تنزل تستطلع ما الأمر

زادت ضربات قلبه حين سمع واقع خطوات نزولها السريع على سلم العمارة، وأصبحت في وجهه مباشرة بعيونها السوداء الواسعة وشعرها المنمق المنسدل على كتفها ابتسمت في وجهه وصافحته بحرارة كأنها تعرفه من قبل

إزيك عامل إيه أومال فين توسكينا

صمت دعبس وظل ناظرًا لها مبتسمًا

أعادت عليه السؤال توسكيينا الكلب الشرس

انتبه دعبس من غيابه في وجهها الجميل وأردف
 ااه توسكينا أنا آسف وبدأ في شرح الموقف كله من البداية وأنه لم يقصد معاقبتها بتلك القسوة ولكنه هذا حاله عندما ينتابه الخوف والعصبية في آن واحد
لمحت في عين دعبس صدقًا غريبًا لشاب يحكي انفعالاته بصراحة دون تبرير أو تحسين لصورته أخذت في سؤاله عن أشياء تتعلق بتربية الكلاب وعمر توسكيينا ولما اختار هذا النوع من تلك الكلاب الشرسة
أجاب دعبس عن كل تساؤلاتها وكأنه هو أيضًا يعرفها منذ زمن علاوة على أنه لا يهاب الحديث إلى الفتايات إطلاقًا، فهو يمتاز بثقة في النفس وقلب جريء وهذا من أهم العوامل التي جعلته مقدمًا في التعرف على الفتايات دون تردد كباقي أقرانه في نفس العمر
بدأ الحديث يأخذ منحنى آخر فجلست الفتاة على أرض الحديقة غير مبالية بأي شيء كالجيران أو الوقت وطلبت منه الجلوس فلم يتردد وجلس دعبس واتخذ وضع القفرصاء وبدأ الكلب في اللعب مرة أخرى بسلام
سألها دعبس عن اسمها وسنها أخبرته أنها رنا تدرس الهندسة في الجامعة الأمريكية في السنة الأولى عرف منها أيضًا أنها تسكن هنا فقط شهر في السنة عند عودة خالها من السفر فهو مغترب

منذ أكثر من ثلاثين عامًا في ألمانيا ويعود ليلم شمل العائلة وكل إخواته ويفتح منزل الآباء ويعطي له رواحًا، فالمنزل كما هو منذ أن رحلت جدتها على نفس الحال لم يتغير منه شيء وأنها تريد أن تبقى هنا طول العمر ولكنها تسكن حي مصر الجديدة في الأصل مع عائلتها الصغيرة فهي وحيدة أمها وأبيها وتعتبر كستل كلبها الصغير عضوًا مهمًا في عائلتها

بادلته السؤال تلعثم في الرد وأخبرها أنه في السنة النهائية من الثانوي العام وينتظر النتيجة ليلتحق بالجامعة وأنه في الواقع لا يميل إلى تخصص معين أو كلية بعينها وقام من مجلسه كأنه يترافع عن جيله وأخبرها أن منطق التعليم غريب فهل مجموعة من الأرقام أحصل عليها هي التي تحدد مستقبلي طيلة حياتي

أردف أنه يريد أن يصبح شاعرًا, فهل هناك كلية للشعر بالطبع لا فطنت رنا أن دعبس يملك حجة قوية فيما يقول وأن كل آرائه تجنح إلى المنطق بقوة، ولكن ينكرها الجميع, وبرقة فتاة تحرك قلبها

طلبت منه أن تسمع من أشعاره شيئًا

احمر وجهه خجلًا وطلب منها أن يستبدأ الشعر بمقطع من أغنية استهوته عندما رآها فضحكت

عيناكِ ليلًا صيفية وران وقصائد وردية

إنت بتحب ماجدة الرومي

أجاب أنا بحب كل حاجة ليها أنا حبيت اللغة العربية من صوتها
هي تشبهلك كتير جايز ولا أنا عشان بحبها فحبتك
أحس أنه تجرأ قليلًا فحكى لها عن كلمات قرأها في كتاب مغمور
اشتراه من معرض الكتاب بثمن بخس يسمى باقات منسية من
زهور للحب, يقول الكاتب إنك عندما تحب أحدًا في الخيال فنان
مثلًا فإنك تتمنى لقاءً شبيهًا له في الواقع, أو يدفعك قلبك بتشبيه
ما تنجذب إليه في الحقيقة للصورة التي في الخيال فيختلط الأمر
على القلب في التمييز, نظر لها وجدها في حالة انسجام تام وكأنه
أول حديثها البكر للرجال كل ما يلقي على أذنها الآن جميلًا
ومشوقًا وأردفت في حالة من السكر من الكلمات النافذة إلى
القلب.
على فكرة أنت إنسان محير جدًا, إزاي كنت بتضرب الكلب كدا
وبتحب الشعر يعني إيه عنف ورومانسية
كمان أنا لاحظت إن عنيك دمعت بعد ضرب توسكينا (زي
الأطفال) زي مهي مدمعة دلوقتي كدا بالظبط
حاول أن يجيب لكنها استأذنته في الانصراف
سألها (هشوفك تاني)
لفت يدها يمينًا ويسارًا وقالت له بالإنجليزية احتمال مي بي

* * *

أكسفورد ستريت

تنهد د/ سامي علم الدين وهو يسير في أكثر شوارع أروبا ازدحامًا ويقع في نهاية المنطقة الغربية من العاصمة لندن, يشبه كثيرًا شوارع وسط البلد داخل القاهرة, نفس الطراز المعماري الراقي ولكن الاختلاف في لافتات المحال، فكلها موحدة بنفس الشكل, والأسفلت لامع كأنه صب في المساء، بينما الشحاذون هنا يحتفظوا بقدر كبير من الكبرياء، فهم لا يستعطفون أحدًا ولا يهرولون خلف الغرباء

تبًا لك أنا كمصري أصيل لن أحسن عليك سوى أن تلطخ قميصي بيدك وتدعولي بالذهاب إلى الحج في السنة القادمة هكذا أضمر في نفسه عندما نظر إلى الشحاذ الأنيق الذي يرتدي زي العسكري الإنجليزي الشهير بالقبعة الفرو السوداء كبيرة الحجم والمعطف الأحمر ذو الأزرار الذهبية والبنطال الأبيض ذو الحذ الذهبي والحذاء الأسود اللامع ويتحرك ذهابًا وإيابًا بخفة في عرض شيق نظير بعض الجنيهات من المارة أو السائحين.

في أول زيارة له إلى المملكة المتحدة عام ١٩٧٩ عند حصوله على شهادة الثانوية العامة بتفوق التقط صورًا فوتغرافية كثيرة لنفس الأماكن التي تعد من معالم هذا الشارع الشهيرة, فهنا يقع أشهر المحال التجارية (دبنهامرز) ولكن الأمر اختلف كثيرًا الآن, تذكر شكله في تلك الفترة حيث شعره المجعد الكثيف وبنطاله الواسع

الأخضر مع القميص الأصفر ذو الأياقة العريضة ويحمل كاميرا يتدلى جربها الجلد البني حول عنقه, انتبه من غفوة الذكريات على ضوء قوي لشعاع من الليزر يخترق عينيه, فتابع الشعاع بانبهار حتى وجده يكتب على وجهه البنايات وفي السماء وعلى أسفلت الطريق رقم ٢٠٠٠, في نوع من الاحتفالات غير المسبوقة بالألفية الجدية أو الملالنيم, اندهش أيضًا من الدعاية الخاصة بمحل إسكوتش للخمور فقد استعان بأربع فتايات لا يرتدون ثيابًا إلا من ستر العورة يصطفوا أمام واجهة المحل يحملون لافتات تهنئة بالألفية وعروض خصم مهولة على أفخر أنواع الخمور, مر من جانبهم يستطلع الأمر فغمزت له إحداهن وأعطته قطعة شيكولاتة على شكل رقم ٢٠٠٠ وقبلته وعادت لممارسة عملها في بهجة وبساطة

الغريب في الأمر هو تفاني الكل في العمل من الشحاذين للعرايا في الشوارع, حتى وهي تقدم عروض للدعاية بدون ملابس تأخذ الموضوع على محمل الجد وكأنها مهنة لا تقل احترامًا عن مهنة الطب, تخطى الطريق إلى الجهة المقابلة، يختبر ذاكرته هل ما زال هناك كافتريا (زينة) لصاحبها الجزائري أحمد بوعبيد الذي يبيع الوجبات الحلال

وجدها ما زالت قائمة بالفعل ولكن تغير اسمها إلى جول, استطلع قائمة الطعام فوجد عرض الألفية الجديد فاختاره دون تفكير

لاحتوائه على السلامي المدخن بصوص الباربكيو والجبنة الصفراء والزبد وعصير التوت الأبيض

التهم الوجبة بشهية مفرطة وأخرج علبة السجائر الجيتان الزرقاء العريض وجلس يراقب الناس, كان يريد أن يتوه وسط الزحام, يعلم أن داخله صراع نفسي مرير بالعودة إلى أرض الوطن والاستقرار بين الأهل والعزوة من الأحباب ومشروع الزواج وتكوين أسرة والبعد عن ركوب الأمواج نهائيًا بعد فاجعة غرق العبارة الذي ولد لديه نوعًا من الحاجز النفسي للمضي قدمًا في تللك المهنة الشاقة وبين وضعه الآن وأن عقارب الساعة لا يمكن أن ترجع إلى الخلف وقد حقق نجاحًا، وأصبح كبير أطباء أعالي البحار ويحمل فيزا كارد تحتوي على مبلغ لا بأس به من الدولارت الأمريكية

لكنه لم يحسم أمره وارتضى بتحمل الصراع مؤقتًا والعودة لتمضية الأجازة في الوطن قبيل الألفية بأيام لأنه لا يريد أن يحتفل بها مع الغرباء وهفا خيالية بالحنين إلى الأيام الخوالي في أرض الوطن
 يا حبذا لو التقيت الرفاق بمقهى سعيد زغلول واحتفالنا سويا على انغام رق الحبيب وكوب شاى ساخن بلنعناع وضحكه من القلب هذا هو الاحتفال الحقيقى,

عندما عصف به الحنين واشتدد, وجد نفسه فى مكتب مصر للطيران يقف فى طابور صغير يمتلىء بلوجوهه السمراء التى

تحمل بين جانبتها عبير الوطن , يحجز المقعد رقم ٢٤٥ على رحله رقم ٧٧ القاهرة
وصلت الطائرة الاجواء المصريه فى ١٩٩٩/١٢/٢٨
وقف د سامى ينهى اجراءت الوصول وسمع صوت عبد الحليم فى رائعته فاتت جنبنا يتسرب من راديو فى يد احد افراد امن المطار اغرورقت عينه بدموع الحنين الى الوطن , ما اجمل صوت عبد الحليم فى هذه اللحظه وكأنه بوابه الدخول اللى حضن الاحباب
استقل تاكسى الى طريق منزله فى شارع الفلكى عيناه تمسح البنايات والشوارع, كان الطريق مزدحم ولكن لا باس ففى نهايه الوصول الى المنزل على النحو المادى وخلع ثوب الغربه الاليم على الجانب المعنوى
ترك للسائق ما يزيد عن ضعف ثمن الاجرة وتعجب من هذا الشخص الذى يساله بصرامه
حضرتك رايح فين يا استاذ
فطن ان قطعا حارس جديد للعقار
فساله عم جمعه فين
اخبره بانه توفى منذ اكثر من عاميين وانه هو الحارس الجديد عم بدرى
تاثر دسامى فهذا هو الخبر الاول الذى لا يعلم عنه شيئا, استاذنه فى حمل الحقائب واخبره بهويته وانه من سكان العقار القدمى

واخبره ان يترك فقط الحقائب امام شقه ٣٨ ولا يدق الجرس
عدل د سامى من هندامه ومسح بيديه على راسه ونمق شنبه الكثيف ودق الجرس الذى يحمل نغمه صوت العصافير كما اعتاد فى الماضى مرتين متتابعتين بوهن ثم مره اخرى بقوه
هرع استاذ علم الدين بقلب اب يتحسس رائحه ابنه وكانه وجد ريحه من قبل المجىء
اطال النظر فى وجه ابيه وكانه يريد الشبع من ملامحمه التى تغيرت كثيرا والقى بنفسهبقوة فى احضانه وانهمرت الدموع من كليهما حتى خرجت امه على صوت حرارة السلام فلما راته ماثلا امامها اغشى عليها ولكنه استطاع ان يحملها بين يديه حتى فاقت وهى تتمتم بكلمات الحمد والشكر لله

* * *

لم يستطع ميدو بعد حصوله على مجموع كبير فى السنه النهائيه من الثانوى العام ان يدرس العلم الذى احبه وهو الفلسفه والمنطق فعل كما فعل الكثر, توجه بمجموعه الكبير الى كليات القمه كما اطلق عليها المجتمع من منظورهم الضحل والسطحي, فعل ما هو السائد والمتعارف عليه, فكيف بمن حصل على أكثر من ٩٦٪ القسم الأدبي أن يلتحق بكليات عادية حتى وإن أحب ويترك كليات القمة التي يتهافت عليها الجميع لم يكن يستوعب

أو استوعب وغض الطرف وسلك طريق القطيع السهل المنطقي جدًا من وجهة نظر الجميع

وجاء رد مكتب التنسيق عن طريق إخطار مسجل بعلم الوصول

مكتب تنسيق القبول بالجماعات والمعاهد

السيد ولي أمر الطالب: أحمد ناجي أحمد محمد

يتشرف مكتب التنسيق بإخطاركم بأنه قد تم ترشيحكم

لكلية/معهد: اقتصاد وعلوم سياسية القاهرة

انهمرت دموع الفرح من الأم وهي تقرأ بطاقة الترشيح للجامعة التي سلمها لها عم محسن ساعي البريد ذو النظارة الطبية العريضة الذي أصر على أخذ (الحلاوة) ولا تقل عن عشرين جنيهًا فهي أول بطاقة ترشيح يوزعها اليوم لكلية من كليات القمة.

شعرت الأم حين ذاك أنها استطاعت بالصبر والتعب أن تحصد ثمرة كفحها مما أثلج صدرها، فهي الأم التي استطاعت بعد مشوار المراهقة الحرج أن تنجو بابنها اليتيم وتضعه في مرتبة عالية دليلًا على الجلد وتحمل ضربات القدر الموجعة بل النجاح المبهر والتفوق الذي تباهى به الجميع الآن.

كل الذي أبهج ميدو هذا اليوم ليس المجموع المشرف ولا كلية القمة بل السعادة الغامرة التي عادت تروي وجه أمه الذي أصابه الجمود والأسى, وفي أول يوم له في الدراسة الجامعية، أصرت على توصيله إلى باب جامعة القاهرة المهيب.

ودعته اليوم وهي لا تحمل لفافة الطعام (السندوتشات) وتذكرت في مشوار عودتها إلى المنزل زوجها الغائب واستشعرت أنه قطعًا الآن سعيد بتفوق ابنه المبهر ولم تنسَ أيضًا الترحم على ليالي انتظار ميدو أسفل منازل الأصدقاء ليلًا ذهابًا وإيابًا من الدروس الخاصة، وكم الأموال التي كانت تقتطعها من مصروف المنزل لكي تفي بكل احتياجاته حتى أنها زهدت في شراء ملبس جديد أو حذاء يعجبها لتتم تلك الرسالة ويخرج ابنها من عنق الزجاجة ظافرًا

لكن الواقع أن ميدو ليس إلا طفلًا صغيرًا في هيئة شاب, قلة تجاربه ووحدته الزائدة والتصاقه بأمه جعلته يرتعد في أول أيامه في المدرج الدراسي الذي بدى كأنه أمام بحر شاسع مطلاطم الأمواج

لا يعرف ماذا يجب عليه فعله الآن في ظل تلك الكوكبة المختلفة من أشكال البشر ولكنه اتكأ أيضًا على تعليمات الأم التي لم تنسَ بغريزة الأمومة أن تفطنه على ما يجب فعله أول يوم دراسي وكأنها جامعة حقبة السبعينيات.

أخذ آخر مكان في المدرج وكأنه يختفي من شيء ما وجلس وحيدًا يشاهد تلك الوجوه المفعمة بروح الحياة الجديدة المبهجة شعر بأنه لم يعتد ممارسة البهجة، فهو شعور أيضًا يحتاج إلى تعود وتمرس.

أخرج من جيبه قلمه الجاف ومدونة (نوتة) واستعد لتدوين أسماء الأساتذة الحضور ومواد الدراسة واحدة تلو الأخرى, حتى داعبته فتاة تجلس بجانبه ضاحكة (طب ما تقوم تسألهم عن المهم في المنهج أحسن)

لم يعرف أيبتسم أم يحتد عليها أهي دعابة أم هو نوع من الاستهزاء به فسكت في خجل وأشاح بنظره إلى الأمام كأنه لا يأبى بكلامها,

بس بس (إنت زعلت ولا إيه) ومدت يدها تصافحه في ثقة (هانيا الجبالي)

خفق قلب ميدو وهو يمد إليها يده بسلام، فهو لم يتعود إلا مصافحة القاعدين من النساء فقط, فصافحها بقوة أدت إلى اهتزاز زينة يدها من الحلي الكثيف

(أحمد ناجي) وممكن تقوللي ميدو

ميدو ضحكت حتى بانت نغزتاها الرائعتان

ماشي يا سي ميدو تعالى نفطر سوا يلا قوم بسرعة

طب مش هتستني المحاضرة الجاية هكذا استنكر ميدو الذهاب

طب خليك إنت هنا استناها برحتك إنت فاكر إن إحنا هناخد فسحة ولا إيه شكلك خام خالص

خرجت هانيا مسرعة يتبعها الطلبة واحد تلو الآخر إلى الردهة التي تفدي على البوابة الرئسة للكلية، وجلست وسط الطلبة

أعلى سور الكلية الحجري يتبادلون التعارف والضحك,
خرج ميدو منفردًا بعد انتهاء مراسم اليوم الأول للدراسة، يتفقد المكان, فساقته قدمه إلى الباب الرئيس للخروج فخرج مسرعًا كطفل هارب من حقنة طبيب مؤلمة.
أعلى كوبري الجامعة تحدث إلى نفسه عن غربته في هذا العالم الجديد الذي تتحدث فتاياته كرجال ويرمقه الرجال بنظراتهم شزرًا
لعل السبب مظهري التقليدي الذي لا يدعو للشعور سوى بأني لست إلا فتى ماهر في المذاكرة (دحيح) ولعلها الانحناءة في ظهري من الخلف نتيجة المكوث ساعات على الكتب أو انتفاخ أصبعى الدال على ملاصقته للقلم كثيرًا
على كل الأحوال سوف أجعلهم ينظرون لي بشكل مختلف ولكن حين نتعمق أكثر في المواد الدراسية, استحوزت على ميدو فكرة أن التميز فقط يكون بالتفوق الدراسي كما غرست فيه أمه هذا التصور
هرع ميدو إلى الاحتماء بالمنزل بعد أول تجربة حقيقية له مع العالم الخارجي دون مصاحبة أمه, التي استعلمت عن حاله في أول يوم، فوجدته متحمسًا إلى حياته الجديدة, أخذ ميدو حمامًا من الماء البارد وبخياله مشاهد من فيلمه الذي يعتبر المرجع له عن شكل الحياة الجامعية (خلي بالك من زوزو)

اندهش على أن الواقع يتنافى مع الفيلم تمامًا, أو لعله لم يحمل سمات بطل الفيلم من الدنجوانات التي تتطلع إليهم النساء, فهو مجرد من مواطن للجمال في نظر الفتايات تحديدًا, انهمر الماء على جسده وأخذت الأفكار أيضًا في الانهمار دون توقف هل يستطيع أن يثبت نفسه في هذا المحراب الجديد أم سوف يركن إلى الخجل الذي يفقده كثيرًا من طعم الحياة.

لم يكن لقاء دعبس برنا هو لقاء عابر لى زوال بالرغم من كونه محض صدفة وموقف انتهى إلى حاله, لم يعلم كل منهما سبب الانشغال بالآخر فحياة دعبس المكتظة بكثير من الأصدقاء وعلى النقيض الجو العائلي المميز الذي يفوح ألفة داخل منزل عائلة رنا لم تعد هي أقصى لحظات الرضا لكل منهما كما كانت، فمنذ لقائهما الثاني في حديقة المنزل، أصبح المشهد أكثر احتياجًا للقاءات أخرى

هناك داخل القلب اضطراب لا يعلم له تفسير، فالتفكير في رنا أصبح فوق الخيال حتى عند سماع أغانيه العادية أصبح يتذكر وجهها الجميل وكأن هناك شيء ما يغير طعم الوجود كله, هي أيضًا وسط الجموع تسترجع حديثها معه دائمًا وتتذكر حركات جسده وهو يتكلم وضحكته العالية المفعمة بعنفوان الشباب فتبتسم دون كلام وتصدر منها تنهيدة تتلاشى مع أنفاسها

قام دعبس بنقل مقر تجمع الأصدقاء من شارع أحمد راتب أمام

لابوار إلى مقربة من منزلها شارع الفسقية عند محل بيع نباتات الزينة مع عدم منطقية تجمع الشباب بجانب المحل سوى استطاعته أن يلمحها في الصعود أو النزول أو حتى يرى طيفها عبر أضواء المنزل البرتقالية الدافئة التي تشع من نجفة كريستال عتيقة العمر جميلة المنظر وكأنها تحكي سنين عمر ذهبت وأجيال تتعاقب

تعودت مريم على صوت أزيز دراجته البخارية ونفيره العالي الذي أطلقه في المرة الأولى مما جعل هدوء المكان يتحول إلى صخب وبدأ الجيران في استطلاع الأمر وهمت رنا بالنظر من البلكون فوجدته يقف على مقربة من منزلها وتلاقت عينهما في لمحة سريعة مع ابتسامة صامتة

تعللت هي الأخرى بالنزول إلى الشارع عدة مرات لشراء أشياء لا تحتاجها مع تصنعها عدم الاكتراث له تمامًا وبداخلها قلب يخفق بشدة عند كل مرة تستعد فيها للنزول

أيام توالت ونفير دعبس يعلن عن وجوده اليومي وإصرار عاشق أن يحظى بمن فتنه ولكن لم يتوقع دعبس قط أن يلقى القبض عليه هو ومجموعة من أصدقائه عن طريق بلاغ قدمه صاحب محل النباتات يتهم دعبس ورفاقه بإزعاج السكان

مشهد سيارة الشرطة وهي تحاصر الشباب كان مفزعًا لرنا وكل أهلها المراقبين لصيحات الشباب المستنكرة التي انتهت

باصطحابهم جميعًا إلى قسم قصر النيل وتحرير محضر إزعاج تم التنازل عنه فيما بعد من قبل صاحب المحل عندما تدخل والد صديق دعبس يحمل رتبة عميد لتهدئة الأمر

توقعت رنا عدم عودة دعبس لشارعها مطلقًا وأصبحت لا تسمع أزيز ماكينته وضحك أصدقاؤه ليلًا فاستشعرت الوحدة, لكن في غروب صيفي بعد تلك المفارقة السيئة وجدته يتريض بصحبة كلبته توسكينا وحيدًا في همة ولا ينظر إلى البلكون مطلقًا

همت رنا بإحضار كستل وأغلقت الباب مسرعة وعند تقاطع شارع الفسقية بدار الشفاء التقيا وجهًا لوجه ارتجفت رنا ونظرت إلى الخلف هل يلاحظها أحد فلم تجد بينما تقدم نحوها دعبس مصافحًا بابتسامة تحمل عتابًا

ألقت يدها في حضن يديه وطال السلام الذي يصاحبه نظرات شوق فاضت من أعينهما وبصوت هادئ مازحها دعبس كنت هتحبس بسببك

ضحكت رنا وأخبرته ممازحة أن السبب ليس هي ولكن دراجته البخارية ونفيرها الصاخب وأونكل عادل صاحب محل الزينة

أخذت توسكينا في مداعبة كلب رنا كستل الصغير الذي يمتاز بالعصبية الشديدة ولكنه انسجم معها تمامًا على غير العادة وكان اليوم هو سلام للجميع

أن تتقاسم الحياة مع من جمعه القدر مصادفة في طريقك هو

غاية يسعى الكثير في تحقيقها وقد يفني العمر بحثًا دون بلوغ هذا الحلم الروائي الجميل وإن كان دعبس ورنا هما بالفعل حالة جمعتهما الصدفة،. فأراد كل منهما التمسك بهدايا القدر كانت تحمل نزق الشباب مما جعل بداية قوية في ثرائها

صاحبت رنا دعبس في كل مكان تطأ فيه قدمه تناصفا الشوارع والأغاني وكوب عصير القصب انسابت دموعها خلفه واحتضنها بشدة عند ركوبها معه دراجته البخارية وسابقته في ساعات الغروب عن تمشية الكلاب

تعجبت من كم البشر الذي يعرفهم من جميع الطبقات وتعرفت على معظم أصدقائه ولاحظت تأثير دعبس الشديد في الجميع فهو يحمل كرزيما غريبة من ابن البلد الأرستقراطي

اصطحبها دعبس في يوم ثلثاء تصادف مولد السيدة زينب إلى الليلة الكبيرة كما يطلق عليها أخبرها أن ترتدي ملابس فضفاضة ويا حبذا من ارتداء قبعة (كاب) نظرًا للتزاحم الشديد في المولد دخل بها عالمًا لم تعرف عنه شيئًا أمسكها من يدها بقوة وبدأت الرحلة من مسرح الأمراء والشيكو العجيب وهو عبارة عن فقرة مسرحية يقوم فيها الدمية شيكو بإلقاء النكات على الحاضرين وفقرات من الساحر ميشو والبقرة ذات الخمس أرجل وعروس البحر الأميرة بنورة وهي عبارة عن رأس فتاة يظهر من هو داخل خشبة المسرح ومجسم من الفلين على هيئة جسد ثعبان يظهر

خلف عنقها مباشرة, يتبع ظهورها مباشرة صيحات التكبير من مقدم العرض وكأنها معجزة كونية تظهر للمرة الأولى داخل أروقة المسرح خصيصًا للمشاهدين المولد وزواره

ضحكت كما لم تضحك من قبل, كان قلبه يطير فرحًا عندما يستطيع أن يجلب لها السعادة تحدثت معه عن كيفية تصديق الحضور لهذا العبث من فقرات المسرح الساذكة

اشترى لها حَب العزيز والدوم التي أخبرته أنها لم تتذوق هذا الطعام من قبل وقفت بجانبه في حلقة النيشان التي استطاعت أن تأخذ صورة المطرب محمد فؤاد هدية

وقفا أمام حلقة الذكر الكبيرة، عندما أنشد الشيخ أحمد التوني مدائحه الصوفية التي خلبت عقول الحاضرين والدراويش فتمايلت معهم وجذبت دعبس لمشاركتها في حالة من النشوى الجديدة والغريبة

وقبيل نهاية اليوم حاول أحد الأفراد في الحشود القادمة في طابور معاكس أن يحتك بها فلم تجد من دعبس سوى أن أمسك برأس المتحرش وخبطها في عمود لافتة تهنئة بالمولد من نائب مجلس الشعب لأهالي السيدة زينب

استغربت من شجاعته وقلبه الجريء الذي لا يخاف الجموع احتضنها بقوة ولأول مرة بعد معركته القصيرة وعلى أنغام المديح العالية عندما اختلط الناي بالربابة وترديد الدراويش الله الله

في جو من التجللي والفرح قال لها أحبك في زحام مريدي المولد وضجيجهم بكت في سعادة واحكمت يدها على رقبته واعترفت له بحبها من أول يوم عينها وقعت عليه وهي لا تعلم إذا كانت عاشقة لقسوته أم حنانه.

أردفت أنها لم تقابل في حياتها إنسانًا يحمل كل هذه الرجولة متجمعة أخبرته أنها تعاملت مع كثير من الذكور في حياتها ولكنها دائمًا كانت تشعر بأنها أقوى منهم وأغلبهم كالدمى في الأشكال والانفعالات وبالرغم من صغر سنه فإنه يحمل الكثير من الاختلاف الذي تعشقه

أخذها من يدها تخليدًا لتلك الذكرى اشترى لها النوس: وهو دمية تشبه الأرجوز تُباع لأطفال الفقراء في الموالد,على الرغم من كونها هدية فقيرة وبسيطة، ولكنها في صبغة أكثر الأيام سعادة وأمجدها في تاريخهما الإنساني وهو اعتراف العاشقين بالحب الكامن داخل الصدور

توجها إلى منزل العائلة في الحي الهادئ وقبل أن تجتاز الحديقة غابا في قبلة متوهجة لها معنى ومن ورائها مشاعر تنبعث من القلوب جعلتها تشعر بأنها عشقت رجلًا اختارته بقلبها فقط والعمر بدأ من الآن

أخفت رنا عن الجميع ارتباطها بدعبس على الرغم من ثقافة الأسرة التي من الممكن أن تتفهم مرور ابنتهم بقصة حب في

بدايتها ولكنها أرادت أن تؤجل الأمر قليلًا حتى يكون الوقت مواتيًا حتى لا يحمل أحد الأبوين انطباعًا أنه مجرد حب مراهقة إلى زوال بالإضافة إلى ثقة الأهل الكاملة فيها فحتى ولو كانت الأسرة متفهمة للعلاقة فهي تجيز إلى ارتباط للذكر فقط، أما الأنثى فالوضع يأخذ نوعًا من النزعة القبلية والعادات والتقاليد
اهتم دعبس بدراسته وتغير حاله، فأصبح يسابق الزمن كي يتخرج من المعهد الذي استطاع الالتحاق به بعد إخفاقه الشديد وحصوله على مجموع ضعيف في الثانوية العامة، ذهب به لأحد المعاهد العليا في وقت لم تظهر فيه الكليات الخاصة أو كان يعتبر الالتحاق بالكليات الخاصة هو نوع من الفشل في التعليم
استمر الارتباط الجميل بينهما لا ينغصه أي واقع ويستمد من الحلم فقط كيانه بل يضيف له الكثير استطاعت رنا أن تشبع الخلل النفسي الذي يعانيه دعبس نتيجة وحدته الشديدة داخل المنزل
شكى لها نظام المنزل المصتنع الذي يفتقد إلى الروح وحاولت معه جاهدة أن تنشئ علاقة صداقة بينها وبين أخته التي أصبحت بالفعل تخرج معهما بعض الوقت وزاد ارتباطها بأخيها بعد ظهور رنا في حياته مما جعله يعتبرها بوصلة حياته التي تسبب له كثيرًا من الاتزان النفسي
ظهر الفنان بداخله، فكان يكتب لها أشعارًا ويمليها عليها في الليل

لتشاركه الرأي في حذف شطر أو استبدال كلمة ورفاقها في حفلات الجامعة الكثيرة وسقف لها ودمعت عيناه حين غنت على مسرح الجامعة لاموني إللي غاروا مني, وفي شوارع مصر الجديدة، لم يشعر بغربة وهو الغريب عن الحي، فحفظ جميع الكافيهات والمطاعم بل المكتبات أيضًا لشراء أدوات رنا الهندسية التي لا تنتهي حتى بيوت أصحابها وقف على معظم أبوابها منتظرًا

* * *

مقهى سعد زغلول في بداية الألفية، تضخم بشكل صارخ, تغير المقهى كثيرًا عما كان عليه من قبل, فقد احتل جزءًا كبيرًا من الرصيف مع إضاءة كثيفة وكأنك بداخل فرح شعبي صاخب.
في الماضي، كان المعلم يقوم بفرش طاولة صغيرة أو اثنين بالأكثر أمام المقهى للجالسين القلائل من الشباب حول عدد كبير من العجائز المنهمكين في لعب الطاولة والدمينو بكل جوارحهم، وكانت وجوه العجائز لا تتغير في الغالب إلا بفقد أحدهم
الآن ما هذا العدد الكبير من الشباب اللذين يرتادوا المقهى وكأن حياتهم تبدأ من هنا كحياة العجائز وأصحاب المعشات, نادى على صبي المقهى وأخبره بأنه يتوقع زيارة لا يقل عن خمسة أفراد ويريد طاولة بعيدة نسبيًا عن الإضاءة العالية وصوت التلفاز

الذي يصدع بإزعاج أحد قنوات الأغاني الجديدة
ففي الماضي، كان المعلم زغلول صاحب المقهى يكتفي بالراديو على إذاعة أم كلثوم طوال اليوم ولا يحضر أبدًا التلفاز إلا في الضرورة القسوى كمباريات نهائي الدوري أو الكأس
جلس د سامي ينظر إلى وجوه الشباب في حب وأسى وتذكر أنه في بلدان كثيرة مما زارها يتعذر وجود هذا الكم الهائل من الشباب بل بالعكس هناك بعد الدول الآن تستجلب شبابًا من بلدان مختلفة وتجنسهم للحفاظ على المورد البشري
كان اليوم شديد الضباب مما جعل رؤية نهاية الشارع تكاد تكون منعدمة، فتعجب من الضباب المصري الذي قلما يزور الوطن فلعل المناخ قد تغير الأعوام الماضية أثناء غيابه
طلب شيشة تفاح وشاي أخضر بالنعناع وجلس يضع ساقًا فوق أخرى ينتظر الحضور من الأصدقاء في لهفة وشوق للتحدث بالعامية المصرية الساخرة أحيانًا ويمني نفسه بمجموعة من النكات الساخنة التي سوف تلقي على مسامعه من الأصدقاء والتي قطعًا سوف تدعوه للضحك الحقيقي الذي تصنعه كثيرًا على نكات الأجانب السمجة ثقيلة الظل
لمح رجلًا بدينًا يأتي من بعيد في اتجاهه مباشرة يتبعه آخر نحيف نسبيًا فتأكد من أنهما رفقاء الماضي أحمد فكري وأشرف عواد المتلازمان منذ أيام الجامعة, وقف لهما شوقًا قبل أن يقتربا

وصافحهما بحرارة شديدة حتى أنه كان يقبل أكتافهما وتدمع عيناه حين يأتي واحد تلو الآخر وصل أيضًا خالد فتحي وعزيز نصر الله

بعد السلامات والترحيب كل منهم بالآخر وبعد اعتلاء الوجوه الفرحة باللقاء وطلب كل منهم المشروب المفضل هدأت الجلسة نسبيًا وأخذ كل منهم يعطي نبذة عن حياته الماضية في إيجاز

تعجب د سامي من أن بعضهم لم يرَ الآخر سوى في عزاء أحد الأبوين أو للضرورة وكأن تجمع الأصدقاء الآن أصبح من النادر جدًا نظرًا لبعد سكن والانشغال بأمور الدنيا

لاحظ د سامي صفة عامة في الجميع وهي التذمر من أتفه الأشياء نتيجة لعصبية أغلبهم مع صبي القهوة إذا تأخر في طلب أو تلكع في تغيير الفحم, وأن أغلبهم زاره شعره المشيب بغزارة حتى تحولوا إلى شباب في هيئة كهول

أخذ في الاطمئنان على أخبار كل منهم، فمنهم من فتح عيادة أنف وأذن في مدينة نصر ومنهم من ترك مهنة الطب وتفرغ للتجارة والآخر يعمل في مشفى حكومي والأخير يعمل مدرسًا بكلية الطب

الجميع من الله عليهم بالأولاد في المراحل التعلمية المختلفة ما بين ابتدائي وإعدادي, حديث الذكريات الذي بدأه د سامي جعل الوجوه تتغير والضحك يخرج من القلب والعيون تدمع, أخبرة

صديقه عزيز نصر الله أنه لم يضحك من زمن طويل هكذا أو لم يعد الضحك يصل إلى قلبه واتفق الآخرون معه على ذلك
أخبرهم عن رحلاته في ليالي الشتاء البارد في أعالي البحار وألح عليه صديقه خالد فتحي أن يحكي قصصه مع النساء خاصة وهل اختلى بأحد من قبل في ليلة حمراء أو ما شابه, أخذهم الحديث الطويل إلى أن زادت حالة الضباب في الشارع مع رائحة تشبه حرق الحطب والعيون بدأت في الاحمرار, فسألهم ما هذا الحالة الغريبة في التغير المناخي هنا
فأخبره الجميع أنه موسم حرق قش الأرز مما يجعل تلك الليالي بهذه الحالة، فتعجب من هذا المصطلح الغريب ورفع حاجبيه إلى أعلى متعجبًا (قش الرز)
انتهت الحالة السعيدة من حديث الذكريات وحكاوي طبيب أعالي البحار بحالة من الوجوم والشرود على وجوه الأصدقاء, وكأن الهموم عادت مرة أخرى بعد هروبها في غفلة من الزمن, فسأل دسامي في حميمة صديق (أومال الرجالة مالهم)
سكت البعض وحكى الآخر كان أغلبية الشكوى من الدخول المتدنية وارتفاع الأسعار والزحام في الطرقات التي تأخذ من أعصابهم الكثير علاوة على مصاريف المدارس الآخذة في الارتفاع سنة بعد الأخرى بحجة التعليم الجيد مما يشكل عبءً على الجميع

فسألهم مستنكرًا يعني تنصحوني بإيه
أقعد ولا أمشي وأرجع البحر تاني
فأجاب الجميع في نفس واحد
امشي طبعًا مفيهاش كلام,
سحب د سامي نفسًا عميقًا من شيشته السلوم, وسأل أصدقاءه سؤالًا استنكاريًا
حد يعرف معنى العزوة يا ولاد
أجاب الجميع بنعم, فأردف
إنتوا تعرفوا معناها بس إللي سافر بس هو إللي يحس بيها
كانت الساعة تجاوزت العاشرة مساءً, وبدأ البعض في النظر في عقارب الساعة حول معصم اليد إيذانًا على موعد الرحيل بينما تلقى الآخرون مكالمات هاتفية من عائلاتهم تستدعيهم على عجلة للبدء في احتفال رأس السنة
لم يشعر د/ سامي بالشبع من رفاق العمر اللذين تسربوا واحد تلو الآخر مع موعد بلقاء قريب, عندما يهم كل واحد فيهم بالانصراف، كانت تعلو وجوههم ضحكات عندما يتذكروا أسماء أولادهم المنتظرين عودة الآباء في عجالة ويتعللون بطلباتهم الطفولية
انصرف الجميع وبقى د سامي وحيدًا في تلك الحالة الضبابية مناخيًا ونفسيًا, لم يعرف لماذا كان يعتصر قلبه غصة عندما يحكي

البعض عن أبنائه وأحواله معهم, فهو يتمنى الخير للجميع, لكنه يفتقر إلى دفء أسرة يكون هو عائلها,شعر لأول مرة أنه لا يمتلك الوقت الذي ولى إلى غير رجعة

وعند الثانية عشرة تمامًا في أجواء صاخبة من الشباب الجالسين على المقهى, صفق للنادل وطلب الحساب وانسحب من مشهد الاحتفال بالألفية إلى ركعتين في جوف ليل يناجي فيهم الله سرًا النوفل (هو حالة)

التصق هذا الاسم بميدو تهكمًا على مظهره وسلوكه فهو الفتى الجامعي الذي يعيش بروح طالب الثانوي المجتهد, فهو الوحيد الذي يتجاوب مع الأساتذة ويقوم برفع يده سريعًا عندما يباغت المحاضر الطلبة بسؤال في المنهج الدراسي ولا يشاهد مطلقًا مع الفتايات أو يظهر أي نوع من التفوق في شيء سوى العلم

تميز ميدو برائحته النفاذة التي لم يوفق بالمرة في اختيارها، فهي ليست بسيئه ولكنها تنافي تمامًا رائحة العطور الحديثة هي أقرب إلى الكولونيا برائحة الياسمين وهي بالطبع من اختيار أمه والبنطال القماش الرصاصي الذي عفى عليه الزمان, عندما كان يتبادل أطراف الحديث مع بعض الزملاء، كان يسهب في شرح المعلومات عن أي شيء حتى ولو كان تافهًا، فيبدو مملًا, ارتدى نظارة طبية تقليدية مؤخرًا لضعف نظره مما انعكس على هيئته وأعطاها مسحة عالية من التقليدية.

عدم اكتراث الزملاء لوجوده عمق بداخله الانطواء وعند انتهاء عامه الدراسي الأول شرع الطلبة في عمل نموذج محاكاة لجامعة الدول العربية, وجد صعوبة في الالتحاق بأحد الفرق المشتركة حتى تعاطف معه أحد الأساتذة وأقحمه في أحدهم عُنوة, استعصى على الكثير من المشتركين تذكر اسمه الحقيقي، فهو بالنسبة لهم الشاب نوفل كما نعته أغلبهم في الخفاء وفي نهاية النموذج يقام حفل صغير داخل أحد المدرجات يلتقط فيه المشتركون الصور ويلقي فيه بعض من الحضور كلمة عن أهمية العمل الجماعي والتفاعل بين الطلبة وتوزيع بعض شهادات التقدير.

تقدم قائد فريق ميدو لتلقي الشهادات من وكيل الكلية لتوزيعها على أعضاء فريقه مع وشاح جامعة الدول العربية الأخضر اللون كهدية رمزية لتأريخ الحدث.

صافحه قائد الفريق أخيرًا بعد إهماله الإشارة إلى دوره الفعال في الفريق، حيث قام ميدو بتجميع كل أوراق البحث وتلخيصها؛ ليسهل عرضها وهو الدور الذي عزف عنه كل أعضاء الفريق لصعوبته وقبله ميدو بترحاب لمجرد انتمائه لفريق.

حاول قائد المجموعة أن يجعل منه دعابة فقرة الاحتفال بين الحضور عندما قال بصوت ساخر (نحب نشكر زميلنا نوفل آسف أحمد ناجي) على مجهوده معانا, وتصنع الضحك في أعتى صور قلة الذوق والسخافة

يعلم ميدو أنهم يطلقون عليه هذا الاسم المبتذل فيما بينهم ولكنه تغافل عن المواجهة أو خاف منها ولكن أن يطلق اسمه التهكمي هكذا في الملأ على مرأى ومسمع من الدفعة كلها وأمام الأساتذة الحضور جعله يجن جنونه ويفقد القدرة في السيطرة على نفسه فأمسك قائد المجموعة بقوة من عنقه

(أنا مش نوفل على فكرة أنا اسمي أحمد ناجي فاهم ولا لاء اوعى تقول الاسم دا تاني)

فاهم وأخذ جسده بالارتعاد بشدة وأسنانه بالتخبط نتيجة العصبية الشديدة

ارتبك المشهد وسعى بعض من الحضور إلى تنحية المتشاجرين جانبًا والعودة لفقرات الحفل بصورة طبيعية

بينما اغرورقت عين ميدو بالدموع وهو ممسك برقبة زميله بقوة, دموع الامتهان لكرامته وعدم تفسيره المنطقي لتلك المعاملة الجافة من الجميع ودموع من لا يجيد فنون العراك وتجارب الرجال في تلقين المتبجحين الدروس القاسية, حتى عندما أراد أن يدافع عن نفسه استخدم أسلوب أمه الأنثوي بأسئلة استنكارية من عينه (فاهم ولا لاء) وبصعوبة تم إفلات قائد الفريق من بين يديه

صرخ ميدو في الجموع بصوت متهدج لأول مرة (لما أنا نوفل كلوكم بتجروا عليا ليه آخر كل تيرم تسألوني نذاكر إيه وإزاي)

حد يقوللي, مزق ميدو الوشاح المدون به اسمه وألقاه بعصبية أرضًا وخرج مسرعًا من قاعة الاحتفال إلى الباب الخلفي للمبنى الذي يفدي إلى حديقة صغيرة ذات سور أسمنتي قصير
اعتلى الصور وجلس القرفصاء وبكى صامتًا وقهرًا, فهو في كل جملة يشارك بها الزملاء يعافر خجله حتى ينطقها، فيصدر كل كلامه من نظر البعض سخيفًا أو مملًا وهذا هو صنيع الوحدة الدائمة وما العمل في شكله الذي لا يجاري موضة العصر لكنه من أغلى المحال التي كان يرتدي منها والده واختارتها أمه له بعناية
كل تلك المشاعر جعلته يجود في الدموع وينسى موعده المقدس للانصراف إلى المنزل, حين يمر أحد العشاق من شارع المبنى الخلفي الذي يمتاز بالهدوء يغطي وجهه بكلتا يديه أو يشيح وجهه الجهة المقابلة فعل ذلك مرارًا إلى أن شعر بشخص قادم من الخلف صوبه مباشرة
عرفها من رائحتها التي كان يتنسمها خلسة عند مرورها بجانبه قام من مجلسه وهم بالانصراف فجذبته من يديه سريعًا
إيه يا عم ميدو كنت هتموت الواد
أرادت أن تمازحه حتى تشعره بأنه موقف بسيط ومضى إلى حاله بالفعل كانت هي من القلائل اللائي قمن بتوبيخ قائد الفريق بشدة بل قالت له صراحة (إنت إنسان مش متربي) وعلشان أحمد ناجي ولد مؤدب مكسرش نفوخك (بس أنا اقدر أكسره)

تغير المشهد الجامعي تدريجيًا, فحصوله على تقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف في العام الأول وثناء الأساتذة على تفوقه, جعل الجميع يكنوا له نوعًا ما من الاحترام وبدأت صداقات خفيفة تظهر في الجوار, ولكن هانيا الجبالي كانت من أعظم مكاسبه، فليس من السهل أن يدخل عالمها المتمرد شديد التشويق وهو شاب بكر, قليل الخبرات

أخبرها عن هوايته في التسجيل الإذاعي، فهو يعشق المكريفون ويستطيع أن يعبر عن كل ما بداخله دون خجل, عرضت هانيا عليه تكوين فرقة لمسرح العرائس فهي تجيد هذا الفن وهو يستطيع أن يكون راويًا أو حكاءً أو حتى مخرج للمسرحية, فوافق على الفور

وفي اليوم الأخير لعرض المسرحية، صافحه عميد الكلية وأثنى عليه أمام الجميع قائلًا

ا(صوتك الرخيم يأخذني إلى مواطن الخشوع كلذي يصللي بين الجبال) (الله ينور عليك يا بني)

أضاء نور الفرحة في وجهه فبدى شديد البهاء حتى أن بعض الفتايات اقتربن منه يعدن التفكير في نظراتهن إليه حتى شعرت هانيا بذلك فأمسكته من يده في حركة نسائية مفدها أنه ملكي أو يخصني، ومن الأفضل الابتعاد عنه سريعًا

أخبرته هانيا أنه كان يستحق عن جدارة هذا اللقب (نوفل)

لعدم اهتمامه بنفسه مطلقًا ولكن اليوم ظهر كنجوم السينما وأردفت شعورك بالتقدير الذاتي اليوم جعلك تبدو مختلفًا, واثق الخطوة تمشي ملكًا
شيئًا فشيئا استطاع ميدو أن يفلت من عباءة والدته حتى ولو لم يبتعد كثيرًا, ولكن أخذته دنيا هانيا الجبالي الفتاة بالغة الثراء شديدة التواضع غريبة الأطوار التي تسكن شارع السريا بحي الذمالك خلف نادي الجزيرة
توطدت علاقتهما خارج أسوار الجامعة، فكانت تصطحبه دائمًا إلى مكانها المفضل ونطاق الراحة بالنسبة لها مقهى (كفيولوجي) استغرب ميدو من الجو العام للمقهى في بادئ الأمر وسريعًا أصبح من زبائن المكان وتعلم تدخين الشيشة، وكان يداعب صبي الشيشة دائمًا بأنه يختار نكهة البرتقال التي لا يخترها أحد لأنها تحتوي على فيتامين c
أخبرت هانيا ميدو أنها تفضل تكوين صدقات مع الرجال لأنها تشعر معهم بعدم وجود غيرة أو كيد وأنهم أسهل كثيرًا في التعامل ولا يكترثون بثرثرة النساء الخائبة وأحاديثهم التافهة التي تتعلق كثيرًا بكريمات البشرة والألوان صبغات الشعر فهي تعشق أحاديث الرجال العميقة ونضالهم الكاذب
كان كلامها حقيقيًا يتطابق مع شكلها العام فهي لم تظهر عادة بمساحيق التجميل إطلاقًا ودائمًا أظفرها قصيرة ومنمقة وترتدي

أغلب الوقت الجينز والتيشيرت ولا تحمل حقيبة مجرد حافظة نقود ملتصقة بهاتفها الجوال فقط لا غير والأجمل شعرها البني اللون الغجري الطابع الذي يزيدها فتنة وإغواءً في بساطة وبغير تكلف

لا يعلم ميدو سر مساعدة تلك الفتاة له على تغير فكرته عن نفسه هل هو القدر أم أنه يستحق بالفعل لطوفان يقتحم حياته يقلبها رأسًا على عقب ولكنه للأسف مشروط بعدم الحب كما اتفقت معه في بداية صداقتهما وكأنها تعلم أنه من السهل أن يعشقها الرجال، فهي على قدر وضوحها يتجلى فيها الغموض احتوته كثيرًا, كانت تستريح لفطرته التي تشبه الأطفال وتبوح له بأغلب ما في قلبها ولكن كان هناك دائمًا شيئًا غامضًا في حياتها, فمن الممكن أن تتركه فجأة وتلمم أشياءها في أي وقت وتهرب من المكان بمجرد أن يأتي رمز علامة التعجب على شاشة هتفها, وأحيانًا كثيرة كانت تواعده صباحًا منتفخة الأعين يملأ وجهها السحجات وكأنها كانت في مشاجرة أو باتت طيلة الليل في حجز قسم للشرطة علاوة على غيابها الخاطف ليوم أو اثنين أو حتى أسبوع مغلقة هاتفها

شعر ميدو بتجاوز مشاعره حدود الصداقة ففي حالات اختفائها الكثيرة، ينشغل باله عليها, أيضًا أصبح يبالغ في اهتمامه بنفسه فتحول من الشاب نوفل إلى شخص آخر يهتم بمظهره بشكل

مبالغ فيه واتبع حمية خفيفة أدت إلى فقدانه الترهلات نسبيًا وقام بتغير هيكل النظارة الطبية إلى آخر يتماشى مع الموضة السائدة, فتغيرت هيئته إلى الوسامة، ولكن من أجل شخص واحد فقط

وقع في فخ ظلم الإنسان لنفسه باهتمامه بها من أجل شخص آخر وكأن ذاته لا تعنيه مطلقًا ليحافظ على لياقتها الدائمة وينتظر حافزًا من الخارج كي يحنو عليها وينتبه لها، فسرعان ما يفقد حماسه في غياب الشخص (المحفز) أو بالأحرى يرهن كيانه وسعادته وتألقه من أجل إنسان آخر حتى وإن بدى مريح فهو غير معصوم من غدرات الجبلة البشرية ونواقصها.

* * *

كثر حديث دعبس عن استعداده لزيارة منزل رنا وطلب يدها بشكل رسمي, لكنها أقنعته بأن الوقت لم يحن قط، وعليهم الانتظار كي يتخرج دعبس ويحصل على مؤهله وينتظم في وظيفة مرموقة تكون لهما حافزًا ورصيدًا يضاف إلى مقوماته كزوج وتكون هي الأخرى أنهت السنة النهائية لها وتكون فرصة في معادلة السنة الفارقة بينهم، فاكتفت أن تخبر والدتها فقط بأمر الارتباط, والتي بدت ممتعضة ولكنها تظاهرت بصورة الأم المتفهمة لابنتها كما تعودت

أدركت بحاسة الأمومة إن فتاتها الصغيرة بالفعل تعشقه فخافت عليها من انكسار قلبها في أول تجاربها الحقيقية وتركت الأمر للأيام كي تفصل في تلك الرحلة, فتربيتها الجيدة لرنا طمأنتها علاوة على علمها بأن رنا تحمل من الضمير الحي ما يؤرقها في توافه الأمور، فهو الحكم لها في مشوار الحياة، وهكذا توالت الأيام في انسياب واطمأن العاشقان أن الغد يحمل لهم السعادة لا محاله وفي امسية من الليل هادئ وقف والدها يدخن سيجارته (الكابتن بلاك) بطعم الكريزو يحتسي الشاي بصحبة رنا في شرفة المنزل التي تطل على حديقة الميرلاند وسألها بحنان

هو يا بيبي محدش شاف جمال بنوتي الصغيرة دي

كانت تبتسم في خجل ويضحك كثيرًا عندما تخجل ابنته ويحتضنها ويسألها بلطف

طب قلب النونو بتاعتي مش بيحب غير بابي يعني فتهز رأسها بلطف فيسألها مباغتًا

أومال مين الواد أبو متوسيكل أحمر دا إللي معاكي علطول ويضحك فتندهش من معرفته بال

أمر ويزداد احمرار وجهها خجلًا فيردف

أبوكي مش عبيط أنا سيبك برحتك بس ليا معاكي وقفة بعدين وتركها وخرج مبتسمًا

ترك الكلام يجول بخاطرها فهي لم تتعود إخفاء شيء عن أبيها

ابدا وكانت تنتظر حصول دعبس على مؤهله لتفاتح أهلها في الأمر وتخبرهم أنها تعشقة وتريد أن تكمل حياتها معه وفي هدير الأفكار يدخل عليها والدها مرة أخرى ويسألها

بيحبك الواد دا

فتجاوب بنعم بيحبني أوووي يا بابى

فيبتسم الأب لابنته الصغيرة التي أضحت فتاة يعشقها الرجال ويمسك يدها ويقبلها ويخبرها بأنه سوف يجلس للتعرف عليه في أقرب فرصة، فتقبله وتحتضنه وتدعى له بأن ينعم عليه الله بالعمر الطويل حتى يزوج أحفاده, بينما تتوالى الأيام على نحو هادئ إلى أن يتعرض والد رنا لأكبر علمليات النصب في تاريخ عملة كصاحب شركة استراد وتصدير فمشاركته لتاجر أردني في صفقة استيراد هواتف المحمول التي غزت الأسواق في هذا الحين واكتشافه أنه وقع ضحية لنصاب عالمي قام ببيع تلك الصفقة إلى أكثر من فرد في أنحاء الجمهورية بل الوطن العربي

اعتل مزاجه قليلًا وبدى شاحبًا وأصبح يدخن بشراهة وحرفيًا لا ينام ولكنه أخفى عن زوجته وابنته رنا تلك الأخبار السيئة وتابعت رنا حياتها بشكل عادي، بينما نمى القلق داخلها على حال والدها المتغير في الأسابيع الأخيرة.

هاتفت رنا دعبس قبيل خروجها من المحاضرة الأخيرة وأكدت عليه أن ينتظرها أمام باب مطعم ماكدونالز الساعة الرابعة

للحاق سريعًا بميعاد درس الدنميكا من بدايته ومن ثم حضوره من أول دقيقة لحل المعادلات صعبة الفهم والتركيز التام.

وبالفعل كان لها ذلك انتظرها دعبس وانطلاقًا إلى عمارات العبور حيث مكان الدرس صعدت رنا وأخذ هو بتفحص رصيف محلات الملابس المنتشرة هناك حتى تنتهي رنا من درسها

لم تتخيل قط أن يكون رد فعل أبيها عندما شاهدها مصادفة في إشارة روكسي خلف دعبس تعدل من شعرها الهائش بسبب قوة الهواء تلك الليلة في طريق عودتها إلى المنزل, لمحها والدها الذي جن جنونه وترك سيارته ونزل وصفع دعبس على وجهه مباشرة في سلوك شديد الغرابة لهذا الرجل راقي الطباع وأخذها من يدها بقوة داخل السيارة ووجه لها وابل من السباب واللوم

أول مرة ينفعل بهذا القدر حيث إنه في صعوده درجات السلم انتابته نوبة قلبية أدخلته العناية المركزة داخل مشفى كليوبترا واسترد الله أمانته بعد أسبوعين تحديدًا

أصيبت رنا بانهيار تام فقسوة شعورها بالذنب تجاه والدها وأنها كانت من ضمن أسباب وفاته جعلها عاجزة عن الصمود تجاه تلك المشاعر الكئيبة مع أن هناك حقائق علمتها لأول مرة عن أبيها بعد وفاة تبعد الشبه تمامًا على كونها السبب المباشر

تعلم رنا جيدًا أن والدها ما كان ليغضب هذا الغضب الجم لمجرد مشاهدته لها مع دعبس حتى وإن كان الموقف استفز فيه

العصبية الأبوية لا يجعله يتفاقم إلى هذا الحد المتزايد
لم يستطع دعبس الوقوف بجانب رنا في تلك اللحظات العصيبة بسبب غموض رد فعل والدتها في تلك الليالي حالكة الظلام فموقفه حرج جدًا بعد مشاجرة والد رنا معه ووفاته المفاجئ,
بكى دعبس في غزير الليل وحيدًا بعد اتصاله المتكرر لرنا الذي وجد هاتفها مغلقًا تارة وخارج نطاق الخدمة تارة أخرى وانتفض مع الآذان وهرع إلى الصلاة كي يكشف الله ما به من ضُر, أصابه أنين لا يعلمه سوى قيوم السماوات والأرض الفراق أجهده وشطر قلبه الأخضر إلى نصفين لا يحتمل أن يعيش يومًا بدونها فكيف وهي محجوبة عنه منذ أكثر من شهر, وأجواء الحزن تسيطر على المنزل فلا يستطيع حتى أن يهاتفها في المنزل أو يقف أسفله كالمعتاد أو يلمحها حتى في الشرفة للاعتقاد أن أمها إن فقد زوجها كان بسببه وأنه نظير شؤم على العائلة
قلة حيلة وعجز كيف الوصول إلى أنيس روحه البعيد وإلى متى ينحر القلب الاشتياق تأثرت حالته وشكى لأخته وطلب منها أن تذهب إلى رنا كي تتحسس الأخبار وتعزيها في مصابها الأليم وبالفعل تحركت أخته على الفور إلى مكان منزلها وصعدت فلم يفتح لها أحد سألت البواب أخبرها بأنهم سافروا إلى بلد أجنبية بعد الوفاة بأيام قليلة ولم يخبروا أحدًا بوقت الرجوع
لم تخبر داليا أخاها بالحقيقة, لعله يفقد عقله وأخبرته أنهم

سافروا إلى الأسكندرية لتخفيف وطأة فراق الأب والترويح عن النفس فما كان من دعبس سوى حمل شنطة سفر صغيرة على كتفه وأدار دراجته إلى هناك, قطع الطريق من منزله فجرًا قاصدًا المدينة الساحلية في رعونة شديدة، لم يكترث لإشارة مرور أو تخطي سيارة أمامه وكل ما يسيطر على عقله وقلبه الآن أن يجد حبه وأيام عمره الجميل كل ما يخشاه أن يكون قد عاش في غابة من الأوهام والآن يظهر قبح الحقيقة

أين رنا أين أنتِ يا من تملكين قلبي ولا تزال رائحة عطركِ تفوح في ملابسي كيف استطعتِ أن تبعدي عني طيلة هذا الوقت ونحن نتقاسم الأنفاس معًا شعر أنه في العراء وحيدًا لاسعه الهواء بشدة، رغم اعتدال الجو ضربته الأفكار السوداء فزاد في سرعته الجنونية خشية أن يكون اللقاء قد انتهى وحان موعد الرحيل, فهو لم يتعوده وإن رحل العالم كله لا ترحلي أنتِ فبغيابكِ سوف يصبح العالم موحشًا ومهجورًا

في مدخل الأسكندرية شم رائحة اليود المنبعثة من البحر وتذكر كلماتها الشتاء الماضي، عندما كانت معه برفقة الأصدقاء في رحلة اليوم الواحد التي تعودا عليها شتاءً، عندما احتضنته في هذا المكان وخبرته أنها تريد أن تشم الكثير من يود البحر مختلطًا بدخان سجائره ورائحة عطره، فهو مزيج يشعرها بالحياة

لا يعلم لماذا يسيطر حديث الذكريات على عقله الآن, هل هذا

بالفعل مقدمة لذكرى حبه أم أنها تخاريف قلب منشغل بمن أحب استسلم لكل أفكاره حتى يتيقن من وجودها في منزل العائلة في منطقة رشدي بالأسكندرية وعند محطة الترام ركن دراجته وعرج إلى العمارة التي تسكنها ذات البوابة الزرقاء كان يعلم أن بواب العمارة في غاية الفظاظة والعبوس

ألقى عليه السلام

فرد ببطء ونظر له يتفحص وجهه

سأله دعبس عن عائلة الأستاذ أبو العزم والد رنا إذا كانت في المنزل

فأدار البواب وجهه عن دعبس ولم يرد

عاود دعبس السؤال بعصبية

فرد عليه البواب ينهره إنت مين إنت الأستاذ أبو العزم مات يجي من شهر قبل ما يبيع الشقة

ذهل دعبس عندما أخبره البواب ببيع الشقة وتعجب من تلك الفعلة لأنه يعلم من خلال حديثه مع رنا أن والدها يعشق الأسكندرية وتحديدًا حي رشدي الذي يشبه الزماللك في القاهرة

ترك دعبس الرجل ورحل ولم يلقَ عليه حتى السلام أو يشكره

أشعل سيجارة ووقف بجانب دراجته يفكر في تلك الألغاز التي تظهر فجأة وكيف تتتابع بهذا الشكل السريع رنا اختفت بعد وفاة والدها بأسبوع والشقة تم بيعها ولا أحد يعلم شيئًا عنها في

القاهرة
انطلق دعبس سريعًا في رحلة عودته إلى القاهرة، وعزم على استطلاع الأمر بنفسه والذهاب إلى منزلها حتى لو واجه أمها التي تحمل له بغضًا شديدًا بعد وفاة زوجها
 الآن أنا أبحث عن حبي لا مانع أن أخوض حتى غمام أعتى المعارك لأجده, بهذا حدث نفسه عندما انتهى حبل الظنون عند كمين مرور قبيل بوابة القاهرة قام بسحب رخصة قيادته التي تم التقاطها بواسطة الردار مسجلة تجاوز مفرط في السرعة المسموح بها على الطريق السريع.

* * *

فتح د سامي باب الثلاجة الفليبس الخضراء وتجرع زجاجة مياه كاملة التي تم تعبئتها ليلًا بواسطة والده من ماء الصنبور، فهو عاشق لماء الصنبور الجاري الذي يختلف عن زجاجات المياه المعدنية في مذاقه ويعتقد أيضًا أنه يحتوي على قدر كبير من الأملاح والفيتامينات المفيدة, الأجازة المحددة من قبل شركة الموانئ البحرية إيليت أوشكت على النفاد دون أن يحسم أمره بعد
جلس دكتور سامي في بلكون غرفته بعد أن قام بصنع كوب النسكافيه الصباحي, ونظر إلى فيلا الكيال شاردًا، تفحص المبنى

كعادته وجد كثيرًا من الشقوق حفرت على المبنى مؤخرًا والجزء الأخير من الحديقة ذو شجرة الكافور العالية، تحول إلى مقلب قمامة يقوم الأسطى شوقي صاحب ورشة السيارات الأمريكاني بإلقاء مخلفات المحل وفضلات الطعام بداخله ومن الملفت للنظر أن يطوف نوع من النحل حول القمامة, ذلك المشهد الغرييب على سلوك النحل وتنهد في أسى حتى سلوك النحل تغير في الألفية الجديدة

المفزع أن النحل يطن حول قمامة شوقي المكانيكي فماذا حدث له هل أصابه خلل جيني أم تأثر برائحة الحشيش المنبعث أسفل الحديقة ليلًا بجوار سورها المظلم الذي يتخذ منه المدمنون مأوى لهم بعيدًا عن أعين الناس والشرطة

كل شيء تغير منذ قدومي إلى الوطن ابتسم وهو يقلب في موجات الراديو حيث إنه يداوم على سماع إذاعة مونت كارلو الإخبارية يوميًا, ارتشف النسكافيه ببطء وأحضر الغليون القيم الذي اعتاده في البحر بنكهة التين وأشعله فتحول التبغ من اللون البني الداكن إلى البرتقالي فالأحمر تدريجيًا وأصدر الغليون صوت صفير يطرب له د سامي ويهز له رأسه بحماس.

كان يريد أن يحسم أمر الرجوع إلى البحر ثانية أم تعديل المسار والاستقرار في أرض الوطن كان يشعر بداخله أن أعوام داخل السفن على قدر من أنها مثيرة جدًا إلا أنها لا تجعل الإنسان

يحقق أي شيء من السعادة لمن حوله فهو دائمًا زائر غريب على أهله لطابع الرحلات الشاق الذي يستدعي السفر أحيانًا في الرحلة الواحدة عامًا فأكثر

إنها مهنة تتيح التعرف على العالم وكل يوم في ميناء ولكن إلى متى التنقل بين الشواطئ والتعرض إلى مخاطر البحر التي لا تنتهي فالاسم طبيب ولاكن إذا أمرني القبطان بالمكوث في المطعم طوال الرحلة للتأكد من صلاحية الطعام فسوف أفعل مرغمًا ورأيت ذلك رأي العين من قبل فالقبطان هو الآمر الناهي على متن المركب، واتحول حينها من طبيب إلى ربة منزل تتأكد من سلامة الطعام لأطفالها الصغار

قد حسمت أمري من قبل بعد حادثة مراد الكيال التي دفعتني إلى التحرك بل كان هذا هو الحل الوحيد حتى لا أرى نفسي أتدللى مكانه إذا استسلمت إلى حالة انتحار الطموح التي اعترتني ولكن أصبح الأمر الآن شديد الصعوبة.

فالإنسان في أحيان كثيرة، يخوض تجارب يحكم عليها من قبل أن يعيشها وهذا خطأنا الأكبر نحن بني البشر فبعد عشرة أعوام من الترحال جئت محملًا بخلاصة التجربة وأستطع القول بأني حققت ما كنت أحلم به من سفر وترحال وتأمل والآن أزهد فيما حققت كجبلة الإنسان من ملل وضجر واحن إلى نقطة الصفر مرة أخرى والبدء من جديد والاستعداد لحلم آخر.

لا لن أكرر تجربة البحر مرة أخرى، فهو يبتلع العمر فقط ليس أكثر فلم يكن باستطاعتي تكوين أسرة من كثرة أسفاري وكثرة شغفي بكل فتاة قابلتها في ميناء جديد وأغلبهم من الغجر غير المكترثين لفكرة الزواج من الأصل, أو لعلي لا أرغب أنا بالزواج وتحمل المسؤولية التي حولت الرفاق إلى كهول في عز الشباب لا أعلم

خرج د سامي من بلكون غرفته لصنع فنجان من القهوة، فوجد والده يجلس على الأريكة يتفحص الجرائد وأمامه كيس كبير من الأدوية, ألقى عليه تحية الصباح وسأله إذا كان يحب أن يشاركه قهوته فأجاب بالموافقة

تفنن سامي في صنع القهوة لوالده وقام بوضعها على المنضدة أمامه مباشرة بجانب كيس الدواء فلاحظ كبر حجم الكيس ومع ابتسامة والده الذي حاول أن يشتت انتباهه عن كيس الدواء بحديثه عن الرياضة, قام دسامي بإخراج مجموعة أدوية يتفحصها فوجد أغلبها يتعلق بالقلب (موسع للشريان التاجي, ومنظم لضربات القلب, وأخرى للضغط ومهدئ للنوم)

سأل د سامي والده في انزعاج بابا إنت جاللك القلب

خفض دسامي من الجورنال وخلع نظارته الطبية وقال بصوت أبوي دافئ (أمراض الشيخوخة يابني أنا عندي ٧٢ سنة)

شيخوخة إيه يا بابا حضرتك نسيت إني دكتور

احكيلي بقى كدا إلللي حصل
أخبره والده أن تعرض لأزمات قلب متتالية، وأنه يعيش على هذا الدواء منذ ما يقرب الخمس سنوات وآخر طبيب زاره أخبره أنه يتحتم عليه تركيب جهاز طبي لمساعدة القلب على آداء وظيفته ولكنه أهمل النصيحة وترك الأمر للقدر
ثار دسامي وأخبر والده أن عليه تركيب الجهاز بأقصى سرعة، وأنه سوف يقوم بالحجز اليوم وليس غدًا عند أشهر أطباء القلب للوقف على حالته كليًا
فاقت أمه من النوم على صوت ابنها الذي دب الحياة مرة أخرى في أرجاء المنزل وخرجت إلى الصالة وألقت تحية الصباح وجلست تستطلع ما في الأمر
استنكر د سامي عدم إخبار والدته بحالة أبيه الصحية، فما كان منها إلا التعجب
وإحنا كنا هنجبلك الهم وإنت متغرب وكل يوم في بلد
يابني إحنا عجزنا ومحدش معانا حضرتك برة البلد بلسنين وأختك مشغولة مع أولادها وجوزها, أنا كنت بسأل ربنا إنك ترجع علشان تدفننا لما نموت
فال الله ولا فاللك ربنا يديكو الصحة وطولة العمر
هكذا رد د سامي على والدته وأخبرها أنه حسم أمره للاستقرار هنا منذ ساعة تقريبًا أخبرها أيضًا أنه يحمل في جعبته مبلغًا ماليًا

سوف يغطي نفقات علاج والده ويزيد أيضًا وأخذ في عد ما سوف ينجزه وترتيبه

أولًا صحة والده

ثانيًا تغيير السيارة وشراء بعض مستلزمات المنزل من مكيف للهواء وطبق هوائي (دش) ووو

قاطعته والدته يابني ياواش ياواش

ضحك د سامي وقبل يدها وأخبرها أنه إذا عاش ما بقى من حياته لمجرد رؤية وجههما كل صباح فهو لا يريد أكثر من ذلك , وسأل والدته تشربي قهوة.

الهاموش (هم الراحلون في صمت)

أحيانًا يوجد أشخاص يلقوا بظلالهم على حياة الفرد وليس من الضروري أن يكونوا من أبطال يومك المعتاد كزملاء العمل أو أفراد العائلة، ولكن في الغالب لكل واحد منا ظلاله الخاصة قد يكون بائع ذرة مشوي أو أستاذ جامعة
حنينه المباغت إلى الصوت الرخيم الذي يخترق آذانه دوم
ًا ويحمل في طياته رائحة الماضي الجميل وليمون جروبي المثلج وضحكات أمه ودخان سيجاره والده
فصوت أنفاس والده المتعبة من المشي إلى صالون الحاج سيد

الحلاق في شارع عدلي أمام جروبي وإحكام قبضته على ذراع ميدو عند عبوره إشارة ميدان مصطفى كامل لأول وآخر مرة في حياته, هي آخر ذكرى تبقت له من رائحة والده الذي أمضى جزءًا كبيرًا من عمره خارج الوطن يعمل لكي يرتاح عند الكبر وعندما أراد الراحة، كانت الراحة الأبدية

أصبح هذا اليوم لا يُنسى لأنه أجج ما في داخل ميدو من مشاعر خاصة بحاله الهاموش وشبح تجربة السفر البائسة، فمن القائل إن الغربة للحصول على المال هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى السعادة، لماذا اعتقد هذا الجيل أن كل السناريوهات المجربة والمتشابهة كالسفر لجمع المال هي النجاح بل قد تكون هي عين الفشل، وقد يكون في الحياة أشياء أخرى تجلب السعادة بخلاف جمع الأموال.

عقب صلاة الجمعة من كل شهر يترجل ميدو من منزله في شارع الفلكي مرورًا بالجامعة الأمريكية ويمشي الطريق المختصر الذي تعلمه من والده من ميدان الفلكي إلى شارع عدلي سلسلة من الذكريات تلاحقه في الطريق وطيف والده بجانبه.

عند فتح باب الصالون تجد صوت جرس غير مزعج ينبه صاحب المحل بدخول زائر جديد, على الجانب الأيمن مكتب الحاج سيد, وفي الأمام مرآة كبيرة لها إطار خشبي قيم وثلاثة كراسي فوتية كبيرة لجلوس الزبائن, وكرسيين للحلاقة, ومجموعة من أعداد

مجلة أكنوبر والعربي, يتخلل الأثير موسيقى كلاسيكية رشيقة تخرج من راديو قديم وصورة الحاج سيد في شبابه أبيض وأسود التقاطها في الخمسينيات في إستوديو بولي اليوناني شابًا ممشوق القوام يرتدي قميصًا مفتوحًا، يبرز شعر صدره الكثيف وخصلات شعر ناعمة أعلى جبهته وشارب صغير كدنجونات السينما في الخمسينيات من القرن الماضي

ينزل الحاج سيد على درجات السلم من الطابق الثاني للمحل بهدوء مرتديًا أشيك الثياب وأهمها الفولار الذي يرتديه دائمًا متماشيًا مع لون القميص فتشعر بأنك أمام فنان وليس حلاق بالشكل التقليدي من أصحاب الكروش الكبيرة ورائحة الكشري والسماجة الزائدة

يرحب بميدو في ود ويسأله عن حاله وصحة والدته ويدعوه لغسيل شعره قبل بداية الحلاقة لتلطيفه, رائحة صابون الغسيل (الشامبو) لم تتغير من أكثر من عشرين عامًا رائحة التفاح التي تعطي إحساسًا بالراحة والبهجة

وفي صوت رخيم يبدأ عم سيد حديثه

إزيك يا ميدو يابني

يحب ميدو كلمة ابني، لم يسمعها كثيرًا من والده، تزيح هذه الكلمة عن كاهله شعوره بالمسؤولية التي تحملها رغمًا عنه بسبب سفر والده ورحيله السريع تعود به صغيرًا تدخله عالم

الطفولة مرة أخرى

يبتسم ميدو ويستسلم للمقص في وداعه الذي يأخذ في هندمة شعره وأفكاره معًا ويبدأ في طرح أسئلته الفلسفية التي يحب سماع إجابتها من عم سيد مشبعة برحيق من خبرات الماضي وتجارب الحياة

قولي يا عم سيد هو إيه فايدة العمر لما يضيع على لقمة العيش من غير متحس

فطن عم سيد للسؤال وما يحوي ومشى خطوتين إلى الطافية وأطفأ عن السجارة الرماد ونظر لميدو وأجاب إنت أكيد قصدك أبوك يا ميدو يابني صح

دافع الرجل عن والد ميدو وأخبره أن ما فعله كان من أجل التطلع لمستقبل أفضل وعليه أن يحترم ماضي والده وفي النهاية هي أقدار مقدرة وعلينا جميعًا قبولها لتستمر الحياة

حكمة عم سيد وهيئته توحي للرائي بأنه خارج الزمن أو كان جليس للصفوة والمثقفين فبالرغم من كونه مجرد حلاق إلا أن موقع صالون الحلاقة الفريد وطبقة المثقفين الأوائل لوسط المدينة صبغوا الرجل بصبغة النبلاء

بدى ميدو هذا اليوم مضطربًا فهو الحائر في علاقته مع هانيا الجبالي, أحيانًا كثيرة ظن أنها تحبه نتيجة إلحاحها الدائم برؤيته وملاحقته صباحًا ومساءً بل تطور الأمر إلى السهر داخل منزلها

بحجة المذاكرة إلى وقت متأخر من الليل وأحيانًا أخرى تبدو لا تريد الاقتراب منه ويعتريها حالة من النفور, حتى أنها تنهره إذا تجاوز عن غير قصد في كلمة أو عارضها في رأي
نظرة عينه الشاردة إلى المرآة الماثلة أمامه وطوفان الأفكار, جعل عم سيد يسأله
(ميدو يابني, مالك إنت شكلك متغير, في حاجة شاغلة تفكيرك)
نظر له ميدو متعجبًا على قدرته في استشعار الأفكار والمشاعر لديه
فتبسم له ضاحكًا (أنا يبني مربيك ولا مش فاكر لما كنت بحط المخدات علشان أرفعك على الكرسي علشان تعرف تحلق) وترحم على والده
الله يرحم أبوك
حكى له ميدو عن تجربته المحيرة مع تلك الفتاة وسأله عن رأيه أهي تحبه كما يتصور أحيانًا أم هو دمية فقط لتسليتها
ببشاشة أجابه عم سيد ميدو بأنه إنسان ومن حقه أن يخوض التجارب لاكتساب الخبرة, وأنه شعر باختلاف كبير في شخصيته الآن وأثنى على خروجه من عباءءة الالتصاق بوالدته، ولكنه نصحه بأن تكون أمه صوب عينيه حتى لا يهلك,
أما عن هنيا، فكان قوله عجيبًا بعد أن أشعل سيجارته الثانية (اهرب منها)

البنت دي زي ملهمة الشعراء كدا هتفضل تخليك تنزف مشاعر على الفاضي وإنت بالنسبالها ولا حاجة

نظر له ميدو غاضبًا

اسمع يابني إنت استفدت منها غيرت حياتك شوية الحمد لله. كفاية لحد كدا شوف غيرها هما البنات خلصوا خليك خلبوص شوية بطل تبقى شريف بزيادة الحياة مش محتاجة شرف كل الوقت

نفض الحاج سيد المريلة البيضاء فتهاوى الشعر على الأرض وكأنه ينجذب إلى موطنه الأصلي في انسجام

* * *

٠٠٤٩ بهذا الكود تلقى دعبس هاتفه الأول من رنا بعد وفاة والدها عندما سمعت صوته انهارت في البكاء بحرقة وأخذ هو في تهدئتها بصوت يتماسك من ألم فراقها كان يريد أن يعاتبها على تركها له في الشهور الماضية دون اتصال أو خبر وكيف لها أن تترك البلد بأكملها دون أن يعلم عنها أي شيء يطمئنه ولكنه استسلم لصوتها المتعب وسألها عن سبب وجودها في ألمانيا وتركها البلد أخبرته رنا بالأزمة المالية التي تعرض لها والدها قبيل وفاته مباشرة وأنه باع كل الأصول التي يمتلكها واقترض من البنك من أجل حصوله على تلك الصفقة المشؤومة وبوفاته أضحى الحال

مختلفًا تمامًا فلم يعدوا يمتلكون شيئًا في مصر سوى المنزل فقط حتى الشركة وما تبقى من أصول قام البنك بالحجز عليها

فدخلت أمها في حالة انهيار عصبي قام خالها على إثرها بإقناعها بالسفر معه إلى ألمانيا أو المكوث لفترة حتى تهدأ الأمور فما كان منها سوى اصطحابي معها ولم أكن أستطيع أن أعاندها لأنها لا تتحمل الآن أي نوع من العناد تابعت كلامها أيضًا أن أمها تعتقد حتى وإن لم تبح بشكل واضح أنها من ضمن أسباب وفاة والدها فهي عندما تنظر لي أجد في عيونها نوعًا من اللوم والعتاب المكتوم وأكثر من مرة طلبت مني أن أقطع علاقتي بك بشكل نهائي

انفعل دعبس من الجملة الأخيرة وأخبر رنا أنه منذ بداية علاقتهما وهو يشعر بعدم الارتياح لوالدتها حتى وإن بدت غير معترضة على علاقتهما بشكل صريح

قاطعته رنا بعصبية ولأول مرة تنهره (لو سمحت متتكلمش على مامى بالأسلوب دا) على فكرة هي عندها حق في كلام كتير قالتوا عن علاقتنا أبسطهم أنك مش هتقدر تعيشني في نفس المستوى وإن الحب مش كل حاجة

شعر دعبس بنغزات في دمه وكأن أشواك تسري به وهو نوع من الرعب يعتري الإنسان عندما يسمع تلك الكلمات السخيفة من حبيب وكأنه يعيد النظر في علاقة حب قائمة بالفعل ومع أول اختبار يهزي بكلمات تجلب الحسرة

سألها دعبس بنبرة الحبيب الواهن

رنا هو في إيه يا حبيبتي أنا بقاللي كام شهر مبنمش علشانك وإنتي بتقوللي الكلام دا إنتي شكلك ملعوب في دماغك كويس تاني إنت إيه وبنبرة صوت عالية وحزينة حراااام بقى إنت مش

انقطع الاتصال وسمع صافرة في أذنه وكأنها صوت نذير كانت عالية جدًا وشديدة الحدة

بكت رنا بكاءً شديدًا لم يعد قلبها يتحمل المتغيرات المفاجئة التي تحدث لها في الحياة وفي أجواء الدولة الأوروبية شديدة البرودة شعرت بأنها وحيدة تمامًا وأن أمها أصبحت مسؤولة منها وأن وفاة والدها دفعها إلى دور جديد في الحياة، يجب أن تقوم به ولا تراجع كانت تبكي بكاء الفقد فقد الأب والحبيب وشوارع القاهرة والأصدقاء والأنس بالوطن

تحدثت مع خالها عن عودتهم إلى مصر جلست بجانبه حول المدفأة الخشبية وهو يرتدي القبعة الزرقاء والروب الصوف ويشعل البيب ويسعل سعالًا خفيفًا، نظرت في وجهه وجدته قد حفر وكأن فنان قام بنحته وترك يديه تبدع فيه

داعب خالها خدها الرقيق بحنان وبدأ في الحديث عن والدتها المريضة، وأن أجواء العلاج هنا في ألمانيا سوف تؤدي إلى الشفاء السريع بدى وكأنه يخفي شيئًا ما فكلامه غير مقنع تمامًا حتى وإن حاول صياغته بصورة جيدة, ألحت عليه في معرفة الأمر

بوضوح فوجدت دموعه تزرف دون توقف استشعر قلبها الخوف وأخذت تقسم عليه أن يخبرها

تنحنح الخال ومسح دموعه بيده وأطلق المفاجأة الكبرى بأن أمها مصابة بسرطان في الدم لم تكن تعلم عنه شيئًا وبدى واضحًا في الفحوصات الطبية التي قامت بها عند إصابتها بانهيار عصبي عقب الوفاة, وأنه أخفى الموضوع تمامًا عنها، ولكن لا مناص من المكوث في ألمانيا حتى يأذن الله لها بالشفاء لأنها لا تستطيع أن تتحمل تكاليف هذا المرض اللعين لعدم وجود مورد دخل لها في مصر أو حتى تأمين طبي يغطي نفقات علاجها المكلف

صفعات القدر المتلاحقة على وجه رنا جعلتها في حالة من الوجوم, دخلت غرفتها وأغلقت الباب انهارت تمامًا

نظرت في المرآة، شعرت أن الشباب في لحظة تم سرقته وخيل لها أن الشعر الأبيض أخذ في التسلل كالسارق بين خصلاتها جلست رنا تفكر مودعة حياة الطرف

وجدت رنا أن أمها هي الأهم ثم يأتي كل شيء في المرتبة الأدنى فذهبت برفقة أولاد خالها إلى المشفى واستطلعت حقيقة الأمر بنفسها وجدت أن فترة علاج أمها لو نجحت سوف تبقيها حية سنوات معدودة، هكذا قال الطبيب الألماني في صرامة وحزم كأنه إنسان آلي منزوع الروح وتركها في حالة ذهول ورحل يتابع عمله. أخذت نفسًا عميقًا وكأنها تستعد للتحدي أو أنه لا وقت للحزن

أن يسرق الحاضر والمستقبل معًا، فيكفيه ما أخذ
القرار الآن هو أن تنسى مصر إلى الأبد فمصيرها مرتبط بهذا المكان طيلة بقاء الأم على قيد الحياة، خاطبت الجامعة الأمريكية في برلين لبحث إمكانية استكمال دراستها هناك وبالفعل تمت الموافقة مع إمكانية حصولها على شهادة التخرج
احتوت أمها بقدر كبير غمرتها عطفًا وحنانًا وفي بيت خالها الواسع ذي الحديقة الغناء صنعت كوخًا صغيرًا فرشته بجميع صور العائلة في كافة مراحل الحياة واشترت صينية نحاس كبيرة وموقدًا صغيرًا لصنع القهوة (سبرتاية) التي تعشقها الأم ومفارش الخيمية التي تنبض بالروح المصرية الأصيلة وراديو قديم وصنعت مفاجأة لأمها التي بكت عندما رأت فعل ابنتها واحتضنتها بقوة
أخبرت الأم ابنتها أنها كانت تشعر في الأيام الأخيرة قبل وفاة والدها بنزيف في اللثة ورعشة بسيطة، ولكنها لم تبالي وعرفت بمرضها في أول أسبوع لها بالغربة بعد بكاء أخيها في غرفة الكشف وحيدًا أخبرته بأنها تؤمن بالقدر والأهم هو رنا وأنها الآن سوف تصاحب المرض من أجلها حتى تطمئن عليها ثم ترقد في سلام هذا هو كل ما تتمناه
تعجبت الأم من كم الأحداث الجسام في هذا الوقت القصير وحمدت الله أنه وهبها أخًا تحتمي في حماه في أيامها الأخيرة، وأن إحسان الله عليهم جعل قلب أخيها في أيام الغربة منشغلًا

بعائلته دائمًا وأصبح لهم جميعًا سندًا وتذكرت والد رنا ما بين الحنين واللوم على وفاته ورعونته في إدارة أمواله

أردفت الأم لرنا نحن الآن لا نملك من حطام الدنيا سوى شقة مصر الجديدة المحجوزة من قبل البنك والأخرى بيت العائلة في جاردن سيتي لنا فيه نصيب ونبهت على رنا أن تتفوق في دراستها هنا في ألمانيا كي تبني مستقبلًا لها تستند عليه إلى أن يحين وقت العودة إلى الديار مرة أخرى أخبرتها أن ما حدث كان كابوسًا مرعبًا أو فيلم سينمائي يسخر البعض من سذاجة تغير الأحداث فيه ولكنها حقيقة الدنيا فقد تمر أعوام في سلام وقد يأتي عام مفعم بالتقلبات كأنه مائة عام

تضامنت معها رنا سريعًا وبحثت عن عمل كي على الأقل تكفل نفسها ووالدتها ولا تصبح ثقيلة على الخال اعتادت ذلك واستمدت تلك القدرة من المرونة في التعامل مع الأحداث من تقديرها للموقف وخطورته

تركها الخال لحكمة الاحتكاك بالمجتمع الألماني وبناء النفس ولم يأخذ منها شيئًا قط, توالت الأيام على رنا ليل بعد ليل واستطاعت أن تندمج بصعوبة مع الوطن الجديد جامد المشاعر والقاسي بحد كبير وحين جلوسها منفردة، تتذكر دعبس وتبكيه فراقًا, شعرت بتأنيب الضمير الشديد تجاهه ولكن لا محالة من تركه لعله يجد من يجبر حال قلبه المكسور، فلا عودة للوطن الآن ومن الظلم أن

تتركه معلقًا، فكرت في مهاتفته لكنها وجدت أن الأمر سوف يبدو شاقًا عليها فعند سماع صوته لا تملك إلا البكاء، فكرت في إرسال رسالة عبر الهاتف ولكنها تقنيًا لا تستوعب كم الكلمات التي تشعر بها فجلست وكتبت رسالة لدعبس عبر البريد الإلكتروني هذا الاختراع الحديث الذي جعل من البوسطجي زائرًا عزيزًا dabsdalia@hotmail كان هذا أول إيميل لدعبس بالكاد يفتحه ليلًا ليستقبل رسائل الأصدقاء ويقوم بالرد عليها أو مشاركة الآخرين بها إذا كانت لطيفة

اختارت اللون القرمزي للخط وكتبت

حبيبي البعيد

* * *

رائحة بخور وكرسي هزاز إضاءة خافتة وسجادة صلاة, عسكري إنجليزي ذو قبعة بارزة يطل من مكتبه بطول الحائط صورة أبيض وأسود لحصان يجري على إحدى الشواطئ، هكذا أصبحت غرفة دسامي بعد قليل من التعديلات التي تتجلى فيها رائحة مرور الزمن والنضج.

ارتاح د سامي بعد استقرار حالة والده تمامًا وحالة البهجة التي تغمر المنزل الآن, اشترى كل ما أراد لكي يحيا في تلك الغرفة هانئًا حتى يعيد ترتيب أوراقه, شعر أيضًا أنه صرف ببذخ بعد أن قام

بتغيير السيارة وشراء أخرى جديدة ماركة (أوبل) تحمل موديل السنة، ولكنه كان مؤمنًا بأن الأموال ليست إلا وسيلة لإسعاد البشر واكتنازها شيء يتنافى مع المنطق تمامًا، فقام بالصرف على وفق معتقده.

رنين جرس الباب بشكل هستيري وهو نذير استغاثة في هذا الصباح الباكر لا معنى له سوى أنه هناك مريض في الجوار يحتاج إلى مساعدة من د سامي

هرع علم الدين إلى باب الشقة مطضربًا بينما اعتدلت والدته من وضع النوم إلى وضع الجلوس وأسرعت بارتداء غطاء الرأس (الإيشارب).

نظر أستاذ علم الدين من خلال العين السحرية ذات العدسة القاتمة؛ ليرى من بالخارج خلفه يقف د سامي مستشيط غضبًا ومتوعد من يطرق الباب بهذه الفظاظة بدرس لن ينساه أبدًا ..... طمأن أستاذ علم الدين زوجته أن الطارق هو رمضان صبي الأسطى شوقي الميكانيكي وفتح باب المنزل مرحبًا

لم ينتظر صبي الورشة سؤال أستاذ علم الدين عن سبب الزيارة الكريمة

وبصوت عالي (الأسطى بيقولك يا داكتور انزل شيل عربيتك من جنب الورشة وبسرعة دا أكل عيش)

د سامي: اتكلم بأدب يا واد يا حيوان إنت بدل ما أبهدلك إنت

وإللي مشغلك
رمضان: أنا قوللتلك حاجة أنا مليش دعوة يا عم شوف الأسطى
د: سامي عم أنا د سامي يا كلب غور يا صعلوك إنت وأنا هنزله
تسرع والدته إليه أبوس إيدك يابني دا راجل شراني وقليلل الأدب
ممكن يمسك فيك و(القبيح يشتم السلطان)... انزل إنت يا علم
الدين انقل العربية
لا يا أمي محدش غيري هينزله
أغلق الباب بقوة خلفه وهرع إلى نزول السلم مشحونًا بانفعالات
أغلبها سلبي تجاه هذا الرجل الفظ قليل الاحترام الذي استطاع
السيطرة على شارع كامل بصوته الجهوري وألفاظه النابية
والإيجابي من جعبة مشاعره هو تخيله أسطى شوقي وقد آلامته
صفعة يده القوية
يجلس الأسطى شوقي أمام الورشة التي لم يعد يزورها زائر
أو يذكرها ذاكر نتيجة التقدم الرهيب في عالم إنتاج السيارات
واستخدام أجهزة الحاسب الآلي في الكشف عن عيوبها, فلم يعد
له زبائنه القدامى من أصحاب السيارات الفارهة أو الحديثة بل
توجه معظم الزبائن إلى التوكيلات المتخصصة تجنبًا للدخول في
مشكلات جهل أصحاب الحرف في إصلاح الأعطال
عدم استيعاب أسطى شوقي للتقنيات الحديثة وقلة العمل أودت
به إلى شخص شديد الشراسة، كل همه هو اختلاق مشكلات مع

جيرانه من لا شيء وأصبحت المحاضر تنهال على أقسام الشرطة تشكو بطشه.... يدخن المعسل مصحوبة بقطعة من الحشيش ويمد قدمه على كرسي أمامه ولسان حاله يقول (آه يا زمن كداب) لمح د سامي قادمًا عليه فلم يعطه فرصة للكلام وصفعه على وجهه صفعة شديدة طرحته أرضًا.... إنت إيه يا روح أمك عامل راجل دانا أطلع ديك أبوك راكن عربيتك جانبي لييه..... د محل أكل عيش يا ابن...وكأنه أيضًا يشتكي حاله وما آل إليه إنتوا فاكريني إيه عجزت ياولاد الش...... أراد أن يسمع الورش الأخرى التي بالجوار دانا أسطى شوقي... اشتريت الورشة دي وأنا عندي ٢١ سنة.... كنت بشيل العربيات الأمريكاني على كتفي لواحدي... لم يكمل شريط الذكريات بسبب كرسي أطاح بنظارته الطبية السوداء من على وجهه بقوة متبوعًا بركلة قوية طرحته أرضًا وهم د سامي بالانقضاض عليه ولكن أحاط به أصحاب الورش والمحلات وأخذوه بعيدًا

استمر د سامي في سباب أسطى شوقي أنا هوريك يا راجل يا عر......... يحاول أسطى شوقي الإفلات من المحاطين ممسكًا بيده مفك الصليبة، ولكنهم ينجحوا في تهدئته

أنا هركن كل يوم قدامك وابقى وريني نفسك اوعى تفتكرني أفندي أنا ابن كلب أراد دسامي كسر شوكة الأسطى شوقي إلى الأبد وإنهاء أسطورته غير المبررة

شعر الأسطى شوقي بامتهان شديد لكرامته بل أين قوته التي حظى بها طيلة عمره بعد أن قام دسامي الذي كان فتى صغيراً عندما اشترى تلك الورشة يلقي عليه السلام في أدب جم ويستأذنه أحيانًا أخرى في إلقاء النظر على سيارته الرتمو القديمة, فرق العمر جعل الغلبة للدكتور سامي الذي لم يخفق قلبه بشدة كخفقان قلب الأسطى شوقي أو تهتز ركبتاه وترتجف أسفله بحكم السن جن جنون الأسطى شوقي عندما رأى سيارة د سامي الحديثة تركن بجانب الورشة، وكأنه في حالة عداء مع كل ما هو حديث وهذا هو السبب الدفين الذي جعله يختلق مشاجرة من لا شيء مع د سامي الجار الخلوق

انتهت المشجرة باصطحاب د سامي من الحضور الذين عانوا بطش شوقي مؤخرًا لتقبيل رأس الأسطى الكبير في السن في نوع سطوة احترام وتبجيل كبير السن التي تختلف حسب حاله فإذا كان شديد البطش أصبح المسيطر وكبير المقام وإذا كان قليل الحيلة، أصبح لا قيمة له أو الرجل البركة

فما كان من د سامي سوى الانصياع لرغبة الحضور نظرًا لشعوره بالخجل من نفسه وأنه فقد جزءًا من احترامه بالأشجار في الشارع وهو الطبيب المتحضر وكعادة أبناء الوطن ممن يحملون القلب الأبيض تقدم دسامي مصافحًا الأسطى شوقي ومقبلًا رأسه معتذرًا لم يتوقع الجميع أن تنتهي المشاجرة بتلك السهولة، فماضي الأسطى

يحتم عليه أن يكون هو المنتصر ولكن الزمن اختلف كثيرًا الآن عندما تتغلب عناصر الهدم داخل الجسد والروح وتطغى على عناصر البناء

جلس د سامي بجانب الأسطى شوقي الذي أقسم عليه أن يأخذ واجبه وطلب له كوبًا من الشاي وحجر معسل سلوم

حكى له عن ضيق صدره من الحال الذي أضحت الورشة عليه الآن, أخبره أيضًا أنه كان يفكر في بيعها لصيدلية شهيرة تريد أن تفتح فرعًا جديدًا لها في وسط المدينة ولكن إن فعل ذلك قطعًا سيمرض فإنه لم يتعود على الجلوس في المنزل كالنساء العجائز

لم يكن الأسطى شوقي من الشخصيات الضعيفة التي تبوح بهمومها إلى الغرباء أو الجيران ولكن قصوة الظروف جعلته يخرج ما بداخله وكأنه في جلسة مطولة للعلاج النفسي

انتهز د سامي فرصة انفراج أساريره وعاتبه في ود على إلقائه القمامة في فناء فيلا الكيال، فكان رده غاية في الغرابة

فاكر يابني إن كان عندي صبيان ميقلوش عن ١١ واحد وعربيات بتتصلح من كترها كنت بسد الشارع فكان الزبال بييجي ياخد الزبالة بالليل ويديني فلوس كمان على قطع الغيار القديمة

دلوقتي أنا عندي صبي واحد وبرمي علبتين كشري في الجونينة وكل شهر أرمي (بوجيه أو تيل فرامل) فملوش لزوم أدفع للزبال حاجة

انفجر د سامي من الضحك لهذا المنطق الغريب وربط على كتف الأسطى بألفة ونادى الصبي أعطاه ١٠٠ جنيه لتنظيف فناء الفيلا تمامًا

ودب في جيب الأسطى شوقي مبلغ ٢٠٠ جنيه بأخلاق أولاد البلد، فتعزز الأسطى فابتسم وهو يقاوم يده التي تعيد إليه النقود وأردف

دا تمن الكرسي إللي أنا كسرته وسحب نفسًا عميقًا من حجر السلوم واضعًا ساق أعلى الأخرى في نشوة نصر ممزوجة بتعاطفه مع حال الأسطى المسن.

* * *

اسطبل M٢ بنزلة السمان

اجتمع أغلب الدفعة بعد انتهاء آخر يوم في امتحانات السنة الثالثة للاحتفال, اتفقوا بعد استطلاع الآراء على البدء بركوب مركب من دقدق المراكبي بكورنيش جاردن سيتي يتبعها وجبة الغذاء دجاج مشوي على الفحم في أندريا المريوطية والعروج على الإسطبل عند الغروب

بدى للجميع إرهاق هانيا الجبالي هذا اليوم وتورم جبينها فحاولت إقناع البعض بأنه بسبب طول فترات المذاكرة والسهر ليلًا, لكن ميدو لم يقتنع تمامًا بالأمر فهي منقطعة عن الاتصال به

منذ فترة حتى أصبح لا يناقشها البتة في اختفائها المفاجئ, ليرفع عنها الحرج بالتعلل والكذب كما تفعل دائمًا أو لتجنب الدخول معها في صدام من الممكن أن يؤدي إلى الامتناع عن رؤيتها تمامًا كنوع من العقاب كما تفعل دائمًا.

اصطفت الخيول ليلًا متقاربة, ونبه سايس الخيول كولا على الجميع بترك الأمتعة والهواتف بداخل السيارات حتى لا تفقد داخل رمال الصحراء وبدأت الخيل بالمشي فالهرولة ثم الجري في اتجاه مكان التجمع وهو صحارة سيتي على بعد كيلومترات بسيطة من طريق الأسفلت

إحساس ركوب الخيل يمنح القوة والجراءة ولذة غزو الصحراء لا يعلمها الكثيرون بينما السيطرة على مخلوق قوي سخره الله تعالى لخدمة البشر تغر الخيال بأنه متحكم وفارس

تسابق الأصدقاء فتارة يتقدم ميدو وتارة أخرى يتقدم حازم وصديقته سهيلة ولكن هنيا الجبالي في المؤخرة لا يبدو أنها تريد أن تشاركهم السباق على غير عادتها، فهي من أصحاب الأصوات العالية والدموع الكثيرة من سرعة الجري واختراق الصحراء وتنتشي دائمًا بفوزها كل مرة

ولكن اليوم تشد اللجام إلى الخلف وتحكم قبضتها عليه حتى لا يحاكي فرسها الخيول الأخرى, قد تكون تعمدت الشرود عن الجموع للخلوة بنفسها أو إخفاء شيء ما بداخلها كمزاجها

المتقلب التعيس.
افترشت الصحراء بلون القمر الساطع تصادفًا مع انتصاف الشهر العربي، فبدت وكأنها مضاءة باللون الأبيض الثلجي, توقف ميدو بشد اللجام أثناء الجري وضرب أسفل بطن الحصان بخفة مع سحب اللجام إلى اليسار لتغيير الاتجاه نحو هانيا الشاردة عن المجموعة ليطمئن عليها
اقترب منها متمهلًا وحاول تحسس أخبارها
مش هسألك كنتي مختفية فين بقاللك أسبوعين (بتيجي الامتحان وتمشي علطول من غير حتى سلام)
فنظرت له غاضبة وتحول وجهها من ملائكي إلى شيطاني حاد القسمات
أنا مشغولة شوية وبعدين إنت مالك إنت ولي أمري قولتلك مليون مرة لما أغيب متسألنيش
تحمل ميدو انفعالها في صبر وتفهم لتقلباتها الوجدانية، فقد تمرس على احتوائها مغلوبًا على أمره
أنا آسف طيب إنتي كويسة
يعني شايفني بشد في شعري...
وقبل أن تتمادى في عصبيتها انطلق ميدو بفرسه حانقًا, زاد من سرعته في عصبية وبلا هوادة حتى استطاع أن يلحق بباقي المجموعة قبل الوصول إلى نقطة الالتقاء فجاوزهم حتى وصل

أولًا في المقدمة
نزل الجميع أعلى الخيول التي كانت تصدر صهيلًا قويًا، وقام كولا السايس بربط الخيول بعضها البعض حتى لا تشرد أحدها فيتبعها القطيع بلا تفكير
جلس ميدو يتأمل المنظر أسفله من فوق الربوة العالية, أعاد على ذاكرته مشاهد حياته وكأنه يرسي حاله وينعي قلبه المتعلق بأكثر بنات الدفعة تقلبًا, تذكر الأعوام المنصرمة، وكيف انقضت سريعًا, ثم عاد إلى حيلته وتبريره كي يصفي لهانيا كما يفعل العشاق اللذين يبررون كل تصرفات الحماقة من المحبين ويخلقون لها ألف عذر في لحظات من غياب العقل المتعمد.
هانيا صديقتي الحميمة، وأنا تقبلتها هكذا من البداية، فلا ذنب لها إن زادت مشاعري عن حد الصداقة، ولكن حيرتي الكبرى هو شعوري الكاذب أنها تحبني, فهذا الشعور طمس الحقيقة الساطعة الآن في امتهانها لكرامتي على مجرد سؤال بسيط عن حالها وكأنها تتلذذ في رؤيتي معذب.
قطع كولا السايس شرود ميدو اللحظي ومد يده له بسيجارة ليدخنها, وهم بعمل الشاي على الحطب تحية منه للمجموعة, أشعل ميدو السيجارة التي قلما يدخنها سوى في المناسبات، فهو أصبح من عشاق الشيشة ومريديها
إنت بتشرب سجاير

هكذا صاحت هانيا بصوت أنثوي ساخر وهي تزيح بعض الحصى من الأرض بجانب ميدو وتهم بالجلوس جانبه وكأن شيئًا لم يكن, أشاح ميدو بوجهه إلى الجهة الأخرى تعبيرًا عن الاستياء من معاملتها له ولكنها لمست وجهه حتى ينظر إليها فاستسلم ليدها في نعومة كالقطط منزوعًا للإرادة أمام هذا الكف الأبيض الصغير, جاذبته أطراف الحديث عن أشياء عادية فبادلها الاهتمام والإصغاء كما تعود إلى أن قطع صوت السكون صرخة فرامل يد لسيارة قوية

انتبه الجميع إلى الخلف إلى تلك السيارة التي بدى أنها دفع رباعي من ضخامتها وهيكلها المربع الشكل وقطعها تلك المسافة في قلب الصحراء.

نور السيارة الأصفر القوي تتطاير خلاله ذرات الغبار في عصبية وفي ضبابية الرؤيا خرج من السيارة مترجلًا رجل أربعيني وسيم ذو طول فارع وشارب كثيف يرتدي زي البحرية الأبيض ويدخن السجائر في عصبية شديدة

جذب الرجل هانيا من شعرها مباشرة دون مقدمات في جبروت واضح غير مكترث للحضور وصاح

تاني يا هنيا, تاني

خارت قوى هنيا في يده مستسلمة، وأخذت في القسم أنها لم تفعل شيئًا وأنها اتصلت به لتخبره بخروجها من المنزل ولكنها

وجدت هاتفه مغلقًا, اعترى القلق الأجواء وانتبهت كل العيون إلى المشهد حتى كولا السايس توقف عن صنع الشاي؛ ليستطلع الأمر عن قرب.

تقدم ميدو من الرجل ينهره وصاح في وجهه لكي يترك هنيا ولا يعاملها بهذه القسوة

ترك الرجل شعر هانيا الملفوف بين يده وسحبها في مواجهة ميدو مباشرة, سألها ساخراً

والواد الكتكوت دا يطلع مين يا حبيبتي

عدلت هانيا من خصلات شعرها وابتسمت ابتسامة مصتنعة وشاورت على ميدو بإبهام دا نوفل إللي بحكيللك عنه مفيش أي خوف منه يعني زي البنات بالظبط كدا.

وجم ميدو لبرهة، واكفهر وجهه لم يستوعب كلامها ازدراءً أم استهجانًا أم احتقارًا أو محاولة للهروب من الموقف تصبب العرق من جبينه وتوقف الزمن حرفيًا

دقائق معدودات في عمر الزمن ولكنها سنون في عمر الموقف القائم

عدل الرجل شاربه في ثقة ورفع يديه قليلًا بجانبه فأدخلت هانيا يدها (أنكجيه) حتى السيارة

قبل أن يدير متور سيارته سألها الرجل مستهزئًا مش تقولي للكتكوت الشجاع دا ميدخلش في إللي ملوش فيه ولما يجي

الصحري يجيب دادا معاه علشان ميتوهش
يلا سلمي عليه وقوليله باي
ضحكت وكأنها تستحسن كلامه, فبدت شمتاء تكبر سنها بعشرين عامًا وأقبح ما أنجبت النساء في نظر ميدو وبصوت واضح للجميع
لازم أسلم عليه طبعًا
سلام يا نوفل,
تجمد الدم في شرايين ميدو وكحظت عيناه وكأنه في الرمق الأخير
ثم أردفت بسخرية
آه نوفل ولا نسيت نفسك
فابتسم الأربعيني وأدار سيارته وهي تشاور إلى الجميع سلام وخلوا بلكو من نوفل ليتوه.

* * *

اختار دعبس لون صفحة بريده الإلكتروني باللون الأزرق المعروف علميًا إنه يجلب الاستقرار النفسي، ولكن كان تأثير هذا اللون على دعبس عندما بدأ في قراءة رسالة رنا مختلفًا تمامًا شعر أنه أعظم لون للوحدة ويوحي بالغربة والتيه
منذ عدة شهور ينتظر دعبس أخبارًا جديدة عن رنا أو تلقي اتصال هاتفي منها بعد عدة محاولات للاتصال بها دون جدوى, تنتابه الهواجس بأنها سوف تفتح باب غرفته وتحتضنه وتعطر

جسده برائحتها الذكية هذا ما تمناه عوضًا عن أيام الفرقة ومرارة انتظار المجهول وشبح انتهاء قصته الجميلة, لم يتوقع إطلاقًا أثناء فتحه صندوق البريد الإلكتروني أن يجد رسالة منها, فقصة حبهم أعظم من أن تنتهي برسالة دون وداع حقيقي تتعانق فيه العيون وتتلألأ ببريق الذكريات

فحوى الرسالة أنها بالفعل عاشت معه أجمل أيام عمرها وتعشقه إلى الآن ولكن الوضع تغير والظروف أصبحت عصيبة بشكل لا يصدقه عقل فالتمست منه العذر والسماح وطلبت منه النسيان وتحمل الآلام وأن تبقى ذكرها دائمًا في باله بكل خير وأن يخلف الله عليه بزوجة أفضل منها تستطيع أن يحقق معها كل أحلامه انسابت دموع دعبس في غزارة يبكي حبه لم يستطع وهو الشاعر أن يستخدم ملكاته في التعبير عما بداخله هربت بداخله الكلمات وتاهت معاني الحياة وكأنه ولد توًا رضيعًا مشوهة وغرق في حمى الصدمة.

اغتالات رنا الطفل بداخله بكل ما يحمل من شقاوة وفرحة وابتسامة وعفوية واحتماء بأم صنعها هو واختارها بديلًا عن العالمين, شعر أنه غريب عن الدنيا ممزق كل ماضيه مجرد هراء وأوهام كيف تصبح الحقيقة الوحيدة التي عاش من أجلها مجرد سراب، فعشقه لها جعل من كل جميل يصنعه لنفسه هدية لحبه الوحيد

احتجب دعبس في منزله عامًا كاملًا وامتنع عن حضور امتحان السنة النهائية للمعهد التي أودت به إلى أول منزلق الفشل وهو الرسوب المتوقع, لم يعد يعبأ بشيء سوى الجلوس في البلكون ليلًا يئن من الألم القلب يمسك بقلمه ويكتب أبياتًا صنعاها خصيصًا لها كل ما تملكه حينها كلمات كثيرة عن الخيانة، وليست الخيانة بمعناها المعروف ولكنها خيانة الأحلام والغد والوفاء بالعهود
تذكر أنهما من نشوة الحب قام بتسمية أولاد المستقبل (كرمة وعمر) فكيف يصبح المصير هكذا وبمرور الأيام ذبل الشاب المفعم بالحيوية والانطلاق أهلكه الحب قضى على كل أحلام المستقبل وحول هيئته إلى مريض واهن
الحب هو قصة نضال في كل شيء في تحقيقه والتمسك به والحفاظ عليه، فعندما تفقد قضية نضالك فقد تتلاشى ملامحك وهويتك ويتم استنساخ شخص آخر منك لا تعلم عنه أي شيء سوى ملامح تشبهك
أحلام الليلل هي ملاذ من الممكن أن تجد فيه من تحب واحتجب عنك بفعل القدر ودائمًا بين الحين والآخر تزور رنا دعبس في منامه تواسييه أو تربط على كتفه أو يتحسس دموعها الساخنة على يده، ولكن في النهاية، عندما يقترب منها ليقبل وجنتها تتحول إلى عجوز شمتاء مفزعة
وفي دائرة الإنكار وهي حالة من عدم التصديق تنتاب المحب

عندما يتعرض إلى صدمة من المحبوب, عاش دعبس أيامه، فكان يقف أمام باب الكلية ينتظرها أو يطوف حي جاردن سيتي بحثًا عنها ويجلس أمام منزلها بمصر الجديدة ساعات يتوهم أنها سوف تعود بل أنه كان يستشعر رائحة عطرها في كل مكان يذهب إليه واحيدًا دونها ويوم تلو الآخر تسطع الحقيقة التي لا مفر من مواجهتها وأنها اختفت إلى الأبد, شعر دعبس بتمكن الأللم منه وأنه لا مفر من صاحب جديد سوف يتبعه كظله فحاول دعبس التخلص من هذا الزائر شديد القسوة بالانخراط في الحياة من جديد

بحث دعبس عن أصدقائه فوجد الكل قد تخرج ويتحسس طريقه إلى المستقبل فعزم على نسيان سنين عمره الفائتة تمامًا والانخراط مرة أخرى في الحياة، ولكن بشكل مختلف

أنكر دعبس تمامًا أنه مهزوم تملكته النرجسية القديمة التي انتهت منذ معرفته برنا وكأنها مرض مزمن انتهى علاجه فجاءه دون شفاء، فستشري في العقل من جديد لم يعطَ نفسه الفرصة ليحزن ويطيب بل سعى في البحث عن رنا في كل فتاة دخلت حياته فيما بعد لينتقم منها تملكه شعور الظلم والأخذ بالثأر وكانت تلك البداية

على أنغام الهوس والتكنو كان يرقص ويسكر حتى الصباح، انخرط في مجتمع الملاهي الليلية التي كان يهرب إليها في المساء كل يوم

ووسط ضجيج الدي جيه وزجاجات البيرة التي كان يفرط في شربها ويتحدى الآخرين كعادته

تعددت علاقاته النسائية، وأصبح كل همه من أي علاقة هو شهوته فقط لا يعرف ولا يريد أن يعرف غيرها كان يشعر عندما يبدل الفتايات على الفراش بأنه ينتقم من رنا بشكل غير مباشر وأن النساء جميعًا يتمتعن بأدنى الصفات البشرية حقارة

يجوب القاهرة ليلًا بدرجاته البخارية بعد تجرع زجاجات البريميم ويصطحب في كل مرة فتاة من فاقدي الأهلية ومجروحي القلب وأصحاب المشكلات النفسية التي يجمعهم السكر والرقص والتظاهر بنسيان الآلام, حتى أنه من إفراطه في العلاقات الحميمة، لم يعد يميز بين الفتايات فكان من نصيبه أيام في قسم الشرطة بعد قضائه ليله مع فتاة قاتلة وتبحث عنها الشرطة في كل مكان شعوره الداخلي القديم بالزهو جعله يفرط في فعل أي شيء حتى منتهاه وفي سباق الدرجات البخارية في ميدان علاء الدين تجرع دعبس مشروبه المسكر واستعد للتحدي في السباق الليلي للشباب يتبارى مع آخر يمتلك دراجة ذات إمكانات تصنيع أحدث ولا محالة إنه مهزوم

ولكن الأنا بداخله دفعته إلى السباق كان يطلق أكذوبته الشهيرة بأن الفيصل في السباق هو السائق وليس المكينة، خرج من السباق مخزولًا ولم يستوعب هزيمته فقام باستعارة دراجة أحد

الأصدقاء حديثة نسبيًا وقام بدخول السباق مرة أخرى إلى أن وصل إلى النهاية ولم يستطع إيقاف الدراجة، فدخل بكل قوة في سور الحديقة الحديدي تهشمت الدراجة وهرعت سيارات الإسعاف إلى نقل دعبس على الفور إلى مشفى السلام الدولي بالمهندسين وعندما تمت إفاقته من البنج وجد مجموعة من المسامير الطبية تم تركيبها في قدمه اليسرى وشريحة أعلى الفخذ، فبكى وهو ممسك بيد أخته التي انهارت هي الأخرى مع صمت والده في أسى وصوت والدته حرام عليك يبني إنت بتعمل في نفسك ليه كدا إنت عايز تموت

رد دعبس بصوت مريض (آه عايز أموت)

دارت الأيام وعاد دعبس إلى الشارع مرة أخرى ولكن بنفس المرض النفسي (الإنكار والنرجسية) أو أشد وطأة يحمل في قلبه جرحًا أكثر ألمًا من قدمه التي أصابها عرج خفيف من أثر الحادثة

ارتمى في أحضان مقاهي وسط البلد التي تحمل من مدعي الثقافة أطنانًا كان ضالته أن يجد أحد يسمع أشعاره التي كتبها طيلة فترة حبسه في المنزل بسبب جرحه العميق

وفي مقهى ليالي الشام جلس مع هدى التي تحب أن يناديها الناس بهايدي التي تدعي كتابه القصص والروايات وسرعان ما أصبح لدعبس هوى جديد وطريق آخر للهروب من آلام القلب أصبحت شلة دعبس في المقهى تحوي راقص الباليه الشحات

النصاب وعازف الدرامز الذي يتباهى بالألحدة وكل همه فقط هو اجتذاب النساء إلى الفراش والمطلقات محبي الفن ولاعبي دور الكومبارس في الوسط الفني والمسرحي عالم جديد كل الوجوه عبارة عن مسوخ بشر هاربة أيضًا كما في الملاهي الليلية

وجد ضالته أخيرًا في ملحن مبتدئ كان يسكر معه في شقة أحد الشعراء في شارع حسن الأكبر كان دعبس يحتضن هدى ويمسك بزجاجة البيرة وهو يلقي كلمات أغانيه من أوراقه الفلوسكاب وينتشي بسماع كلمات الاستحسان من الرويبضة الحضور ونعته البعض بلقب جديد (الكونشرتوا)

رأى البعض من أشباه المثقفين أن دعبس يحمل حالة الكونشيرتوا واعتز دعبس بهذا اللقب كثيرًا وضمه إلى ألقابه المختلفة (الديزل \السندباد وأخيرًا الكونشرتو)

تغير شكله تمامًا، فأصبح طليق اللحية يرتدي مجموعة كبيرة من السلاسل الجلد والقمصان الواسعة، وأصبح شعره مندسلًا على كتفه كأنه هارب توًا من معتقل للأسرى ويستخدم كلمة في اعتقادي قبل حديثه في أي شيء كنوع من اللزمة التي توحي بقدر من الثقافة.

غافله الملحن ذات يوم أثناء انفراده بهدى في إحدى غرف الشقة وسرق بعض الأغاني لم يشعر دعبس بفعلته تمامًا سوى بمرور أكثر من سنة حين سمع أحد المطربين الشعبيين يتغنى بها على قناة

مزيكا حديثة التواجد في عالم أطباق الإرسال (الدش)
ثار دعبس من الخيانة الجديدة لأحلامه فما كان منه إلا انتظار الملحن عند باب المقهى في باب اللوق وقام بضربه بقوة مفرطة وسحله في الشارع حتى تسبب بتهشيم فكه تمامًا وتكسير المقهى في حالة من حالات الجنون القديمة، وفي نيابة قصر النيل تعددت الاتهامات الموجهة إليه من صاحب المقهى والمجني عليه التي سوف تؤول إلى حبسه مدة لا تقل عن ثلاثة أعوام
استطاع والده أن يدفع تعويضًا للملحن وصاحب المقهى قدر بسبعين ألف جنيه وتم عمل محضر تصالح واصطحبه والده من النيابة إلى المنزل الذي دخله صامتًا، بينما وجه أمه وأخته يغشاه الرعب مما آل إليه حال الفتى المسكين, حاولت أمه أن تعاتبه فما كان منه سوى إغلاق باب الغرفة وتوجيه السباب إلى المجتمع الذي لا يقدر فنه الحقيقي

ربما كان الكونشرتو أشهر القوالب الموسيقية الكبيرة وأقربها إلى قلوب المستمعين لأنه القالب الموسيقي الذي يتضمن أكثر من غيره تجسيدًا للحوار والدراما والبحث عن الحقيقة بافتراض الشيء ونقيضه

* * *

إعادة استنساخ الماضي المؤلم للروح بشدة, فإنه ضد سنة الله في الأرض وضد عقارب الساعة, فضحكة الماضي على موقف ما تختفي عند تكرار نفس الموقف في الحاضر وكذلك حزن الماضي قد تنظر إليه في الحاضر بازدراء لتفاهة سببه الذي هد مضجعك وأرق كثيراً

بعد عدة محاولات من استجلاب الماضي للحاضر بشتى الطرق, فشل د سامي فشلًا زريعًا، فالأصدقاء رحلوا كل إلى مسعاه وديكور المكان المعتاد في الشارع أو على المقهى أو حتى عربة الفول على قارعة الطريق لم يتغيروا كثيراً ولكن التغير هو داخل أنفسنا نحن التغير

حسم د سامي علم الدين أمره بعدم العودة إلى البحر مرة أخرى حتى وإن لم يكن لديه خطة واضحة عن معالم طريقه داخل الوطن بينما حرارة الاشتياق إلى دفء المكان، أخذت في الذبول والتعود يومًا بعد يوم

كانت كل دوافعه للبقاء نبيلة, الآن بعد مضي عشرة أعوام من الغربة بين شواطئ العالم اكتفى د سامي بتلك الرحلة وأصبح شاكرًا لها. فلم يعد يبهره السفر كما كان في السابق وظهر أمر جلل يحتم عليه الاستقرار وهو نفي صفة الأنانية عنه بعد أن عذبه ضميره على ترك أبويه العجائز بلا معيل وتخبطهم في الحياة

بدونه.
فلا مانع إطلاقًا أن يستعد لبناء أسرة، ولكن أن يبقى في جوار والديه هو الأهم, اعتقد أنه يجب عليه رد الجميل حتى وإن لم يطلب منه ذلك فيد والدته المرتعشة وهي تضع له الطعام وسعال والده الدائم عند أي مجهود أكبر دليل على احتياجهما الضمني له.
إنه الامتحان الوجودي في أن تبقى من أجل الغير أو تهرب من أجل ذاتك ولا داعي من القول إن الأموال سوف تعوض الغياب، فكل ذلك هراء لا محاله,في الحياة في الوجود.
استقر وضع الأسرة بشكل كبير أصبح هناك نظام لمواعيد دواء العجائز والطعام الصحي الذي تفنن في إعداده كل يوم بشكل لا يجلب الملل, كان له كبير الأثر على التقدم في الحالة الصحية لكلا الوالدين.
وفي الغروب عند احتساء العائلة لفنجان الشاي، اعتلت الضحكات الوجوه فشعور الوالدين بالأمان كان هو السر الأكبر في حالة السعادة بل هو معنى الوجود في الدنيا الآن بالنسبة له, لكن أحيانًا كثيرة يلمح والده لحظات شرود الابن وكأنه يسرق في غيم حزين ويعود مرة أخرى
بمشاعر الأب سأله والده عن كونه حزين لفقدانه عمله في أعالي البحار وأنه لا مانع من العودة مرة أخرى إذا رغب في ذلك فما

كان من د سامي سوى أن نأى بنفسه عن هذا التفكير الأناني وابتسم لوالده وأخبره أنه أخطأ الطريق في بادئ الأمر مشحونًا بروح الشباب المغامر ولاكنه يحمد الله على أنه جاء في الوقت المناسب قبل تفاقم الأوضاع وقبل أن يلقي حتفه هناك أو يصاب بمرض عقلي.

اغرورقت عين الوالد بالدموع وأخبره أنه كافح في حياته منذ أن كان شابًا وعندما أتى مولوده الأول إلى الدنيا دعا الله من قلبه أن يكون هذا الولد سندًا وعونًا وهو الآن على أعتاب الرحيل مطمئن أن هناك ابنًا بارًا سوف يودعه إلى مثواه الأخير ويمكث حتى انصراف الجموع ينعيه ويدعو له بالرحمة.

فاتحه في تكوين أسرة وإنجاب أطفال وبداية حياة جديدة، فأخبره د سامي أنه تعلم من البحر خصلتين في غاية الأهمية, وهما الصبر والتدبر في اتخاذ القرارت أي النظر في عواقب الأمور

فهو الآن عليه تدبر أمره أولًا ومعرفة ما يجب فعله ليقف على أرض صلبة في مواجهة الحياة, مازحه والده وأخبره أنه اشتاق لتدخين سيجارة فهو مقلع عن التدخين منذ فترة ولاكن دماءه متعطشة إلى جرعة من النكوتين الساخن

حذره د سامي من خطورة العودة إلى التدخين, فما كان من الأب سوى الابتسام وهو يكرر

يعني هعيش أكتر من إللي عشته, هات يا ولد سيجارة هات

سعل العجوز كثيراً بعد ثاني نفس من السيجارة، ولكنه نظر إلى ابنه وغاب في ضحكة من القلب شعر بالدوار الخفيف فطلب منه اصطحابه إلى الفراش كي ينعم بنوم هانئ بعد تلك السيجارة التي أثرت مباشرة المخ وجعلته في حالة من عدم الاتزان كأنه يدخن مخدر الحشيش, فاصطحبه ابنه إلى السرير وقام بالتأكد من الغطاء يصل حتى أقدامه واستأذنه للخروج فما كان من الأب سوى الدعاء لابنه أن ينجيه الله من كل كرب

أغلق د سامي باب الحجرة في سعادة غامرة من دعاء والده له, هذا الدعاء الذي لم تعتد آذانه عليه سوى من الأغراب على المركب في عرض البحر له مذاق خاص عند سماعه من إحدى الوالدين.

جلس د سامي أمام شاشة الحاسوب وبدأ في كتابة استقالته المسببة بظروف عائلية وشخصية وأرسلها إلى الشركة الأم مع طلب إرسال باقي مستحقاته المالية ومكافأة نهاية الخدمة على حسابه البنكي في أقرب فرصة.

وفي جوف ليل عند اختلاط دخان الشتاء مع دخان السجائر ولحظة تأمل لحاله الذي عاد إلى النقطة صفر مجددًا, فما أصعب من التفكير في البدايات عندما يتخطى العمر الأربعين عامًا انتابه إحساس قاسي جدًا حاصره ففي هذا المكان عندما اتخذ قرار العمل على المراكب في أعالي البحار, كان يشعر حينها أنه تدبر

الأمر جيدًا كان هذا في عمر الثلاثين هرب إلى تحقيق الذات هكذا اعتقد أنه على صواب

بينما بعد تخطيه الأربعين وجد نفسه كأسطورة سيزيف (ملقي الحجارة من أعلى السفح بلا هدف) تغيرت نظرته إلى ما كان يعتقد أنه مجد شخصي وبناء للذات إلى لا شيء وأنه كان من الأفضل له المكوث في الوطن حتى ولو طبيب بسيط في عيادة متواضعة على الأقل كيان يُبنى بجوار الأهل

شعر بحالة من الرضا عن القدر الذي استجاب له في بادئ الأمر دون تعنت وهو الآن بعد هذا العمر، أصبحت آماله في الحياة ليست السعي والكفاح ومطاردة الأحلام ولكن تغيرت إلى الاستقرار والسلام النفسي بعد إجهاد عمر واكتمال نضج

تمنى أن ما جمعه يكفيه للاستمتاع بحياته كما يفعل معظم الأجانب الذين يتقاعدون في سن مبكر ليبدأ نوعًا جديدًا من متع الحياة وهي فقط الاستمتاع بالطبيعة أو الريف أو العيش في الأدغال والترحال في الصحراء ولكنها فكرة حالمة فلقمة العيش تجبر الكثير على العمل حتى الممات دون رحمة.

لسعه البرد فاستغرب من وصول البرد لهذا البدن العفي الذي طالما كشر عن موفور الصحة، فعاند برد جسده وخلع روبه الخفيف في تحدي وأشعل سيجارته بثبات وانتظر لسعات البرد المتتابعة تدغدغ جسده العاري وتشعره بالحياة.

انتشرت أنباء محاولة انتحار هانيا الجبالي داخل جنابات الحرم الجامعي, لم يكترث ميدو لتلك الأخبار نهائيًا وتحول إلى شاب تبدو فيه ملامح الالتزام, أطلق لحية خفيفة، وحف شاربه وأصبح من رواد المساجد في أغلب الوقت وأحيانًا كثيرة مقيمًا للشعائر الدينية.

بعد الأزمة النفسية التي سببتها له صديقته المخلصة التي كان لها حرفيًا الظل الوفي, قضى شهورًا من العزلة الاختيارية داخل المنزل مع العزوف تمامًا عن التحدث إلى أمه إلا نادرًا.. بل أصبح شديد العصبية معها كأنه يحملها ضمنيًا ما آل إليه حاله بسبب ملاحقتها الدائمة له كظله مما انعكس على قلة حيلته عند الصدام الحقيقي مع الحياة

كان من السهل جدًا بعد الإهانة والإحباط الذي شعر به أن ينجرف إلى منزلق البؤس والاكتئاب ورفض الحياة, لكن العناية الإلهية تدخلت حين هدته إلى مكتبة بلاد الأفراح المفتوحة حديثًا في ميدان الفلكي حيث قاده الفضول إليها في ليل من التمزق الفكري,

اشترى منها الكثير من الكتب في الفقه وسديهات جديدة لمشاهير القراء والدعاة, ساعدته تلك الثقافة الجديدة أن يمنطق لحياته من خلال الدين وحكم الابتلاء, كأنها محطة جديدة يجتازها في وقت مدبر لتخرجه من محنة اسم أطلق عليه للسخرية (نوفل)

كما تخيل الكثير لكنه في الحقيقة أصبح رمزًا لسيرة إنسان أو جانب من حياته شاء أو أبى.

أخبره حازم صديقه الذي ابتعد عنه ميدو مؤخرًا لتدخينه السجائر ومرافقته سهيلة, إنه إذا كان يدعي التدين حقًا فلازمًا عليه زيارة تلك الفتاة التي شاطرتهم العيش والملح كما قال وأن يعفو عنها لأنه هذا هو حقيقة الدين وتركه بجانب سور الجامع وانصرف قبل أن يبدأ ميدو حديثه المعتاد أخيرًا عن الهداية والالتزام والعمل الصالح.

تجربة ميدو هي الأسوأ في الحب بل هي جريمة مكتملة الأركان يطلق عليها حب الطرف الواحد, بل الطامة الكبرى إنها تركته يحبها لم تبتعد عنه أو حتى تنصحه بالابتعاد بل كانت تتعمد أن تجبره على الأنين دون صوت كالزراف حتى وإن بدى أمام الجميع أنها مجرد صداقة حميمة ورفقة درب لكنه في الحقيقة نوع من السادية العاطفية، وهي التلذذ بتعذيب الحبيب بالقرب والمشاهدة وعدم ترك المحب لكي تطيب جراحه من مرض قلبه, فلا شفاء ولا خلاص

ظهور الرجل الأربعيني قدرًا هو ما فسر غيابها الكثير ووجهها المتورم ومزاجها المتقلب وأبعد ميدو عن نزيف الحب دون مقابل الذي استرسل وترك نفسه له دون أدنى مقاومة، وفي نهاية المطاف جعلته أضحوكة أمام الجميع وعايرته على جميل مزيف

صنعته معه في بداية لقائهما فكيف تتغير نفوس البشر هكذا من أقصى درجات الإنسانية إلى أقصى درجات غلظة القلب أهذا هو الإنسان الذي جبل على المن والاستكثار.

حمل باقة من الورود وذهب عبر أروقة المشفى المسمطة واحتدم الصراع في قلبه ما بين أنها تستحق تلك المحنة وبين العفو والصفح الجميل فبدى مشتتًا متوترًا يقدم ساقًا ويؤخر الأخرى

طرق باب الغرفة ٢٠٧ برفق لم يفتح أحد, طرق مرة أخرى دون جدوى, فدخل دون أن يشعر به أحد

وجدها نائمة هزيلة. يلتف حول معصمها الشاش الأبيض ويخترق ذراعها الرفيع إبرة محلول الكلوجوز وعلى الأرض باقات من الزهور الذابلة مصحوبة بكروت تحمل أسماء كثيرة تتمنى لها الشفاء العاجل

جلس أمامها تأملها من المروج الخضراء إلى الأرض البور هكذا أنتِ تشفي فيها ثم استعاذ بالله وصحح نوايا قلبه من التشفي إلى العفو والإشفاق اتفاقًا مع مرجعيته الجديدة، حيث لا سبيل للانتقام حتى وإن انصهر الغل داخل الصدور.

أخرج حصن المسلم المجاور لسواكه من جيب قميصه القديم الذي ظهر به لأول مرة بين أروقة الجامعة ضربا بخطوط الموضة الحديثة عُرض الحائط وتمتم ببعض الأدعية

فاقت هانيا من ثباتها مذعورة ثم نامت وفاقت مرة أخرى تبكي

في نوع من الحالات العصبية التشنجية ومضعفاتها
خرج ميدو من الغرفة مسرعًا ونادى على رئيسة الممرضات المارة من أمامه مصادفة كي تسعفها إذا كانت في حاجة لذلك فدخلت معه إلى الغرفة ولطمت خدودها بخفة وأعطتها شربة ماء ونبهت عليه ألا يتجاوز أكثر من ثلاث دقائق، فهي في حالة إعياء وتحتاج إلى الراحة، فحرك رأسه إلى الأسفل تفهمًا لكلامها.
هم ميدو بالانصراف, ففي قرارة نفسه لا يريد أن تراه مرة أخرى حتى ولو مصادفة، والذي أتى به إلى هنا هو فقط صراع نفسي ما بين التشفي والصفح وأخرج قلمه وكتب على كارت الشفاء بخط واضح عفوت عنك يا هنيا شفاكي الله وعافاكي ثم نظر إليها مرة أخرى ودون أسفل الدعاء من أنتِ كي تستبيحي كرامتي وكياني.
وفي نهاية عامه الدراسي الأخير حصل على تقدير مقبول لأول مرة وتقدير تراكمي جيد جدًا ودعاه الزملاء لالتقاط الصورة التذكارية الأخيرة للدفعة، فوقف بينهم بينما بدى للجميع أنه تحول من شاب يافع إلى رجل مثقل بالهموم
عند امتثال هانيا الجبالي للشفاء لم تتوقع قط زيارة أحمد ناجي الذي يحب أن ينعته الأصدقاء بميدو وسخر الجميع منه باسمه الهزلي نوفل   فكيف وصلت بها درجات الاستغلال لأن تطارحه الفراش مرات عديدة في خفية عن أعين الجميع وتطلب منه ألا يحبها وكيف أيضًا بهذا الفتى أن لا يفضحها على رؤوس الأشهاد

وكان لها وفيًا ومخلصًا, تلذذت بعذابه في قربها منه وبعدها عنه كما كان يستغلها حبيبها الذي ظهر مرة واحدة كشخص حي لحمًا ودمًا بعد أن كان رمزًا على شاشة هاتفها وتسبب ظهوره في إهانة دمياتها غدرًا.

كانت في حضن ميدو تطلب منه أن يعتصرها بقوة حتى تذوب بين أحضانه وتبكي, كان يتخلى عن غرائزه كرجل تمامًا في أعتى دقائق النشوة، ويضمها ويسألها عن سبب هذا البكاء المكتوم التي كانت تعلل بأنه سببه وحدتها وانشغال الجميع عنها وتمزق عائلتها وأنه الوحيد التي تشعر بالأمان بقربه ولم تحدثه مطلقًا عن الرمز الكودي لعلامة التعجب في حياتها.

استطاعت أن تخفي عليه تمامًا علاقتها بالقبطان البحري المتجول بين شواطئ العالم التي وقعت في حبه وجعلها مدمنة لجسده ومشتاقة إليه وهو لا يكترث بذلك وعدها بالزواج واستباحها في الصغر دون أي رادع للضمير اعتادت معه السكر والعنف وامتهان الكرامة، وكانت تستعطفه للقاء.

استعملته صامتًا وأخفى ميدو الأمر بؤسا وحب ولم يتفوه بكلمة واحدة ولو خلسة لأقرب الناس إليه عشقت فيه ما لم يكن تستحوز عليه من حبيبها وهو حضنه الدافئ وعشقه الذاهد المجرد من نهاية أو مصلحة أو استغلال.

تساءلت هل تحمل هذا القدر من انحطاط الضمير وما تمر به

الآن من شدة هو نوع من دفع الثمن لعلاقة أنانية مريضة لفتى عديم التجارب لاهثًا وراء حبه الحقيقي
تعرضت لعمليات إجهاض كثيرة كانت سوف تودي بحياتها لتهرب القبطان من وعوده والآن هانيا في سرير المرضى تتعافى من حالة انتحار بعد زواج من أحببت بأخرى كأفلام السينما
حقًا الأفعال السيئة ما هي إلا صفعات ترد بأقوى منها وهذا هو العدل الإلهي هكذا حدثها ضميرها الذي نام كثيرًا ولم يستيقظ سوى على فراش المرض وتساءلت هل من فائدة إن ركعت على قدم ميدو وقبلت حذاءه لعلي أتوب أيقبلني وأنا أول خنجر في لب القلب بنفس الطفولة التي اعتادتها منه أم يبصق في وجهي كبائعات الهوى
دخلت في نوبة بكاء وتشنجات عصبية حتى شعرت بسائل بارد يسري في الأوردة فأعطت ظهرها للممرضة وغابت في نوم إجباري

* * *

يقوم بتسليم الورقة فارغة إلا من اسمه كما فعل في الخمسة أعوام المنصرمة مجرد إثبات حضور وأنه لا يزال ينتسب إلى المعهد كما فعل مع الحياة إثبات حضور فقط
على الرغم من قناعته بأنه غير مخطئ فيما مضى وأنه فقط ضحية للظروف وأنه لا يزال في الوقت متسع لتحقيق النجاح في

شيء ما ونفي صفة النرجسية عن كاهله وأنه يمتلك مقومات هائلة ليصبح شيئًا مهمًا داخل المجتمع دون شهادة أو تسلح بعلم فقط بمواهبه المتعددة في الشعر والتجارة وكل شيء بعيد عن الطريق الصحيح.

اعتقد أن خبرته في تربية كلبته الوحيدة توسكيينا سوف تؤهله لعمل مزرعة كلاب تحقق أرباحًا له وتكون مشروعه الناجح فبدأ بالفعل في الاتجار بالكلاب وتحقق له مكسب بسيط شجعه على تكملة مشروعه حتى اشترى نوع غالي جدًا من الكلاب من دولة أوروبية وتسلمهم من المطار بجوازات مرور أوروبية وشجرة للعائلة توضح أصول الكلاب وفصيلتها

حذره الكثيرون من مغبة شراء تلك الكلاب الأوروبية غالية الثمن وأنها لا تستطيع تحمل طقس الشرق الأوسط الحار إلا أنه استمر في عناده حتى نفق الكلبين متتابعين في أسبوع واحد

ومن مشروع الكلاب إلى الاتجار في السيارات الكلاسيكية القديمة، فكان يبحث عنها في ربوع مصر ويشتريها ويصرف عليها للصيانة وإعادة التأهيل ولا يجد من يشتريها أو من يبخس بأثمانها فيضطر إلى بيعها لتسديد ثمن قطع الغيار ومصاريف الصيانة أودى به الحال إلى كتابة مجموعة من إيصالات الأمانة لعدد من أصحاب الورش ومركز بيع قطع الغيار قامت أمه بسدادها وطلبت منه أن يكف تمامًا عن فعل أي شيء أخبرته أنها تمنت ألا تنجبه من

الأصل نتيجة أفعاله البغيضة، وأخذت في معايرته برفاق دربه اللذين أضحوا ناجحين وهو لم يزل كما هو في حالة ركود وفشل حتى الشهادة لم يستطع الحصول عليها

وفي اجتماع عائلي، جلس الكل يوبخه وينعته بالفشل وأنه قام بتحويل حياتهم إلى جحيم لا يطاق وأنه سبب عزوف الشباب عن الزواج بأخته لسمعته السيئة وفشله وأنه أيضًا سبب مرض أبيه بالشريان التاجي وخروجه المستمر كي لا يحتك به وأن أمه كانت تقوم بالادخار من أجل الذهاب إلى قضاء فريضة الحج والسبب في عدم ذهابها هو هدر أموالها المستمر في نزواته التجارية غير المدروسة وإخفاقه غير المسؤول

تحمل دعبس كل الكلام والاتهامات الموجهة إليه في صبر حتى انتهى الجميع ثم قام بإخراج علبة سجائره وجلس على كرسي الصالون في هدوء تام وبدأ في الرد على الاتهامات الموجهة له

يعني كل واحد فيكوا فشل في حاجة أنا السبب صح

أنا إللي قلت لبابا خليك طول عمرك قاعد في البلكونة دا إذا كنت قاعد أصلًا وملكش دعوة بولادك غير في الفلوس بس أنا إللي قلتلوا بلاش تكلم عيالك أو تفرح معاهم أو حتى تنصحهم

وأنا كمان إللي قولتك يا ماما خليكي طول عمرك بتشتكي من بابا في التليفون وبتقوللي لكل الناس إنك عايشة بس علشان الولاد إللي أصلًا مش فرقين معاكي

حتى إنتي يا داليا هتعلقي تأخر جوازك إللي بسبب وزنك الزائد دا وإنتي مش قادرة تعملي رجيم عليا
نظر له الجميع في خجل مما يقول واتهمه أبوه بالكذب وأمه بالافتراء وأخته رضخت واتهمته بأنه يحمل كم من العقد النفسية التي سببتها له رنا
يا مجنون رنا يا فاشل
أصابه الجنون وفقد السيطرة على أعصابه عندما سمع الحقيقة على لسان أخته
هي رنا فبالفعل كان بدايته ونهايته التي أودت به في الجلوس في صف الفاشلين
قام من مكانه كسر كل شيء من محتويات الشقة التبلوهات واللوح الكارسي ومكتب والده تليفون أمه التي لا تستطيع الابتعاد عنه وجهاز الإرسال (الريسيفر) الذي تجلس أخته بالساعات تتابع برامج الطعام والرجيم
هدده والده بالاتصال بالشرطة أو مشفى المجانين فزاد غضبه وصرخ
احمدو ربنا إني ماادمنتش يا أسرة مفككة عايشين مع بعض لييه قولولي إنتوا كلوكوا كدابين كلكوا كدا....... سقط دعبس أرضًا
هرعت أمه تتحسسه فوجدت اعوجاجًا في فمه ويده وكأن شلل أصابه في الجهة اليمنى من جسده فصرخت تستغيث بطبيب

تم نقل دعبس إلى مشفى الأنجلو أمريكين ومكث هناك قرابة الأسبوعين لا يعاني مرضًا عضويًا, كل ما يعانيه هو انهيار عصبي شديد وصعوبة في التنفس قام على إثرها الأطباء بعمل إشاعة إيكو التي توضح وجود أي خلل داخل شرايين القلب وعمل رسم قلب بالمجهود فلم يجدوا شيئًا ولكن في ليل المستشفى كان ينتابه نوع شديد من ضيق التنفس يستدعي عمل جلسات بالبخار كمريض الربو المزمن وتستمر الفحوصات دون جدوى إلى أن قام بزيارة رئيس قسم الصدر بالمشفى وبالحديث معه فطن أن دعبس يعاني أزمة نفسية، فهو لا يريد العودة إلى المنزل أو الخروج إلى الحياة

احتاج دعبس إلى طبيب نفسي

تم تشخيص ما به على أنه اكتئاب وجداني نتيجة صدمة نفسية، لم ينتبه لها ولكنها كمنت بداخله سنين وكان يتحتم علاجها في حينها, اندهش الأطباء أن هذا النوع من المرض ينهي على صاحبه في سنوات معدودة إذا أهمل العلاج فكيف بهذا الشاب الذي عانى هذا الأللم سنوات دون أن يأنو كان يقوم بأنشطة ومحاولات للخروج منه دون أن يلتفت إليه أحد قط لعل إصرار دعبس على تحقيق شيء ما هو طوق النجاة الذي أنقذه من فتك هذا المرض به

بدأ دعبس في جلسات العلاج السلوكي عند طبيبه النفسي التي

كانت مدتها ٤٥ دقيقة وعددها ٨ جلسات انتظم دعبس أيضًا على العلاج الدوائي الذي كتبه الطبيب
كانت تنتابه الشكوك في إمكانية نجاته من هذا الاكتئاب المزمن ولكن بحديثه المطول مع طبيبه اكتشف أشياء لم يكن يعلمها عن نفسه وعلاقته برنا
حدثه الطبيب بأن الطامة الكبرى التي وقع فيها دعبس هي عدم ترك روحه كي تُشفى أو تتحمل الألم في رجولة بل ترك لها الانغماس مرة أخرى بالحياة وهي مشوهة تمامًا فكيف بهذا النقص والتشوه أن يخلق جمالًا ونجاحًا
أخبره أيضًا أن علاقته برنا يجب أن يقبل نهايتها هكذا لا يعافر أو ينكر ويتوقف تمامًا عن التحليل لأنه لن يصل إلى شيء سوى استرسال في أفكار سلبية تزيد الاكتئاب وأنه أضاع الكثير من عمره في حالة الإنكار وانغمس فيها, بدأ بالفعل شعور دعبس بالتحسن يزداد بعد بدء العلاج بثلاثة أشهر حتى وجهه تغير تمامًا لأول مرة منذ أعوام أصبح مضيئًا كالذي تخلص من مس شيطاني أو نوبة صرع.

* * *

مضى عامان من المماطلة من قبل الشركة الأم بإرسال المستحقات المالية لد سامي علم الدين, وأخيرًا وصل الرد الحاسم من الشركة

بعدم أحقية د سامي لباقي مستحقاته أو أي نوع من المكافأة نتيجة فسخ العقد المبرم بينهم بناءً على استقالتة دون سابق إنذار مع إخطار الشركة لجميع فروعها بعدم التعامل مع المذكور نهائيًا تحت أي مسمى وظيفي ومخاطبة هيئة الملاحة الدولية لتجريده من لقب كبير أطباء أعالي البحار.

كانت آمال د سامي عريضة في حصوله على حفنة أخرى من الدولارات كي يستقيم الحال الذي بدأ في الاهتراء بالفعل بسبب طول مدة بقائه بلا عمل وصرف مبالغ كثيرة في علاج والديه وشراء احتياجاته الخاصة ولكن الصدمة الكبرى هو تجريده من لقبه الذي حصل عليه بمجهود سنوات طويلة ومن ثم عدم أحقيته في مزايا هذه الرتبة أو المسمى الوظيفي وإذا فكر للعودة للبحر مرة أخرى سوف يبدأ من جديد بلا تاريخ يذكر.

اضطر د سامي إلى بيع سيارته الجديدة والعوده مرة أخرى إلى السيارة ماركة (الفيات ١٢٨) مع ضحكات الأسطى شوقي الخبيثة على سرعة دوران الزمن والعودة إلى سيارة العوام من الشعب وكأن القفزة التي غيرت حياة د سامي كانت فقط في الهواء بلا أرض تطأها قدماه للثبات فهوى سريعًا.

بدأ د سامي رحلة البحث عن العمل, اعتقد أن ذكر لقب كبير أطباء أعالي البحار سوف يشفع له في الالتحاق بوظيفة مرموقة بأحد المستشفيات الخاصة التي انتشرت حديثًا, لم يعد بإمكانه

فتح عيادة حتى ولو في الأرياف نتيجة عدم حصوله على تخصص معين في مجال الطب فهو بالرغم من تخرجه منذ أكثر من ١٥ خمسة عشر عامًا لا يزال حتى الآن ممارسًا عامًا, بينما السبب الأدعى من ذلك أنه لا يتحمل نفسيًا أن يعامل كخريجي الجامعة اللذين لا يزال حب الشباب تاركًا أثرًا على وجوههم وهو كبير أطباء أعالي البحار سابقًا وتحت إمرته عدد لا بأس به من الطاقم الطبي للمركب.

ما كان يرضيه هو العمل كمدير وأن يستشعر متعة القيادة مرة أخرى اكتشف أن الطريق لا يزال طويلًا أمامه إذا أراد أن يصبح من الأطباء اللذين يشار لهم بالبنان واعتقد أيضًا أن شروعه في تكملة الماجستير ورسالة الدكتوراة هو درب من دروب الخيال لأنه بهذا الشكل يحتاج إلى عشرة أعوام أخرى بل عمر آخر.

بدأ بإرسال السيرة الذاتية إلى المستشفيات الخاصة، ولكن تحديده للمرتب المتوقع كان هو المعضلة، فهو لا يتناسب مطلقًا مع خبرته القليلة في المجال حتى وإن حمل لقب كبير الأطباء

اتصل بمعظم الأصدقاء من الدفعة وأخبرهم باحتياجه إلى وظيفة في أقرب فرصة لأنه قرر أن يستقر أخيرًا في الوطن فمنهم من تحمس له والبعض الآخر تملص منه بحجة أن كل الوظائف المتاحة لا تناسبه الآن مطلقًا وتحتاج إلى أطباء حديثي التخرج فلجأ إلى الورقة الأخيرة لديه التي كان يدخرها إذا تأزم الموقف

في البحث عن العمل وهو الاتصال بابن عم والده الذي يشغل منصبًا في أحد أجهزة الدولة وقريبًا جدًا من دوائر صناعة القرار كان رد العم في غاية اللطف وأخبره أنه من دواعي سروره أن يخدم أقارب الدم الواحد وأنه سوف يبعث السائق الخاص لإحضار السيرة الذاتية, وعمل الإزن لإلحاقه بوظيفة مرموقة في القريب العاجل

مر يومان وتلقى بالفعل اتصالًا هاتفيًا من رقم غريب

دسامي علم الدين

أيوة يا فندم

حضرتك إحنا محل أسماك قدورة, ولاقينا السيرة الذاتية بتاعت حضرتك هنا متسابة جنب منيو الطعام الظاهر حد نسيها أو بالأصح رماها هنا لأنها عليها بذر ليمون, فلو حضرتك عايزها ممكن تيجي تخدها من عندنا

اندهش د سامي من تلك المفارقة التي تشبه إلى حد كبير أفلام نجيب الريحاني التي يتجللى فيها الكوميديا السوداء ولكنه فطن أن الواسطة الوحيدة التي سلمها السيرة الذاتية تركتها عن قصد أو غير قصد في المطعم دون اهتمام

شكر د سامي المتصل وأخبره بتمزيق السيرة إلى قطع وإلقائها في القمامة

ضربات القدر تلاحقه تباعًا لعله الامتحان الذي يأتي لبني البشر

بعد اتخاذ القرارات المصيرية، ولكن د سامي كان مستوعبًا للأحداث جيدًا وتعلم الجلد عند تطلم الأمواج وحكمة أخرى استخلصها لنفسه من مجريات حياته أنه في أوقات كثيرة من حياتنا يجب أن نترك الأمر للقدر وتنتظر تبدل الأيام وتدخل العناية الإلهية

جلس د سامي في خلوة ليلًا يناجي الله تعالى بكل ما شغل باله وقلبه, كان يبث حزنه إلى الله تعالى ويستغفره ويذكره كثيرًا حتى أنه كان يغيب عن الدنيا للحظات في نفحات من الاتصال بالله, لم يجد ذلك غريبًا، فكل الأديان التي شغف بمتابعتها على مر ١٠ أعوام هي رحلته عبر البحار كان أهم ما فيها هو استشعار القرب من الله والبعض من إلا دينين يطلقوا عليها مسميات كثيرة مثلًا القرب من مصدر الطاقة العظمى أو الأعماق الداخلية وكثيرًا من الاجتهادات ولكن لخص العابدون وأهل التصوف تلك الحالة في الأنس بالله فلا يعرف الإنسان تلك النعمة سوى في الشدائد عندما يخرج من القلب أصفى الدعاء وأكثره صدقًا وتضرعًا.

* * *

في هذا الجمع لا يلتفت أحد إلى المظهر إطلاقًا لن ينعتني أحد باسمي الهزلي (نوفل) تهكمًا تحفنا الملائكة التي تتأزى مما يتأزى منه الإنسان, الإخوة هم الرعيل الأول لمشاهير الدعاة الجدد

أصحاب الهمة العالية والفكر الهادئ, الهم هنا هو هم الآخرة فقط والوجوه تمتلئ بالسماحة
كان ميدو في أشد الحاجة إلى أن يقف مرة أخرى على قدمه ويطوي مرحلة من مراحل حياته الحرجة بالانتماء إلى شيء أو مرافقة أصدقاء أو السعي نحو هدف جديد فلجأ إلى مجالس العلم التي تعقد بشكل دوري داخل أروقة أحد المساجد, حافظ على الحضور شهر تلو الآخر إلى أن بدأ بالتفكير والشك هل وجوده في تلك الحلقات نتيجة هروبه من مواجهة الحياة واستسلامه لها, أم عليه أن يتحصن ويحتمي بتلك المجموعة كاحتمائه بأمه أبان الطفولة خوفًا من غادرات البشر.
استطاع أن يتعلم ترتيل القرآن سريعًا وكان لصوته الرخيم تأثير كبير في مستمعيه وفي أحيان كثيرة تنهمر الدموع خلفه خشوعًا وتأثر بصوت القارئ الرائع
ولكن عشية الثلاثاء الميعاد اليومي لمجلس العلم, لم يستطع ميدو استحضار قلبه مطلقًا فعلل ذلك بكثرة الذنوب ولكنه بالفعل بدأ يستشعر أنه يريد تعلم الدين للوصول إلى الله في النهاية وليس عادة أو صيحة جديدة يهتم بها الشباب ويعود غريبًا عنها مرة أخرى, ميوله كانت تختلف عن الآخرين في تحقيق هدفه من مجلس العلم مما أدى إلى صدام في النهاية
وجد أنه كل ما يُلقى على مسامعه من الداعية الشاب هو

نوع من الأوامر التي في اتباعها الحصول على عدد من الحسنات والنواهي التي بارتكابها يحصد السيئات وهو مجرد متلقي فقط وإذا ناور بنوع من أسئلته الفلسفية لا يجد إجابات شافية أو حاضرة في ذهن الشيخ الداعية

تململ ميدو من منظور الدين على أنه وسيلة مكونة من أرقام حسنات أو سيئات تأول في النهاية إلى نجاح أو رسوب ظهر في عينيه الضجر فسأله الشيخ طارق عن سبب ضجره بريبة فما كان منه إلا النهوض من المجلس وارتداء الحذاء وتوجهه صوب باب الخروج يتمم ببعض الكلمات

أنا هنا جاي أدور على قلبي لكن من الواضح إنكم اختزلتوا الدين الواسع في منظور ضيق وأعتقد إن الدين أكبر من الحصر في زاوية واحدة فقط أو منظور ضحل

نظر له الإخوة متحفزين وهمم بعضهم أن يسمعه بعض الأحاديث للهداية واستحلفه الآخرون أن يستعيذ بالله من الشيطان ويجلس ليستمع فما كان من ميدو سوى أن يتركهم إلى غير رجعة

تغير سمته الذي يعطي الهوية الإسلامية تدريجيًا حتى ظهر حليقًا بعد عام من إطلاق لحيته وعاد إلى هوايته القديمة التسجيل الإذاعي ووجد ضالته في التأمل كي يصل إلى ما يريده قلبه وأن ينهل من القراءة الحرة عن شتى علوم الدين والفلسفة الإسلامية.

وامتدت جلسات التأمل داخل شباك منزله الفسيح وتبلورت إلى منظور فلسفي, كان مقتنعًا أن الهدف من العبادة الوصول إلى الله عن طريق القلب في النهاية فبدأ بتأمل عباده من الوجوه التائهة في مشاوير الحياة فبدأ برصد الشارع وكأنه لوحة فنية أو جزء من رواية لنجيب محفوظ

بائع غزل البنات ونفيره المحبب إلى القلب يمشي على رصيف فيلا الكيال, بجواره مجموعة من الفتايات خارجين للتو من الحصة الأخيرة مبتهجين بانتهاء اليوم الدراسي

يقف في التقاطع عم أحمد صول المرور ينظم اندفاع السيارات ويلتقط قلمه الجاف من خلف أذنه ويهدد السيارات بتدوين المخالفات ولا يفعل كعادته

بنزينة مصر للبترول على اليمين يقوم عم جمعة بغسل السيارات وفي فمه تتدلي سيجارته الكليوبترا التي لا تفارقه يلقي عليه السلام حسن النجار حامل غذاء اليوم من كشري ستو وينتظره صاحب الورشة ويبدأ في سبه على التأخير

يركن أستاذ علي سيارته ويتأكد من غلق مرآة الشمال عائدًا من يوم عمل مرهق في وزارة الإسكان ويبتسم إلى زوجته المتوارية خلف الشيش في شوق.

سأل نفسه كثيرًا كيف يعيش عم أحمد الصول وجمعة عامل البنزينة وحسن صبي النجار عمرهم هكذا لما لم يفكروا هؤلاء

في تغيير أي شيء ولو حتى الملابس سأم من بنطال حسن البني وبدلة جمعة الزرقاء حتى من كاب أشرجي المرور باهت اللون كيف يصنع الإنسان الأمجاد ما الفرق مثلًا بين والده الموظف البسيط في الحكومة والمهاجر إلى الخليج وبين من خلدهم التاريخ.. أهي الإرادة فقط أم هو القدر عدة تساؤلات شغلت ميدو يريد أن يحظى لها بإجابة شافية

فاختصارها من وجهة نظره في ثقافة القطيع أو الهاموش

دائرة كبيرة أو فسحة يجب أن تكملها إلى النهاية حتى لو كرهت كل ما فيها فقوتها تدهسك وإذا تركتها شعرت بالغربة والفشل وهرعت إليها تحتمي وهو نوع من التعود وعدم الرغبة في التغير أو الترقي وحالة من عشق الكسل

والهاموش لا يرتبط كثيرًا الوضع الاجتماعي فمن الممكن أن تصل إلى أعلى الوظائف وأنت أيضًا هاموشي الهوية لم تفعل أي شيء تحب أو تضيف أي قيمة للحياة وقد تكون عاملًا بسيطًا ولكن مبدع ومبتكر فيما تعمل كصناع التحف أو عازفي الكمان في الفرق الموسيقية

الفلسفة هي حب الحكمة, تذكر ميدو عندما كان يوجه تلك الأسئلة إلى أستاذ مصطفى إسماعيل مدرس الفلسفة والمنطق الذي كان له كبير الفضل على تشجيع ميدو على التفكير وكان ينعته بالفتى الذهبي

وبنزول ميدو إلى سوق العمل أضحى أصغر مدير لإدارة الأزمات والمخاطر لفرع شركة دولية حديثة التواجد بالسوق المصرية أعطته وظيفته الكثير الذي يطمح معظم أبناء جيله في أن يحصل عليه ماديًا واجتماعيًا أيضًا فاختلاطه الدائم بزملاء العمل خريجي الجامعات الأجنبية أتاح له الاطلاع على ثقافة الطبقة العليا من أبناء الوطن وتنمية قدراته

في كل اجتماع يسرح ميدو بخياله ويرتدي البلوفر الشتوي الرصاصي اللون ويغير من نبرة صوته ويمسك بسيجارة ويبدأ في شرح حالة الشركة وتحليلها يتقمص شخصية أستاذ الفلسفة ويسأل الحضور, تمنى ميدو أن يصبح معلمًا مربيًا لأجيال وعشقه للتحليل بشكل منطقي جعله ناجح جدًا في مجاله حتى أنه كان يبهر شركاء العمل من الأجانب فهو في الحقيقة محلل جيد وموظف مجتهد ولكن في الخيال هو أستاذ مصطفى إسماعيل مدرس الفلسفة

أصبح ميدو ينشد التفوق فقط لا غير, استطاع في سنوات معدودة منذ التحاقه بالشركة أن يتعلم كل شيء له علاقة بمجال تخصصه أو حتى بعيدًا عنه, تعلم اللغة الإسبانية وأجادها تمامًا بجانب اللغة الإنجليزية التي أتقنها, لم يترك دورة تدريبية إلا والتحق بها أو اجتماعًا إلا وهو حاضر فيه وأصبح صاحب كلمة مسموعة في حقل العمل بينما علاقاته الاجتماعية أصابها الوهن والفتور فهو بلا صديق حميم بل لا يسعى أبدًا إلى ذلك وكأنه اكتفى

بإخفاقات التجارب الجامعية وتركت لديه انطباعًا سيئًا عن نفسه بأنه شخص غير اجتماعي أو استسلم لفكرة الانطوائية حتى لا يعرض مشاعره للامتهان حتى الصحبة الصالحة استشاطوا منه غضبًا وأصبح لا سبيل للتنفيس عما بداخله سوى أمه التي تعتبر واحة أمانه وهروبه من المواجهة

ألف الذهاب إلى السينما وحيدًا لعشقه للفن بصفة عامة، تغافل عن أنه حتى وإن كان الفيلم يستحق المشاهدة، فأكثر ما يعطي تجربة السينما مذاقها الفريد هو الصحبة والشد والجذب تعقيبًا على الأحداث والتدخين في الاستراحة مع شراء الفشار بالعسل, لكن ميدو يصاحب نفسه فقط ويهون عليها بالدخول في أحداث الفيلم فقط والتعمق فيه وكأنها ليست نزهة أو حالة من حالات الترفيه عن النفس بل أخذها كنوع من مهام العمل المكلف بها, فدائمًا تختلط عليه المشاعر ولا يوجد حد فاصل ما بين الجد والهزل يتأمل بهجة الأوجه وتشابك الأيدي بين المحبين في صمت تنغزه المشاعر يحجمها ويتجاهلها فيعود حزينًا وكان هدفه في الأصل السعادة.

* * *

خصر مريم يزداد جمالًا يومًا تلو الآخر، الكل يعلم أنها جميلة، وكلما تقدم بها العمر أخذت الأيام من براءتها كطفلة تجلس

بجانب أمها لتساعدها وتزيد من أنوثتها كفتاة في ريعان الشباب وكأن هناك علاقة عكسية ما بين البراءة والأنوثة

عقب حادث فيلا الكيال صارعت بدرية الشهيرة بأم مريم بعض من الشحاتين والدهماء لاحتلال مكان جديد أو فرشة لبيع الجرائد وقصدت ناصية مهمة على شارع القصر العيني أمام مجلة روزلاليوسف

يزور الفرشة كل يوم الكثير من الخطاب راغبي الزواج من أول سائقي التاكسي إلى حموا صبي القهوة شعرت أم مريم في لحظات كثيرة أنها لا تمتلك مجرد ابنة يجب تزويجها وسترها بل شعرت أنها تمتلك صفقة يجب أن تنهيها فائزة لعل جمال مريم وأنوثتها الطاغية تكون لها حسن خاتمة أو عوضًا عن أيام مليئة بالشقى

مريم لا يعلم أحد بأنها بشر من الممكن أن تمتلك أحلام وتسعى لتحقيقها لم تكترث كثيرًا بأنها أصبحت فاتنة بل سعت في أحوال كثيرة أن تشوه هذا الجمال بارتدائها ملابس أمها الواسعة أو الكاب الرجالي الذي يخدع الكثير عن بعد في كونها ذكر أم أنثى, تريد أن تنهي الدبلوم بمجموع أكثر من ٩٠٪ كي يتثنى لها الالتحاق بكلية الفنون الجميلة

كيف في ظل كل هذا الصراع والإحباط والشقى اليومي أن لا تنسى هدفك أبدًا أو ما تريد ولا تأخذك دوامة الحياة إلى حيث ما تريده لك, الفتايات الأكثر حظًا من مريم على الأقل وجدوا في

حياتهم من يحثهم على النجاح وتفاني الأهالي في توفير كل وسائل الراحة للأبناء كي ينجحوا, مريم فقط هي التي تحمل حلمها في قلبها وتغذيه من الرضا ولا يشعر بها أحد

وفي يوم ظهور النتيجة، كادت مريم من الفرحة أن تعانق نجوم السماء وموظفي شارع القصر العيني ووقفت عند باب جمعية محبي الفنون الجميلة القريبة من فرشة الجرائد وقامت بتوزيع الشربات

جلست بجوار أمها على الفرشة ليلًا في حالة من الفرح والنشوى بنجاحها تحدثها عن خططها المستقبلية والتحاقها بالتعليم الجامعي وسعيها بأن تصبح مدرسة للرسم تعلم الأطفال وتنشر رسوماتها في معرض الجمعية وأماكن أخرى مشهورة

جلستها على فرشة في شارع القصر العيني واحتكاكها المباشر بأبناء حي جاردن سيتي الراقي ومثقفي وسط البلد وكثير من الروايات والكتب التي كانت تسليها ليلًا جعلوا لها طابعًا خاصًا وثقافة فريدة ووعيًا لاستشراف المستقبل, هكذا أدركت أمها ولكنها لم تعجز عن جرها نفق آخر من الأحلام بالزواج من رجل ثري يستطيع أن ينتشلها من كبوة الحياة وقسوة لقمة العيش

وحتى لا تتمادى مريم في إحساسها بالزهو قامت أمها بالاعتدال في جلستها على الكرسي الأبيض فبرز من الجنبين المفتوحين للكرسي أجزاء من مؤخرتها كبيرة الحجم وبدأت في تغيير نبرة

صوتها إلى الحنان المصتنع وأخذت تحدث ابنتها على أنها تمتلك من الإمكانات الجسدية ما يجعلها تجلس تضع ساقًا أعلى الأخرى وتختار ما شاءت من الرجال علاوة على جمالها الأخاذ الذي يحكي عنه الشارع كله حتى الزبائن كثيرًا ما مدحوا جمالها, وأنها يجب أن تقوم باستغلال هذا الجمال في الإيقاع بأفضل عروض الزواج وضربت أمها أمثلة من بنات الشارع الفقراء اللائي أضحين أغنياءً من زيجة ليس أكثر وآخرهم هيام بنت عطوة المكوجي التي شاهدها مصادفة مخرج لمسرحية كانت تعرض على مسرح السلام فتهافتت عليها الأدوار وتزوجت ثريًا عربيًا واعتزلت الفن وتسكن الآن أحد القصور في المقطم ولديها الكثير من الخدم والحشم, كانت تحاول بكل طاقتها أن تستفز حرمان ابنتها لكي تزعن لرغباتها في تحقيق الثراء من خلالها

بدأت مريم بالتفكير في كلام أمها فكثيرًا ما كانت تنتظر صدور مجلة إسبلاش الشهرية التي تصور حفلات الأغنياء في الساحل الشمالي وتأخذ العدد الشهري من المجلة معها إلى المنزل تقف أمام المرآة وترتدي لاباس البحر (المايو) الذي قامت بشرائه من رصيف وكالة البلح بمبلغ ٣٠ جنيه بعد فصال طويل مع البائع الذي أقسم لها أنه لولا المعرفة، ما باعه بهذا الثمن مطلقًا وتقوم بغسل شعرها وتركه حتى يجف ليأخذ الشكل المتعرج (الكارلي) وترتدي إسورة نحاس في يده أو خلخال معدني صنعته من مخلفات

حقائب اليد الحريمي؛ لتصبح شديدة الشبه بفتايات الساحل الشمالي وتبدأ في عمل مقارنة بينها وبين جميلات الشاطئ الذي تتهافت عليهم العدسات لالتقاط الصور فتجد نفسها تفوقهن سحرًا وجمالًا

ولم لا هكذا قالت لنفسها بعد أن لمعت الفكرة في رأسها أهو قدر الفقراء أن يشاهدوا البحر والشاطئ في صفحات المجلات فقط وإلى متى لا أستطيع سوى لعب دور أدنى من كومبارس السنيما في الحياة, أين البطولة من فقري هذا ولكنها بطريقة خادعة حاولت أن تبعد فكرة الإذعان لرغبة أمها في الوقت الحالي فبداخلها حقًا صراع لم تحسمه قط بين أن تكمل تعليمها وتلتحق بالجامعة وتحقق حلمها البسيط أن تصبح فنانة وقطعًا يحتاج الحلم إلى كفاح وصبر وشقى لتحقيقه وفي النهاية لم تطمح في أكثر من موظف حاصل على دبلوم أو صنايعي كسيب أو ترضخ لكلام أمها وتنتظر الصيد الثمين والسلم الكهربائي الذي سوف تصعد عليه دون عناء بالغ

ولكنها وجدتها فرصة في الهجوم على أمها مجرد الهجوم وانتقاد كافة أفعالها فإذا كانت تلك الأم على هذا القدر من الحنكة الحياتية، فلما لم تقم هي بنفع نفسها فهي لم تتزوج الغني ولم تستغل جمالها ولا قوامها الممشوق الذي كان, فتغير تعبير وجهها من البراءة والتفهم العاقل لصوت الأم الحكيم إلى وجه الفتاة

الشرسة التي تفزع زبونًا ليليًا سئيلًا ومتحرشًا.
هاجمت أمها بشراسة وارتفع صوتها عاليًا لأمتها حتى على الزواج بأبيها العاطل الذي يقضي ليله في سطل تام, نهرتها على إصرارها على أن ترسم لمريم نفس الطريق الخائب قليل الأحلام كثير التمني فتسلحها الآن بالشهادة علاوة على التثقيف الذاتي من كتب الرصيف جعل لها بصيرة صادقة وسعي نحو بلوغ هدفها الصغير في أن تصبح رسامة تباع لوحتها وتناطح شهرتها النجوم اللامعين.
 قرأت كثيرًا عن فقراء غيروا التاريخ فأرادت أن تصبح من هؤلاء وأخفت في دهاء شديد اقتناعها بقدر كبير من كلام الأم الذي إن صدق فلا مانع أبدًا في أن تتخلى عن حلمها الذي من الممكن أن يؤجَل حتى إشعار آخر
لم تستطع أم مريم استيعاب كلام مريم المرتب بعناية وكأنها معلم يحاضر طلابه بطلاقة، وعجزت أمها عن تفسير كلامها العميق عن الأحلام ومعارض الرسم, فسكتت عن الكلام وأدمرت في نفسها خطة الإيقاع بها التي تعلمتها بل تمارسها يوميًا وشاب فيها شعر الرأس وجلست تستمع واجمة إلى أن تنتهي مريم من الدرس.
كانت تريد أن تقول لمريم إن القدر هو الذي رسم لها هذا الطريق فتعلقها وحبها الشديد لشاب كان في يوم من الأيام يحمل كل معاني الرجولة واعتقدت فيه أنه هو طوق النجاة

لأنه كان يعشقها, ولكنه لم يتحمل صفعات القدر فخارت قواه وأصبح من زوج حنون إلى زوج مفرط في قوامته كرجل فمنذ أن عاد من العراق قبيل الحرب خلد إلى المنزل لا يتركه ولا حتى يريد أن يعمل هانت عليه بناته وزوجته التي ردها إلى فرشة الجرائد مرة أخرى كي تدبر مصروفات الحياة وتلعب هي دور الرجل والمرأة ويكتفي هو بتدخين السجائر طول اليوم ومتابعة دوري كرة القدم أو سماع إذاعة القرآن الكريم والبكاء دون سبب واضح، ولا مانع أيضًا في سف شريط إيفانويل آخر الليل والغوص في غيبوبة لا يريد أن يفيق منها, تنهدت بحسرة على أماني الماضي التي لم تتحقق وكأن الدنيا ليست أرضًا خصبة صالحة لإنبات الأحلام وازدهارها كما اعتقدت في ربيع العمر.

نظرت أم مريم لابنتها نظرة تعبير عن الغدر وزحزحت نفسها من فوق الكرسي فتوقفت مريم واستعدت لمواجهة موجة من الغباء العنيف, خلعت أم مريم نعلها في مهارة شديدة وصاحت بصوت مسموع للجميع

بقولك إيه يا بت إنتي إنتي غاوية فقر زي أبوكي اخرسي خالص علشان مخليش الشبشب يزغرط على وشك يا بنت الواطي

* * *

لم يتخيل د سامي نفسه ممسكًا للقلم البيك ويقوم بشرح

معادلات الكمياء لطلبة الثانوية العامة, تلك المجموعة التي استطاع تكوينها عن طريق أخته نيهال التي تحدثت مع بعض أولياء الأمور في مدرسة ابنتها عن تفوق أخيها الطبيب في تدريس تلك المادة, حقق د سامي نجاحًا مبهرًا في شرح المادة من الناحية العلمية وذاع سيطه بين الطلبة ولكن عند الامتحان لم يمتلك حنكة المعلم المخضرم الذي يستطيع أن يتوقع الأسئلة المكررة في الامتحان للعام الحالي, كان مبدئه بين الجميع أنه يقوم بشرح الكمياء كمادة علمية فقط لمن يريد أن يتعلم أو يعي وهذا المنطق يتنافى تمامًا مع ما يريده الطلبة، فكل همهم فقط هو اجتياز الامتحان وبعد الامتحان فلتذهب الكمياء برمتها ومن يدرسها إلى الجحيم، فسرعان ما عدل عن تلك المهنة واكتفى بتمني التوفيق للطلبة دون أخذ أجر الشهر الأخير.

أصبحت كل الوظائف المتاحة بعيدة تمامًا عن أحلامه برمتها هي فقط ليحصل على المال كي يعيش مما كان له كبير الأثر في تأجيل فكرة الزواج والإنجاب حتى إشعار آخر

وجد أنه يملك أيضًا شيئًا آخر بخلاف الطب وهو اللغة، فالكثير يعتمد على إتقانه للغات في سعيه نحو كسب الرزق، فكانت الإنجليزية التي يتقنها تمامًا والفرنسية التي يستطيع أن يجري بها محادثة معقولة قد تؤهله للعمل في مجال السياحة

فالتحق بالعمل في شركة سياحة كمرشد سياحي في مدينة الأقصر

وأسوان لمجموعات السياح التي تأتي لتستمتع بشمس الشتاء وآثار الحضارة الفرعونية, فبرع في عمله وأجاده تمامًا، فكان السياح ينبهرون بشخصيته القوية في مرونته وثقافته الواسعة وقراءته المتقنة للتاريخ والجغرافيا علاوة على كونه طبيب أيضًا يهرع للمساعدة في حالة وقوع أي مكروه

سأله الكثير منهم كيف كونك طبيب وتعمل كمرشد سياحي, في بعض الأحيان كان يناور في الإجابة والبعض الأخرى يحكي قصته من البداية إلى الآن في أسى, ولكنه دائمًا لا يحب أن يرى نظرات العطف على حاله من أحد بل يفتخر بنضاله وكونه إنسان فقط لا يمد يده إلى الغير.

استمر في العمل بشكل ناجح وتوطدت علاقته ببعض السياح الأجانب اللذين أشادو بإخلاصه وتفانيه في عمله وأنه الوحيد من بين الجميع الذي لا يقوم بأي نوع من أعمال الابتزاز أو النصب عليهم بل هو واجهة مشرفة للسياحة المصرية

أحب د سامي تلك الوظيفة، فهي تتيح الحرية الكاملة في اتخاذ القرارات فهو الذي يضع برنامج رحلاته من وصول الأفواج إلى مغادرتها والأنشطة التي سوف يقوم بها السائح وأماكن شراء الهدايا التذكارية أيضًا

وفي يوم توديعه للفوج السويدي، طلب منه أحد السياح الذهاب معه لشراء مجموعة من السجاد والكليم المصري، فاصطحابه

د سامي إلى بيت السجاد العربي، وقام السائح بشراء أغلى أنواع السجاد اليدوي فتجاوزت عمولته هذا اليوم أكثر من ٢٥ ألف جنيه أخذهم من المحل مباشرة في سعادة غامرة

وردت تلك الحادثة إلى صاحب شركة السياحة الذي أصر على أن يتقاسم المبلغ مع د سامي فله الثلث وللشركة الثلثين فرفض د سامي هذا الابتزاز الجائر وأخبره أن المبلغ كله من حقه

فما كان من صاحب الشركة سوى رفده من العمل وإطلاق الشائعات حوله بأنه لص ونصاب مما أدى إلى دخول د سامي مرة أخرى إلى المربع صفر والعوده مرة أخرى الجلوس في بلكون المنزل وحيدًا

طالت فترة الانتظار تلك المرة إلى عام كامل بلا وظيفة وأصبح اليأس هو الضيف الثقيل الذي يقف على بابه كل يوم بلا كلل أو ملل لعل دسامي يركن إليه أو يكف عن المقاومة نهائيًا وتخور قواه

ولكن مشهد فيلا الكيال هو المصل واللقاح المضاد لليأس، فعندما ينظر إلى الفيلا أثناء جلاساته التي طالت انتظارًا للفرج كان هناك صوت داخله يوقظه, يخبره أن حل مراد الكيال لمعضلة حياته كان سهلًا ولكن هذا هو العجز التام, وأن الله تعالى يلوم على العجز والقنوط واليأس من رحمته وأن الدنيا هكذا فهي ليست ليلة صيفية هاربة من أغاني السيدة فيروز.

ولأن لكل مشاهد الحياة سبب فلربما دور البطولة الذي قام به في مشهد رحيل مراد الكيال, كان حكمة من الله كي يستعين بالصبر في تلك اللحظات العصيبة من حياته حيث لا عمل أو زوجة أو أبناء والأقصى من ذلك ليس غياب الأمل فقط بل عدم الثقة في الأسباب البشرية المتاحة لتحقيق الآمال مثل السعي والاجتهاد وتنمية المهارت، فكل ذلك يضيع ويختفي ويتلاشى أمام إمضاء أو تأشيرة من رجل أعمال أو آخر صاحب نفوذ وتبًا للكفاءة والمؤهل العلمي وكل هذا الهراء وفي خضم هدير أحاديث الذات تداعب قطة صغيرة أولادها في فناء الفيلا ويتابع د سامي المشهد مبتسمًا بينما أخذه حلم جديد, وهو الالتحاق بوزارة الخارجية وتمثيل الوطن كملحق دبلوماسي في الخارج

بدى وكأنه نوع من أحلام اليقظة التي كانت من حكمة الله ورحمته لعباده لتخفيف وطأة الواقع المرير, فارتدى د سامي البدلة الإسموكينج ووقف في بهو السفارة المصرية بلندن يستقبل الزوار كملحق دبلوماسي, حلم جميل يعززه خبرته في التعامل مع الأجانب وكسب ودهم والتعرف على ثقافات مختلفة من خلال عمله في البحر والسياحة وكونه طبيب أيضًا سوف يتيح له الأفضلية في التعيين, الله الله

غادرت القطة الأم على أحد صغارها مما دعى د سامي يفوق من حالة الشرود على مواء القطة الأم, التي أحكمت قبضتها بفمها

على رأس القطة الصغيرة وضربتها بكلتا القدمين جانبًا كمشاهد المصارعة الحرة, زاد مواء القطة الصغيرة فتركتها أمها والتحم الصغار مرة أخرى مع الأم التي استسلمت لعبثهم الطفولي

ارتاح د سامي لعودة القطة إلى غريزة الأمومة بعد لحظات الغدر وأخذ يتفحص الفيلا بعناية, الأيقونات الحجرية فقدت ملامحها تمامًا وتحولت الحديقة إلى جرداء بينما الجيد هو توقف الأسطى شوقي عن إلقاء القمامة داخل الفناء

أين إطار الشبابيك الخشبي الجميل فمن الملاحظ أنه تم سرقته, استغرب أيضًا من شكل السلالم فهي تبدو حزينة سوداء دقق النظر فاكتشف سرقة رخام السلالم الإيطالي اللامع ذي الأركان الرمادية الغامقة المطعمة برتوش من اللون الفضي التي تبرز جمال لونه العاجي, أدرك أن هناك نوعًا من السطو الممنهج على الفيلا بالليل أو في الخفاء فتحفز لكشف الأمر بينما خلدت القطة الأم في ثبات عميق تحتضن صغارها.

* * *

جمعية محبي الفنون الجميلة بجاردن سيتي الحي الراقي الذي ما زال يحتفظ بوقار الماضي الجميل يترجل ميدو فيه دائمًا بعد زيارة خاله القاطن أعلى محل لوبيك سكرية صاحب أشهر صورة كرتونية طُبِعت في ذهنه لمنقار طائر الطوقان الطويل

بوابة كبيرة على طراز الأربعنيات وحديقة تحتوي على مجموعة من النباتات النادرة, في الغالب هذا المكان تبرع به أحد باشاوات الزمن البائد عشقًا للفنون ولكن في هذا اليوم لطخ صور الجمعية شعارات حزبية لقطب من أقطاب السياسة كدعاية انتخابية.
قوة ملاحظته سريعًا جعلته يقارن بين الباشا الذي كان يملك قصرًا جميلًا، فتبرع به والباشا المزيف الذي لم يفعل شيئًا للوطن سوى الاستفادة من منصبه مع أنه يملك القدرة على النفع ولكن الآن يهتك جمال المكان بشعاراته الفجة.
يتفحص اللوحات الجديدة التي تم ترتيبها بعناية كل فصيل على حدى، فهناك قسم للفن التشكليي وقسم آخر للرسم بالزيت وقسم للنحت
أغلب الزوار من الأجانب أو الباحثين وطلبة الفنون الجميلة ولا مكان لأبناء الوطن الأصليين؟ استغرب لعدم وجود مثل موظف مهتم بالفن أو رجل أعمال أو حتى عابر سبيل وكأن الكل في صراع على لقمة العيش فقط الغني والفقير والاستمتاع بالجمال هو من رفاهيات هذا العصر أو من أكاذيب الماضي قل ما شئت.
في نهاية جولته، انتبه لموقف غريب مجموعة من الطلبة يلتفون حول فتاة... فذهب من باب الفضول ليلقي نظره, فوجدها فتاة غاية في البراءة وجهها صبوح ومشرق عيناها واسعة حوراء وأنفها دقيف وبشرتها وردية اللون ترتدي ثيابًا بسيطة وفقيرة وحجابًا

للرأس تتدلى منه خصلة من شعرها الأسود الداكن وتحكم قبضتها على لفافة من جرائد اليوم مما يجعل خصرها الممشوق مائلًا قليلًا ناحية اليسار وهناك حوار يجري وضحكات من حولها فاقترب أكثر ليسترق السمع.

بقى إنتي بتحبي الرسم

آه والنعمة بحب الرسم حتى أنا برسم الأطفال الصغيرين وأزين بصورهم الحيطة

فيضحك الغالبية ويباغتها آخر بسؤال يعني عايزة تبقي رسامة أو فنانة وكمان عايزة تخشي كلية فنون جميلة إنتي أصلًا خدتي الإعدادية؟

فينفجر الجميع في الضحك ويستمر الشخص ثقيل الظل في أسئلته الفجة

طب وهتعلقي رسمك دا على فرشة الجرايد

فتشعر بالحرج وتمسك بالجرائد جيدًا وتحتضنها وكأنها تحتمي بها من همجية البشر وترد في استسلام وخنوع

أكل عيشي يا باشا وربنا كبير

أراد أن يخرج كل مركبات النقص لديه ويكمل سخفاته بإحراج الفتاة أكثر ولكنه وجد صوتًا خشنًا وغاضبًا قادمًا من الخلف

كفاية بقى قلة ذوق وظرف

أدار الجميع نظرهم إلى ميدو طويل القامة الذي استشاط غضبًا

وانفعل من تهكم الطالب على الفتاة، وهو يصيح
إنت حيوان ولو في حد في صحابك دول عندو دم كان قللك عيب
انسحب الكل من حول الفتاة واحد تلو الآخر دون رد لعلهم شعروا بالذنب أو انتهاء الحفلة الساخرة وبقى ميدو والفتاة وجهًا لوجه
ساد صمت لدقائق لعلها فرصة لتفحص هذا الوجه الشهم الذي أنقذها من سخرية الحضور عينها الآن تسبح في وجهه الباسم فتخجل ولكنها لا تستطيع أن تخفض من رأسها وتنظر إلى الأرض انتابها شعور غريب وتسلل إليها للوهلة الأولى لعله الاحتماء, على الرغم من تعدد الوجوه في يومها وتعودها على فظاظة الزبائن وتجريحهم لها بل وصل الأمر إلى أقصى درجاته حيث راودها الكثير عن نفسها من كل الأطياف من بائع الشاي إلى أصحاب السيارات الفارهة، لكنها أول مرة تشعر أن هذه الملامح فعلًا صادقة في دفاعها عنها قلبها الآن هو الدليل بل انتابها إحساس أنه شاهدته من قبل
سألها ميدو مترددًا فهو لا يريد أن يشعرها بالإحراج من الموقف
إنتي اسمك إيه
قبل مقول لحضرتك اسمي أنا عايزة أشكرك أنا والله بعرف أرسم علشان كدة باجي هنا بس محدش عايز يساعدني شوف حضرتك أخرجت من بين طيات الجرائد مجموعة من الرسومات لأطفال

على الطوبة إللي فوق الجرايد وبتمشي مبتكلمش حد أبدًا حتى الباقي مبتخدهوش
أخفى ميدو معرفته بأمها لأنه اعتقد أنه لقاء عابر وسوف ينتهي بالتأكيد
مريم اسمك مريم جميل أوي الاسم
أنا يا باشا دبلوم تجارة بس نفسي أخش كلية وعلشان أنا برسم كان نفسي أطلع مدرسة رسم بس للعيال أنا بحب العيال حضرتك لكن الكبار دول ممكن يقلوا أدبهم علييا مانا بشوفهم ممكن يضربوني
طفولة وأنوثة وشقى وجمال وحلم يناطح السحاب وإذا حاولت أن تمحو شيئًا من هذا التكوين تأثم كل الإثم هكذا تمثلت أمامه
أخرج ميدو من جيبه ورقة فئة المائة جنيه ومد يده بها إلى مريم التي استغربت
إه دا يا باشا حضرتك أنا مش عايزة فلوس أنا عايزة حد بس يدلني إزاي أتعلم زي إللي ضحكوا عليه دلوقتي دول
تمام تمام خدي الفلوس دي بس وأنا هحاول أساعدك بس أنا معرفش هاشوف وأقوللك
أنا مش هاخد حاجة من حضرتك شكرًا يا باشا
وفي عبوس أدارت وجهها وعدلت من لفة الجرائد وتركته وغابت شيئًا فشيئًا نحو باب الخروج.

لا أعلم فوران التمرد داخلي يدفعني لأكتشف حياتي بعيدًا عن الجميع هكذا حدث نفسه

حالة من الوجوم انتابته حتى خروجه من المكان كأنه مصفوع على وجهه وانتبه وهو يجتاز مفترق الطريق على صوت قائد مركبة

إنت يا عم متفوق شوية

لا يعلم ميدو سر تصديه لتلك العصبية من البشر المرضى التي تستبيح أحلام الآخرين وتجعل منها مادة خصبة للسخرية هل الزمن يعيد نفسه والمواقف تتكرر ولكن الأشخاص والوجوه تتبدل شعر بنفس تلك المشاعر الكئيبة في بداية حياته الجامعية، عندما أطلقوا عليه الاسم الهزلي نوفل

استدعى مشهد تلك الفتاة التي وقفت تحمل بين طياتها خجل الفقر وقلة الحيلة بين شرذمة من البشر غلبتهم العنصرية والتعالي على الآخرين, نفس المشهد القديم وإن اختلفت الظروف ولكن تطابقت المشاعر

هو أيضًا شعر بالكسرة والرخص وعندما همت هانيا الجبالي بالدفاع عنه كان من نفس منطلق دفاعه عن مريم وهو الإنسانية ليست أكثر, تعجب من عزة نفسها لرفضها يده الممتدة بحفنة من الجنيهات كنوع من التشجيع لها خاب هو أيضًا في قراءتها جيدًا، فهي لم تمد يدها لتشحذ الأموال لكنها بالفعل تشحذ الاهتمام أو

صغار ولسيدة بدينة ترتدي عباءة سوداء وتجلس أمام فرشة جرائد وأردفت دي أمي يا باشا
تفحص ميدو الرسومات بعناية وعلى الرغم من كونه ليس بمتخصص ولكنه يتذوق الفنون بحسه البسيط رأى أن الفتاة موهوبة بالفعل تعرف ميدو على أم مريم من خلال الصور, فكيف ينسى صياح تلك البدينة وألفاظها البذيئة عند سور فيلا الكيال، لكنه تظاهر بعدم معرفته لها وركز في ألوان الرسومات المعبرة والتي اختارتها مريم بعناية حتى تشعر أن الرسم ينقل أدق التفاصيل والمعاني
سرح ميدو في حال تلك الفتاة بل كاد لا يصدق أن هناك فتاة فقيرة وتعمل من أجل لقمة العيش تعليمها متواضع ومحبة للفن... ما هذا بالتأكيد تلك الفتاة تُخفي قوة لم أجدها حتى بين الكثيرين من من حوالي تمتلك القوة الخفية التي تدفعها للبحث عن هدفها ومطاردته وهي الإرادة رغم قلة الإمكانات تطارد أحلمها.
يا باشا حضرتك ساكت ليه... انتبه ميدو من غفوته الطارئة... معلش أنا آسف إنتي مقلتليش اسمك إيه
مريم أنا اسمي مريم يا باشا على فكرة حضرتك زبون عندنا من زمان إحنا أصحاب فرشة الجرائد إللي في القصر العيني أنا افتكرت حضرتك عندك عربية سودا كبيرة بتشتري الجرايد وتسيب الفلوس

حتى المساعدة على إثبات الذات,

* * *

صباح يوم جديد, إشراقة شمس تبهج القلب, أصوات العصافير تعلو وتنخفض, كوب شاي ليبتون بالنعناع الأخضر يصاحبه صوت موسيقى عمر خيرت في رائعته (قضية عم أحمد) استنشق د سامي كمًا كبيرًا من الهواء في رئتيه وكأنه عائد إلى الحياة من غيبوبة مرضية, طرأت فكرة التريض كما كان يفعل أحيانًا في الماضي كنوع من محاربة الكسل الذي استباحه منذ مكوثه في المنزل لفترات طويلة, ارتدى حذاءه اللتو الرياضي وتيشيرت أبيض وبنطلون ترينج كحلي وقبعة (كاب) غريب الشكل فأصبح قريب الشبه من عمال محطات الوقود.

ترجل د سامي من منزله بشارع أمين سامي إلى أول كورنيش النيل بمحازاة جاردن سيتي, عزم على الركض من أول مطلع كوبري قصر النيل حتى كوبري الجامعة ثم العودة مرة أخرى إلى نقطة البداية, لم يتمهل في الركض وبدأه بكل قوة، عيناه تنظر إلى الأمام وكأنه يحاول النجاح في تحدي صغير صنعه لنفسه ليخبرها أنه يستطيع فعل شيئًا ولم يحن الوقت قط لليأس وأنه ينتظر فرصة ليقتنصها

وبالفعل استمر بالركض إلى أن صعقه بوق سيارة ميكروباص

سائقها رص الهيئة قبيح المظهر صغير السن نسبيًا وفي قلة أدب متناهية من السائق (متفتح يا روح أمك يلعن أبوك عصبح إنت إيه بتجري عامل فيها موتوسكل غور في داهية)
لم يستوعب د سامي هذا الكم من السباب من هذا التافه اكتفى بالنظر له وأثار نهجان الصدر يعلو صوتها قدر علو صوت السائق لم يدرك أن قاهرة الألفية تختلف كثيرًا عن قاهرة أواخر الثمانينيات، فهو لم يتعود منذ فترة الاحتكاك بالعوام كما يطلق عليهم وكل مشاويره وقضاء احتياجاته منذ عودته يتكفل بها والده النشيط كنوع من الرياضة أو يحتمي هو داخل سيارته مغلقًا زجاجها متوحدًا مع موسيقاه المفضلة.
استمر د سامي في الركض إلى أن شعر بتعب وبدأ تقدمه في الارتعاش فتوقف منتصف كوبري الجامعة ومد يديه نحو السور الحديدي الصدأ وشد جسده إلى الخلف ونظر إلى الأرض في إنهاك ثم إلى أعلى وأخذ نفسًا عميقًا, وجد صفحة النيل هادئة أخذ ينظر في الماء ويحدق بها بشدة وجاءته فكرة الانتحار............
أخذ ثواني في التفكير لم يتركه فيها وسواسه (وإيه يعني يا أخي ما ترمي نفسك وتخلص بقا من القرف وقلة القيمة والبهدلة والاكتئاب والوحدة وأكيد هتستريح) هي ثواني قليلة بحسابات الوقت لكنها خطيرة في حياة الإنسان أرضها الخصبة هي إحباط وخيبة أمل وتراكمات أحلام يائسة, استعاذ بالله من الشيطان

الرجيم ليرحل عنه، ولكنه أخذ يلح عليه (د إنت حتى لسة مشعارف تتجوز وهتتجوز إزاي وإنت مش شغال وسنك كبر وفين الشقة.. وفين....)

استعاذ مرة أخرى واحس أن أفكاره ووساوسه لم تدعه ينعم بتحدي صغير صنعه لنفسه، فأخذ وضع الاستعداد وتابع الركض مرة أخرى حتى وصل إلى سلم صغير يفدي إلى شارع النيل يقع أسفله محطة الأتوبيس النهري تذكر ركوبه الأتوبيس النهري سنة ٨٦ في السنة الخامسة طب وكانت هي المرة الأولى بصحبة مجموعة كبيرة من الأصدقاء كنزهة تذكر ضحكة صديقه طارق مصطفى عندما حاول أن يداعبه ويشده إلى الماء, ابتسم ابتسامة مليئة الحسرة على أيام الماضي الجميل، استرسل في السرحان بينما تحول الركض إلى هرولة شيئًا فشيئًا إلى أن وصل إلى أول كوبري الجلاء

شعر بالظمأ الشديد فتماسك إلى أن يصل إلى نهاية الجولة وعند اقترابه من بوابة نادي القاهرة لم يستطع أن يخطو خطوة أخرى على قدمه، فوقف بجانب السور أمام محطة مترو الأوبرا، أراد أن يعبر المحطة بمحاذاة سور النادي، كاد أن يغمى عليه من رائحة البراز المنتشرة بكثافة وكأن القاهرة كلها قامت بقضاء حاجتها جانب السور شعر بخيبة أمل أو بالأحرى استسلم لضياع تحديه الصغير ونادى بصوت جاهوري (تاكسسسسسسي)

استقل د سامي التاكسي وجلس بجوار السائق الذي أخذ في التدخين وأكل اللب والبصق من نافذة السيارة وبدأ في ثرثرة لا تنتهي عن الأزمة الاقتصادية العالمية وتدعيتها على المنطقة ودورها في رفع أسعار السلع والخدمات

امتعض د سامي من منظر السائق وجهله الواضح الذي يدعو إلى الغثيان فتظاهر بعدم الاكتراث أخذت عيناه تبحث عن عداد الكليومتر فلاحظ أنه لا يعمل, فقط هو ذكرى من زمن فات فاستعد لمشاجرة محتومة مع السائق عند الوصول

لم يترك السائق سيده أو فتاة تمشي في الشارع إلا ورمقها بشهوة، وأثناء وقوفه في الإشارة عبرت مجموعة من الفتايات الشارع فما كان منه إلا الصياح بصوته الغليظ

صباح الخير يا مووزز (والهي الواحد مش عارف يعمل إيه يا باشا النسوان جابوا للواحد جنان)

فما كان من د سامي سوى رمقه بطرف عينه وأجاب بكل هدوء ورجاحة عقل

مفيش واللهي يا أسطى الحل بسيط

نظر إليه السائق مستغربًا

إه بسيط (غض بصرك يا أخي غض بصرك)

طلب د سامي من السائق التوقف فورًا على أي جنب لم يستطع أن يمكث أكثر من ذلك مع هذا الشخص المستفز وفضل أن

يقطع المسافة الباقية سيرًا على الأقدام, وقف عند فرشة أم مريم وتفحص المجلات والجرائد وعندما هم بالالتقاط رواية وتفحص أوراقها سمع صوت أم مريم الخشن

هتشتريها خدها لكن تقلب فيها وتسبها تاني مينفعش يا باشا

نظر إليها د سامي صامتًا، وترك الرواية من يده وتفحص وجهها الذي بدى له أنه أصابه الكبر مع زيادة مفرطة في الوزن وتذكر د سامي عندما جاءت أم مريم التي لم يعلم الكثير اسمها الحقيقي، وكانت فتاة غاية الجمال ممشوقة القوام ويافعة، وزوجها الذي كان يصفعها دائمًا ويجرها من شعرها ويتتدخل المارة في التفرقة بينهما

اشترى د سامي جرائد اليوم وتمهل في المشي يتطلع إلى الوجوه ففوجئ بهدم مقر حزب الوفد القديم في حي المنيرة، وأصبح جراج يتسع لكثير من السيارات التي تركن فيه صباحًا، بينما يقف السايس الذي تبدو ملامحه معروفة يمسك بعجاز ويعرج على قدمه اليسرى ينظم دخول السيارات, اقترب منه د سامي فعرفه على الفور إنه (هراس) حارس مرمى المنطقة الذي كان مبدعًا في صد أعنف الضربات داخل مرماه, لم يتعرف عليه هراس عندما ألقى عليه د سامي السلام فرده في عجالة مصحوبًا بكلمة تعا اشب شاي وانهمك في ركن إحدى السيارات بحرفية شديدة الوجوه كلها تغيرت أصابها نوع من الكبر ولعلي أنا أيضًا أصابني

الكبر ولم ألحظه مطلقًا لكني شاهدته في كل من حولي أم مريم, هراس حتى البيوت والفيلل القديمة تهدمت, الأشكال تتغير سواء البشر أو الشوارع ومن ثم الموجات الحانية التي كانت تصاحبني أثناء سيري في تلك الأماكن.
أصبح على مقربة من فيلا الكيال فهاله المنظر, مجموعة كبيرة من الباعة الجائلين استوطنت حديقة الفيلا مؤخرًا كمخزن لبضاعتهم, أقفاص من الفاكهة ومشنات الخضرة حتى بائع الروبابكيا يقوم بتخزين الكاوتشوك في حجرة البواب, كيف وصلت بهم الجراءة لفتح باب الفيلا والدخول فيها عنوة, نظر في وجوه الباعة التي تحمل أغلابها ندبات مفزعة, فتخلى حتى عن أضعف الإيمان وهو سؤالهم من أنتم ومن أتى بكم إلى هنا.
صعد درجات سلم منزله في صعوبة ووقف أمام مرآة المصعد نظرًا تفحص وجهه بعد تلك السويعات القليلة التي أراد فيها أن يجدد نشاطه فوجد شعيرات بيضاء كثيرة غزت لحيته الداكنة, فتبسم   ضاحكًا هراس جي.

يزوغ بصرها هنا وهناك وهي عادة اكتسبتها من جلسة الرصيف تقوم بعمل مسح جغرافي للمكان لعلها تلتقط أي نوع من الرزق حتى ولو قامت من مضجعها لاستجداء عطف أحد المارة ومؤخرًا تنبهت أن هناك من يراقب مريم متواريًا خلف جريدة كمخبري المباحث.

أستاذ أيمن شرف الذي تجاوز عامة الخامس والأربعين متحفظًا لقلة حذيثه واحتكاكه بالجيران لكن الجميع يشهد له بالاستقامة وعدم تدخله في شؤون الغير وكباقي جيله الثمانينتي الشباب من مواليد منتصف الستينيات يمتاز بتعصبه الشديد لكرة القدم والتدخين الشرهة وشارب كثيف لا معنى لوجوده وادعاء الشباب

الدائم وخفة الظل التي تعتمد على كم مهول من إفيهات أفلام الزمن الجميل, ورث أيمن شرف عن والده ذي الأصول الأرمنية بياض الوجه ذا الحمرة وعن والدته البدانة في منطقة البطن والأرداف.

يصل إلى القاهرة يركن سيارته في جراج عمارة الشمس القاطن أعلاها,يمضي طوال الأجازة داخل المنزل لا يغادره أبدًا ويعتمد على توصيل الطلبات إلى المنزل (الدليفري) في كل شيء من الطعام إلى الدواء وعندما تعلم أم مريم بوصوله تجمع له كل الكتب والروايات غالية الثمن ثقيلة البيع وتتركها له مع بواب العمارة وتشاهده جالسًا على كرسيه البامبو يرتدي سمعات الأذن ويحتسي الشاي واضع قدم تعلو الأخرى ويدخن بشراهة ولا يتغير وضعه إلا في قدوم مريم ينتبه ويقف ويرمقها من دخولها الشارع حتى جلوسها أعلى الفرشة

تنتابه شهوة عارمة عندما تأتي سيارة الجرائد ليلًا فحينها سوف يتمتع بأقصى درجات الإثارة عندما تلتقط مريم الجرائد من الأرض وترفعها إلى الفرشة عاليًا فتظهر تفاصيل خصرها من خلف العباءة المصنوعة من مادة البوليسترالتي تلمع في جنح الظلام

يعيش وحيدًا منذ وفاة والدته التي أفنى حياته في خدمتها وتقدم بطلب نقل إلى محافظة نائية كي يعيش هناك تاركًا خلفه كل شيء الماضي والأصدقاء والنادي حتى اعتقد الكثير أنه هاجر إلى

عمه في كندا
تعلم أم مريم حكايته بالتفصيل ولكن السؤال الذي يشغلها دومًا لماذا لم يتزوج هذا الرجل الأربعيني إلى الآن بالرغم من مرور السنوات وهي قابعة أمام الفرشة لم تشاهده مع فتاة أو سيدة وكأنه في خصام مع الجنس الآخر استطلعت عن سلوكه من خلال معرفتها بحارس العقار الذي يذكره في حديثه ساخرًا على أنه مجرد مشاهد فقط للنساء لا يقوم بأي أفعال مشينة على الرغم من وحدته في المنزل

وتعلم أيضًا أنه ورث عن والدته خزائن من الذهب وأرصدة كثيرة في البنوك كان يتودد إليها منذ أن اشتد عود مريم وطلب منها ذات مرة أن يترك لها مفتاح شقته أثناء غيابه لإرسال شغالة لتنظيفها قبيل مجيئه من الأجازة كل شهرين كان يريد مريم كنوع من الإغواء للفتاة بالمستوى المادي أو جس نبض أمها لعلها ترضخ لإرسال الفتاة في مقابل حفنة من الأموال ولكن هيهات أن تمر تلك اللعبة الخبيثة على السيدة التي أخذ الشارع منها الكثير فقامت بتوبيخه وقالت بصوت عالي نسبيًا (إنت فاكر بنتي خدامة لا يا بيه دي ست البنات)

تعتقد أم مريم أن جلوسها في الشارع يجب أن يكون له ثمن أكثر من بيع الجرائد، فكانت تحاول أن تزيد من دخلها من أي شيء آخر تنظيف شقق بيع أثاث قديم حتى المشاركة في شراء الخضار

وتنظيفه وبيعه جاهز على الطهي مباشرة وأشياء أخرى ولكن لن تقدم ابنتها بتلك السهولة لهذا الزوج دون أن تكون صفقة محكمة وناجحة أو بالأحرى مباراة اعتزال من شقاء الأيام
وفي أجازته الشهرية، توقف أ أيمن شرف عند الفرشة وأخذ يتفحص الروايات والكتب ويتحسس أخبار مريم بشكل غير مباشر
فحديثه طبيعي عن الشارع الذي تغير ملامحه وأمه رحمها الله ولكن كان يبغتها بين الحين والآخر بسؤال عن مريم وإذا كانت تريد أن توظفها في الحكومة، فهو لديه من المعارف ما يستطيع أن يخدمه
دبت أم مريم على صدرها الكبير الذي يتدلى بداخله حبل (دوبارة) في مؤخرته كيس أسود صغير تحتفظ فيه بالأوراق النقدية التي تحمل فئة الخمسين فأعلى
لا يا أستاذ أيمن إحنا معندناش بنات تشتغل في الحكومة هيدلوها كام يعني ولا عندي نية إن أوقفها تاني على الفرشة البت كبرت وعيون الرجالة بتجري وراها في كل مكان وأنا بصراحة خايفة على البت أنا هجوزها خلاص جلها عريس صاحب محل كاوتش وعايزها بشنطة هدومها, نجحت أم مريم في استفذاذ أستاذ أيمن ليخرج ما بداخله أوقعته تلك السيدة بكل بساطة في شباكها المحكمة
وفي عصبية واضحة وانفعال غير مبرر صاح الأستاذ أيمن

بس البنت لسة صغيرة

رفعت أم مريم يدها إلى حاجبها الأيمن وتغيرت ملامح وجهها تمامًا

صغيرة إيه يا دالعدي إنت مش شايف البت فايرة إزاي ولما هي صغيرة يا حبيبي عنيك مش بتتشال من عليها لييه

ارتبك أستاذ أيمن وبدأ في التلعثم بكلمات غير مرتبة

لم تعطه فرصة وأردفت, إللي بيقول صغيرة وهو رائمها في الرايحة والجاية يبس على صدرها ورجلها ووسطها أحيييييه

استطاعت أم مريم أن تنفذ ما تريد ولكن بطريقتها الخاصة وببجاحة مفرطة وضعت له الطعم الذي التهمه أستاذ أيمن بكل سهولة، فكرت أم مريم كثيرًا في الإيقاع بهذا الأيمن ولكن ليس عن طريق أنه البيك المتعلم الذي يقطن في العمارة الراقية ويرث الكثير, وكان من السهل لها أن تبعث له مريم نفسها لتغويه لكنها تعلم أن مريم لا تفكر هكذا ومن الصعب عليها أن تحدثها في هذا الأمر مهما كانت شديدة الوضاعة

اهدي بس يا أم مريم

أراد الأستاذ فقط أن تتوقف أم مريم عن الحديث عن نظراته الخبيثة لابنتها وينفي تهمة المتحرش بالنظرات المريبة عن كاهله

أهو هدينا عايز إيه بقى يا فندي

تستدرجه وتعلم الآن أنه سوف يفصح عما بداخله بكل بساطة

بل تتخيل نفسها الآن تنتقل من الرصيف إلى شقته وتجلس على أريكة والدته تحتسي الشاي وتلملم أوباش الحي حولها وتمارس عليهم سطوة صاحبة الأملاك
إنتي عارفة إني عايش لوحدي من زمان واتفاجأت إن مريم بقيت مشاء الله عروسة
يعني إيه يا أستاذ مش فاهمة
جلس أستاذ أيمن لأول مرة أمام فرشة الجرائد يلتقط أنفاسه بصعوبة وأشعل سيجارة أخرى في توتر ملحوظ لا يا أم مريم إنتي فهمتيني غلط أنا غرضي شريف وبدأ في شرح ظروفه وأخبرها بعرضه للزواج من ابنتها مباشرة
ابتسمت أم مريم في وجهه أخيراً وكأنها حققت ما كانت تريده منذ أن لمحته يتفحص جسد ابنتها بشهوة, تمت لها الخطة الأولى، والآن حان وقت الانتقال إلى الخطة الثانية
ماشي يابني طيب مقولتش ليه كدا من الصبح دانت ابن الغاليين وجارنا وحبيب ابن حبيبة تعالى اقعد جانبي كدة نتفاهم
بدأت في استخدام أساليب البيع والشراء الرخيصة والمتاجرة بالفقر إنت يابني عارف إن مريم هي دراعي اليمين وهي إللي بتصرف علينا من وقفتها على الفرشة بتساعدني وكمان بتصرف على العلام ومصاريفه كتير وغالي ياما وفي محاولة للعبث بأعصابه مرة أخرى بس هي أكيد مش هتردى دي العلام شاغل نفوخها طب أقنعها

إزاي متروحش الجامعة لا يابني مفيش نصيب
استغرب أستاذ أيمن من كلام تلك السيدة البدينة أراد أن يخبرها أنه يحتقرها شخصيًا ويحتقر أسلوبها الرخيص والفظ في تعزيز ابنتها ويعلم جيدًا أنه إن تركها ورحل سوف تقوم مهرولة خلفه ولكنه يريد أن ينهي الموضوع فلا وقت لديه لإعادة هذا الحديث المر مع تلك اللعينة المتبجحة

فسألها وهو يخرج دخان السجائر من فمه بعد نفس طويل متقمص أدوار إستيفان روستي
طلباتك إيه يا أم مريم عاشان تميللي دماغها
فرجعت إلى الخلف ورفعت زجاجة مياه إلى فمها الغليظ وتشأشت دون حرج ووضعت يدها أسفل ذقنها وأردفت
طقم شبكة ب(٥٠ ألف جنيه) ودا بشكل مبدئي كدا وتصبر عليا شويتين علشان أللين دماغها أصلها عنيدة زي أبوها مخها جزمة أديمة وبنت كلب
اديني كدا كام يوم وعدي عليا بص متنساش تاخد المجلات دي في إيدك وإنت ماشي
أخرج أستاذ أيمن حافظة نقوده الجلد البني اللامعة فتعلقت عين أم مريم بها وانفرجت أاسريرها عندما لمحت فئتها العالية ومدت يدها إلى الأمام متحفزة لأي حفنة من النقود
وضع أستاذ أيمن ورقة فئة المائة جنيه والتقط مجموعة عشواءية

من المجلات التي قطعًا لا تساوي هذا المبلغ وألقى سيجارته أمامها ودهسها بقوة بمقدمة حذائه اللميع وألقى عليها السلام وأدار لها مؤخرته العريضة تتمايل في غيظ

شيخوخة العشرين فلهذا السن حالته الخاصة حيث تصبح حياتك على قدر كبير من الجمود ثبات في العمل والدخل وحتى في الطموح والبعض يتوهم أن شكل الحياة اكتمل وتم استنفادك تمامًا في إطار وضعه المجتمع وكأن لكل البشر دورة واحدة حتى ولو اختلفوا في الفروق الفردية أو الجينات والسمات الشخصية استسلم ميدو لهذه الدورة كاملة أعمى فعل كل ما يتحتم عليه فعله أو اجتاز مقومات النجاح هذه المرحلة استطاع أن يشتغل ويدخر ويدبر منزلًا للزواج وانتهى من كل ذلك وانتظر تحقيق آخر مطالب المرحلة، وهي الزواج أو موسم التزاوج كما ينعته ميدو

فلسفة ميدو هدته أن الأصل في الارتباط ألا تبحث عنه بل يبحث هو عنك حتى وإن طال الانتظار فلا يوجد أي نوع من المنطق أن تكمل ما تبقى لك من الحياة أو أن تشارك شخصًا أنت شديد الجهل به سوى أنه يريد أن يتزوج ويعتقد أن أغلب الزيجات التقليدية تمت في مرحلة الضباب تلك أو في لحظة يأس

من الانتظار كما فعل الكثير من أبناء جيله ورفقاء الدرب.
اعتقدت أمه أنه مصاب بعقدة من النساء, هكذا روت إلى صديقتها مدام حكمت وانهمرت في البكاء وأخبرتها أيضًا أنها عندما تتحدث معه في أي أمور تتعلق بالارتباط يرفض رفضًا شديدًا فكرة الزواج من الأصل ويهرع إلى غرفته ويغلق الباب مسرعًا وأنها أيضًا تخاف عليه إذا أخذ الله أمانته أن تتركه وحيدًا بلا أخ أو أخت أو من يؤنث وحدته ويهتم به وأن حبه الشديد لها من الممكن أن يهلكه إذا فقدها بشكل مفاجئ بل إنها تشعر بأنها تصارع القدر كي ينتظر حتى ترى ميدو هنيئًا في منزله فبهذا تكون أدت دورها غير عابئة بما بقى لها من العمر طال أو قصر
نصحتها الصديقة بأن تحاول أن تترك ميدو يستشعر الوحدة دائمًا يوم أجازته تحديدًا التي كان يخصصها للجلوس مع أمه وتناول الغذاء والترويح عنها في المساء بالتمشية على كورنيش النيل بالسيارة أو حتى سيرًا على الأقدام اعتاد ميدو ذللك منذ التحاقه بالعمل وكان يستشعر نوعًا كبيرًا من الرضا والبر عندما يرى أمه سعيدة وهي تتكئ على ساعده وتحكي له قصصًا بعبير الماضي, صدمتها مدام حكمت عندما قالت لها ارتباطكِ الزائد به سوف يجعله وحيدًا إلى الأبد
شرعت أمه في تنفيذ النصيحة، ولكن بشكل مختلف فأخبرته أنها تنوي الذهاب إلى العمرة وزيارة بيت الله الحرام برفقة أخيها

وزوجته, عرض ميدو أن يصطحبها إلى هناك عندما يتثنى له الحصول على الأجازة وتدبير الأمر داخل أروقة العمل ولكنها رفضت وتعللت باحتياج خاله الطاعن في السن لها وكان لها ذلك
يوم السبت المقرر للسفر اصطحبها ميدو إلى المطار وأخفى مشاعر الابن الوحيد الذي لا يطيق فراق أمه ولكنه تماسك حتى غابت عن نظره في مطار القاهرة الدولي وأجهش في البكاء كالأطفال طوال طريق حتى عودته إلى المنزل
تعمد ميدو الانهمار في العمل حتى وقت متأخر من الليلل حتى يكون المنزل فقط بمنزلة فندق ينام فيه ليلًا, حاول تشتيت انتباهه عن عدم وجود الأم متعمدًا ولكن لم يغفل قلبه عن الحنين إلى صوتها عندما يفتح باب المنزل مرحبة به
يوم الأجازة كان الأمر مختلفًا لم يستطع أن يجمح تفكيره المتواتر في وحدته القاسية ارتبك ميدو تقلب مزاجه شعر أن جدران المنزل تضيق عليه, كان يعلم أنه سوف يقع فريسة سهلة لأفكار اعتاد التحايل عليها يوم أجازته بخروجه مع أمه, كان يحاول أن يقنع نفسه بهدف سامي وهو بر الأم متغافلًا رغبة ملحة داخله أنه يحتاج إلى مشاعر أخرى غير ارتباط الابن بالأم, فيأثم كل الإثم من يتغافل عن إلحاح بشري ونفسي كاحتياج شريك الحياة ويخرج تلك المشاعر موزعة ما بين الأم والعائلة والاصدقاء وحب النباتات والحيوانات الأليفة مدعيًا الاستقرار, فلا شك أن

للوحدة الألم تبرح القلب تجعله يتيمًا وتجعل الروح شديدة الوهن وتدفعه في النهاية إلى الانصياع إلى الحل المرفوض تمامًا من وجهة نظره وهو الزواج عن طريق الصالونات، يرى نفسه بهذا المصير فارسًا لم يدخل معركة ليحظى بالنهاية أيًا كانت ولكن ما أقصى لحظات اليأس التي توهمك بحل واحد لما تعانيه
لجأ ميدو إلى ركنه وإذاعته المنزلية وأمسك المكريفون وبدأ تسجيله الإذاعي بسؤال (ماذا أقول لأمي)
أرى في عينها الأسئلة الحائرة وأخفي بين طيات قلبي جرحًا لازمني أعوامًا وعشقًا تغلل بين أوصال القلب, هل وجدت الوحدة موطنًا داخل قلبي المهجور فطاب لها العيش فيه أم وجدت القلب جريحًا ولا سبيل للمقاومة فغلبته, فأنا لم أزل أشتم رائحة جسدها وحركة يدها عندما ترفع خصلات شعرها خلف أذنيها احترقت بالحب وتم استعمالي كبديل فقط في حياة فتاة لاهية, أجبرت القلب على العزوف والخوف من دخول تجارب أخرى واستسلمت إلى هذا الفزع الذي ينتابنى عند شعوري بالقرب من أي فتاة داخل أروقة العمل حتى أنهم زادوا في ألقابي لقبًا جديدًا (الأحف) الذي يعامل النساء بقلة ذوق واحتقار
أدرك ميدو أنه لا معنى للحياة دون وجود أمه فهي الشيء الوحيد الذي يعيش من أجله أو سبب وجوده خاصة أنها شديدة الحنان والسماحة وجد ميدو أنه غريب في الدنيا إلا منها فتعجب وبدأ

يفكر في منحنيات حياته الخالية من التوازن بوجود أشياء أخرى تدعوه للحياة, اكتشف أن ابتعاده عن النساء طيلة حياته وهو فتى في عز الشباب لم يكن أكثر من خوفه لتكرار تجربته مع هانيا الجبالي وخلق لنفسه هو تعريفًا آخر أو تبريرًا ينفي عنه صفة الخوف هو أو الالتزام والاحترام والتعالي عن الصغائر وأن القرب من النساء يعطل مسيرته في تحقيق أهدافه

تبًا لك ولأهدافك أيها الجبان هكذا حدثته نفسه نعم أنا جبان أعاد تكرار تلك الكلمة التي أشعرته وقتها براحة كبيرة عندما خلع عن نفسه طوقًا من الكلمات المزيفة التي ألصقها بشخصه فما أجمل أن تبوح بحقيقتك لنفسك

اعترافه بالجبن أراحه كثيرًا أخذ في التعمق أكثر والبحث وراء أسباب جبنه فكانت الحقيقة شديدة وناصعة وشفافة فما الداعي للتبرير والغرق في عالم موازي وما أجمل الاعتراف الذي يدفعك إلى أن تواجهه حقيقتك, لماذا أريد دائمًا أن أصبح الشخص المثالي أو أبدو كهذا أمام الناس إلى أن تعودت على أن أفعل ما يحبه الناس ولا أفعل ما أحبه أنا, لماذا أخفي هويتي عن الجميع وأخشى أن أبوح بها أنا بطل فقط أمام نفسي وميكرفوني ولكن أمام الناس أركن إلى الدخول الدائم في الصف, افتقدت أحاسيس كثيرة وأتعلل بأن لا وقت لها الآن أي لا وقت لمتع الحياة التي لم أجربها فقمت بالادخار من أول يوم عمل لا أعلم لماذا فقط

سمعت أن من الأفضل البدء في الادخار من اليوم الأول ماذا فعل لي المال الآن مجرد رقم في حساب باسمي في البنك لم يجلب لي السعادة، والطامة الكبرى إني أتهم والدي أنه أصبح هاموشًا لعله أفضل حالًا مني رضى أن يكون هاموشيًا لهدف أخطأ أو أصاب ولاكن كان ينشد هدفًا هو الادخار وحياة أفضل حتى وإن كان هدفه المادي يكفي وضوحه

لعل السؤال التافه الذي تم سؤاله لجميع الأطفال ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر, الإجابات كلها تشير إلى الوظيفة وكأن الحياة بأكملها يتم اختزالها في الوظيفة فقط وعلى هذا الأساس يتدخل البشر في صنع أحلام صغيرة, ترى لما لم يجاوب أحد منا الإجابة النموذجية مع أنها بكل بساطة هي أريد أن أكون سعيدًا فقط سعيد, لا أرى نفسي في الوظيفة بل أرى إنسانًا آخر يرتدي بدلة غيره ليحاكي الوسط أو الطبيعة وينتظر آخر الشهر مرتبه ليدخر منه ليدخل في دائرة تلو أخرى كما فعل الجميع ومنهم شقي ومنهم سعيد

حياة بيولوجية فقط للحفاظ على الجنس البشري (الكل يحيا بيلوجيًا)

لم يستطع ميدو النوم في تلك الليلة طار النوم من عينه شعر أنه أكثر احتياجًا لأمه الآن من ذي قبل ولعل النظر في وجهها الطيب يعيد إليه استقراره ولعل موسيقى محطة الأغاني التي

اعتاد سمعها ليلًا من راديو الأم الصغير تشعره بالأمان الذي لا يستطيع أحد شرحه موسيقى الزمن الجميل وصوت أمه الذي يصاحب الأغاني هما الحياة وكل الأفكار والمشاعر المضطربة في ذلك اليوم هي كوابيس مزعجة في ليل شتوي طويل.

* * *

يفتح د سامي صندوق أحلامه ويزيل عنه غبار الأيام الرتيبة بهمة عالية وكأن الدنيا سوف تحتضنه اليوم وتقبله على صبره (دخان سيجارة l.m في البلكونة مع كوب نسكافيه, أنغام الرحبانية مع صوت فيروز الملائكي, نظارة شمس ريبان سوداء وبدلة أنيقة وعطر أزاروا الفواح)

تتغير قسمات وجهه بشكل غريب مع شنبه الكثيف يتحول إلى رجل ذي حيثية في المجتمع يضع دبوس علم مصر يزين به البدلة، فيعلم الجميع أن د سامي ذاهب إلى امتحان الخارجية, فهو اليوم الوحيد الذي يتخلى فيه عن الحذاء اللتو الأبيض والتي شرت الأوست الأصفر ثمانيني الحقبة وأيضًا عن وجهه اللا مبالي بأي شيء سوى جدول إهدار الوقت اليومي المصنوع بعناية كل أسبوع ويحتوي على برامج التلفزيون المفضلة وأوقاتها وكتاب الأسبوع وجلسات الشات لتدور الأيام بلا هدف واضح.

(بصوت غليظ) صباح الخير يا عم بدري

صباح الخير يا داكتور حتى البواب يعلم أنه ذاهب للبحث عن وظيفة
مدة ارتدائه البدلة لا تتجاوز ساعتين هي عمر المقابلة وسرعان ما تعود مرة أخرى إلى مكانها الأصلي دولاب الملابس الخشبي العتيق تتنفس فيه رائحة الأمان.
انتهت المقابلة سريعًا وعاد إلى المنزل يرتدي الروب ويجلس في صالة الجلوس ممسكًا بيريموت التلفاز يقلب فيه على غير هدى ويشكو حاله لأمه
أنا مش عارف هما عايزين مني إيه بالظبط (إنجليزي بتكلمه وكمان فرنساوي, دكتور, مذاكر كل الأحداث السياسيي والاقتصادية من محمد علي باشا إلى بيان الحكومة الأخير في مجلس الشعب) بعد كل دا يجلي واحد عامل زي اللوح يقولي يا بني إنت بتهزر إنت فاكر نفسك هندخللك الخارجية لييه؟؟؟؟
إنت عندك حد سفير أو معاك كرت توصية مثلًا, بلاش نسيب الشباب إللي زي الفل دول وناخد واحد عدي الأربعين لييه, روح يا دكتور اشتغل في مهنتك أو حتى افتح محل موبيلات في شارع عبد العزيز أو شوفلك مشروع سيبر بيكسب اليومين دول.
الأم: معلش يا بني أديك بتجتهد وربنا هيكرمك إن شاء الله, كمان اوعى تنسى إنك ضيعت فرص كتير
فرص كتير إيه في مستشفيات وزارة الصحة....... ها هاها...

كانوا هيدوني فيها كام ٨٠ جنيه
أنا كان نفسي أكون حاجة يا أمي أنا اتبهدلت مرة دكتور في مركب ومرة مدرس كمياء ومرة مرشد سياحي
طب أعمل إيه تاني عارفة يا ماما إللي نجح في صحابي إللي سافر برة أو كان لييه واسطة أما أنا شكلي هطول القاعدة معاكم في البيت
ترد الأم في نبرة أسى ممتزجة بصبر
إحنا يا بني قصرنا معاك في أي حاجة
فكلا من الأم والأب يقتسمان المعاش معًا مع الابن العاطل فتحول الأمر من أسرة فوق متوسطة إلى أسرة بسيطة أهلكتها الحياة وتستمر في التأقلم والتضحيات بإعالة الابن المتعلم النابه سيء الحظ وهنا تكتمل الدراما الحياتية، عندما يضطر رب الأسرة إلى الاستمرار في إمداد العون إلى ما لا نهاية حتى الممات وكأنه ليس من حقه أن يستريح بسبب ضيق العيش
وبصوت مخنوق
لا مأصرتوش في حاجة خالص غير إنكوا ربتوني كويس كنتوا لازم تعلموني إزاي أبقى صايع وقليل الأدب ونصاب علشان أنفع أعيش, لكن للأسف طلعت محترم
استهدى بالله يابني وإن شاء الله بكرة ليها عدل
لم تستطع الأم إخفاء دموعها الحزينة على ضياع عمر ولدها عن

تقصير منه أحيانًا وثقافة المجتمع الغالبة أحيانًا أخرى, تربط على كتفيه وتحتضنه وكأنها تريد أن تسحب الآلام وتدفنها بداخلها وألا تراة في هذا المنظر البائس وتجلي لحظات انكساره بعد عودته كل عام من امتحان الخارجية

وبنظرة شاردة (فاكرة يا ماما لما خلصت الكلية وبقيت دكتور قولت هيبقى عندي عربية وعيادة وفيلا) دلوقتي عندي ٤٣ سنة وحاسس إني بجري في مكاني, يسكت للحظات ويلح عليه سؤال أتعبه (هو أنا صح ولا غلط قولي يا ماما أنا مش فاهم حاجة)

يابني ربنا مش هينساك

ونعم بلله والله الواحد يحط همه في الآخرة أحسن وربنا كبير

وكحيلة يفعلها دائمًا لعدم الخروج من المنزل وإجبار نفسه على التأقلم مع الوضع يقوم بحلاقة شعره زيرو وإطلاق لحيته كأسرى الحروب ويعيد كتابة البرامج التلفزيونية في الورقة الفلوسكاب ويعتزل الدنيا حتى إشعار آخر.

* * *

استعدت مريم للنزول كي تعتلي فرشة والدتها ليلًا, فأخرجت من دولاب ملابسها زي العمل وهو العباءة السمراء وجاكيت أزرق لبرد الليل وإيشارب أسود اللون يظهر بياض وجهها الناصع وقفت أمام المرآة تنظر إلى نفسها ولكنها لاحظت ميل خصرها قليلًا إلى

الجانب الأيسر نتيجة حمولة الجرائد الزائدة كأنها ضريبة الشقاء ارتدت ملابسها وتأكدت أن العباءة مريحة لا تلتصق بجسدها الممشوق كي تتجنب هوس المتحرشين المستشري داخل أوصال المجتمع, فهي لا تنسى الرجل صاحب السيارة الفارهة الذي تعمد أن يتحسس أجزاءً حساسة من جسدها وهي تعطيه جرائد اليوم مساءً وغيره كثير ولكن كان سلاحها دائمًا فردة حذائها المستعدة لتلقين من تسول له نفسه فعل هذا الشيء درسًا قاصيًا, تركب المترو من منزلها في البساتين ألى محطة سعد زغلول وتصعد سيرًا إلى فرشة أمها في شارع القصر العيني

تلقي التحية على أمها وتبدأ في شغل مكانها والعمل يسير على هذا النحو ورديات ما بين الأمم وابنتها تخرج كراسة الرسم المدسوسة بين الجرائد وتنهمك في رسم وجوه جديدة أو سيارة جميلة أو حتى كلب ضال في الشارع وفي بعض الأحيان تقرأ من الكتب المفروشة أمامها

رتابة الأيام تدفع الجميع إلى سؤال

ثم أما بعد

هل ينقضي العمر بهذا الشكل, هذا السؤال الذي يحير الجميع مريم الفتاة البسيطة التي تتطلع لتحقيق أحلامها الصغيرة وميدو المدير الناجح أمام الجميع على المستوى المهني والمثقل بالوحدة على المستوى الإنساني وكأن هذا السؤال يصيب الجميع

في أوقات كثيرة كالعدوى التي تنتشر في الهواء وتظهر على أوجه البشر المكفهرة الذاهبة إلى أشغالها صباحًا

بعد الصراع النفسي الذي عصف بميدو مؤخرًا أيقظ لديه إرادة في تغيير نظام يومه القاسي على أن يكون هذا اليوم مختلفًا تمامًا عن الأيام السابقة على سبيل حتى كسر حاجز الروتين اليومي أو اشتياقًا لتجربة جديدة من نوعها

ففي استراحة الغذاء شوهد ميدو لأول مرة في الكافيتريا يطلب سيزر سلاط ويتلفت ليبحث عن مكان للجلوس, عيناه كانت تقوم بمسح المكان بحثًا عن أكبر عدد من النساء للجلوس بجانبهم.

أحس أنه ذئب بشري جائع للنساء لم يراوده ذلك الإحساس من قبل بل راوده ولكن أغفله أو كظمه والآن هو يعاهد نفسه على المواجهة والتمرد أو حتى على الأقل نوع من التدريب الذي لا بأس به إذا صاحبه نتيجة جيدة

دُعِي ميدو إلى الجلوس على مائدة صديقه مدير المبيعات الخارجية للشركة الذي رحب به كثيرًا عندما وجده يقف حائرًا يستطلع مكان للجلوس فيه, فوجدها ميدو فرصة على التعرف على فتاتين يجلسان بصحبته ويبدو عليهم النقاش الحاد

فطن ميدو إلى كونهما أعضاء من فريق عمل المبيعات وأكثر ما يميزهم الاهتمام الزائد بالمظهر وجدها ميدو فرصة ذهبية للتغلب على خوفه فجلس معهم على الفور مرحبًا بالحضور

ومعرفهم بنفسه
لم يبدأ في الكلام اكتفى بسماع الحوار الدائر بين الجالسين وجلس يرمق النساء بنظرات خاطفة
وجد سلمى تتحدث عن لون طلاء الأظافر الجديد ويشاركها الحضور في اهتمام بينما تتحدث دينا عن رغباتها في تغيير السيارة وخلافها مع والدها الدائم بسبب تسلطه وتحديده نوع معين فقط لشرائه وهو السيارات الكورية المنشأ سهلة البيع
التحم ميدو مباشرة بالحديث مع دينا دون استئذان وأخبرها أنه يتفق مع والدها في وجهة النظر وبدأ في شرح الأسباب ولكنه لم يستطع أن يغض الطرف عن الخلاخال الفضي الذي ترتديه في قدمها فوجد نفسه يكلمها وينظر إلى قدمها في آن واحد ولاحظت دينا ذلك فسحبت قدمها إلى الخلف
أحس أنه أثقل الأشخاص ظلًا في العالم وانتبه إلى وشوشة دينا لسلمى بعد قيامه مباشرة وإشارتها إلى خلخالها فأدرك أنه خائب وفاشل في أن يجذب النساء إليه, نعم هو لم يتعود أن يغازل النساء أو يتحدث إليهم أو حتى معرفة ما يجب فعله في حضورهم فخبرته عن النساء هي (أمه وحبه الانتهازي ومظلة خوفه الكبير)
بوطقة صنعها لنفسه التي حدثته اليوم عن الذهاب إلى بيت دعارة أو بار صغير يحتسي فيه زجاجة بيرة وكأن هذا هو التغير

المطلوب الذي سيقوم بعلاج خلله النفسي ويشعره بالحياة
شعر أنه يريد أن يتمرد على كل شيء حتى ولو فعل ما لا يقبله طيلة حياته ولكنه احتياج إلى تمرد وشعوره أنه الشيء الصائب والمنسى والفائت والواجب فعله منذ زمن
أنهى عمله وأدار محرك سيارته إلى حي العجوزة وركن أمام بار (كروكيت) بالكورنيش الذي كان يشاهده كل يوم ذهبًا وإيابا بسيارته وكان يتساءل دائمًا عن ماهية الوجوه التي تملأ هذا المكان وهل يشعرون فعلًا بالسعادة في أجواء مليئة بالكحوليات وبائعات الهوى، فأقصى خياله عن هذا المكان محدود بالأفلام العربية التي كان يشاهدها للتسلية
استعد للنزول ولكن من يسوقه الآن الملل أم التمرد أم إخفاقه في التحدث إلى النساء أم كل هذا
دخل بالفعل البار, استقبلته فتاة صغيرة الحجم ترتدي ثيابًا تكشف عن صدر شديد البياض كبير نسبيًا وتمسك بسيجارة وفعل ماء الأكسيجين ما يحلو له بشعرها خشن الملمس وبضحكة مصتنعة اعتادت عليها تخلو من الفرحة اصطحبته في اختيار مكان للجلوس وبالفعل هم بالجلوس ولكن اضطرب قلبه وأحس أن العرق يتصبب من جبينه لم يشعر بما تقوله الفتاة من قائمة مشروبات المحل شعر أنه فتاة بكر سوف تتعرض لأقصى أنواع الاغتصاب وهتك العرض فقام من كرسيه وهرب بالمعنى الحقيقي

للكلمة إلى دخل سيارته وأخرج منديلًا من علبة المناديل ومسح جبينه وانطلق بأقصى سرعة إلى طريق منزله.. قاد مشتتًا وكأنه ارتكب الفحشاء والمنكر وانهزم مرة أخرى وتتلاشت صور التمرد داخله تمامًا, التقط أنفاسه عند كمين فندق شبرد الشهير وتأكد من حزام الأمان وأوقد نور صالون السيارة متبعًا قواعد السلامة المرورية, شعر أنه تفوح منه رائحة الخمر مع أنه لم يشرب ولكن تملكه الوهم

سأله الضابط الذي لم يشك في ميدو للحظة واحدة بأنه خارق للقانون نظرًا لارتداء ميدو رابطة العنق وقميصه الأبيض الناصع بما يوحي أنه طبيب خارج توًا من العيادة المسائية

حضرتك ساكن هنا

هم ميدو بإخراج رخصة السيارة وأجاب بنعم

اتفضل يا فندم

لم ينظر الضابط في الرخصة، فتنفس ميدو الصعداء, توقف ميدو عند فرشة مريم لم يجد أحدًا فنزل بنفسه يحضر الجرائد ووضع النقود أعلى الطوبة الحمراء على الفرشة والتفت يركب السيارة عائدًا إلى المنزل، فوجد مريم خلفه مباشرة تحمل بين يدها كوبًا من الشاي الساخن وتنفخ فيه

وكأن العالم يصمت ثانية عندما يرها يتسمر في مكانه وينظر في وجهها الأبيض وشفتها الحمراء وشعارها الناعم المنسدل من

حرف الحجاب ويغيب في جمالها المريح وابتسامتها التي لا تغيب، بالرغم من قسوة الحياة

إزيك يا أستاذ

أهلًا إزيك يا مريم

حضرتك لسة فاكر اسمي واللهي كويس اتفضل تشرب شاي

ومدت يدها إليه تقدم له الشاي

فاعتذر بلطف

تنحنح ميدو وسألها عن رسوماتها، ابتسمت مريم ابتسامة جذابة وبسرعة أحضرت له كرسيًا وأقسمت عليه أن يجلس أخرجت مريم كل رسوماتها وأخذت في شرح كل واحدة على حدى, أرادت أن تشعر بنوع من المشاركة والاهتمام وتظهر له أنها تمتلك أكثر من كونها بائعة جرائد متواضعة الحال

نعم أنا أمتلك موهبة لو أتيحت لي الفرصة لأستغلها لأصبحت شيئًا آخر هذا ما كانت عينها تقوله وهي تقلب في صفحات رسوماتها, شعر ميدو بسعادة غريبة بقرب مريم شعر أن الكلام سهل لا يحتاج إلى ملكات ذئب بشري عتيد التجارب النسائية, جلس بل ارتاح على الكرسي تمامًا ومريم لا تسكت عن الكلام لم تشعر سوى بالاطمئنان لدفء الحديث، فدفاعه عنها يوم جمعية الفنون الجميلة، منح ميدو رصيدًا كبيرًا لديها فتكلمت معه وكأنها تعرفه منذ سنين وليس الفتى الغريب مشتري الجرائد صامتًا

رن جرس هاتفه من رقم غريب فقام بالرد مباشرة وارتدى وجه الشخص المهم ووقف بعيدًا عن مريم قليلًا بينما كان الاتصال مجرد رسالة صوتية تخبره عن رصيده الحالي لدى البنك بعد آخر عملية سحب قام بها
تغير وجه مريم إلى العبوس المفاجئ وسألته برقة الهانم دي يا أستاذ
أجابها هانم مين يا مريم بيه
أردفت المدام يعني
ضحك ميدو وأخبرها أنه لم يتزوج قط
أحست مريم أنها تجاوزت قليلًا فاعتذرت وحاولت أن تستطرق حديثها ولكنها تلعثمت ولم تستطع وسكتت واكفهر وجهها فجأة (أحست أنها مجردة بائعة جرائد) شعرت بالدونية أمام بدلة ميدو الأنيقة وساعة يده اللامعة وسيارته الفارهة فجلست مكان أمها وتحولت إلى شخص آخر وأنهت اللقاء بسؤال
تؤمر بحاجة تانية يا بيه
فهم ميدو أنها إشارة لإنهاء اللقاء ولكنه لم يشعر بالحرج في أن يمد يده إلى كوب الشاي خصتها ويرتشف منه رشفة أشعرته بسعادة شديدة بينما شعرت هي بنوع من الارتباك
سألها ميدو عن سنها
أخبرته أنها بدأت في عامها الثامن عشر وأنها حاصلة توًا على

دبلوم التجارة وأنها دخلت المدرسة في عمر متأخر نظرًا لظروف عائلتها المادية، وأردفت أنها كانت تعوض تأخرها في التعليم بأن تنهل من كتب الرصيف ما تلقطته يدها وأنها قرأت لمعظم الكتاب المعاصرين وفي كل المجالات حتى في علم التصوف
صمتا لبرهة ولكن دار حديث صامت بلغة العيون
لم يستطع ميدو أن يقاوم جاذبية مريم شديدة التأثير وكأن تلك الفتاة تستفز كل أنواع النبل الإنساني بداخل ميدو, نعم فكلامه معها يجعله يشعر أنه يتحتم عليه فعل شيء من المساعدة أو التوجيه ولما لا؟ فهي تناضل مع الدنيا لكي تحظى بنوع من التقدير أو إثبات الذات ولم تتعلل قط بحجة الفقر أو لقمة العيش
فسألها عن يوم أجازتها
أخبرته أنه يوم الأحد
أخبرها أن تنتظره عند باب جاليري الشكمجية في شارع محمد محمود الساعة الخامسة مساءً وصافحها وشكرها على الشاي ونسى الجريدة وانصرف
اندهشت مريم من هذا الشاب شديد الوسامة الذي بالكاد يعاند خجله حتى يتثنى له تكوين جملة ولو بسيطة وما سبب شعوره بالأريحية في جلسته معها وكأنه كان تائهًا وحطت قدماه أرض الوصول, فكرت أيضًا في ماهية ذلك الشاب ولماذا لديه تصميم أن يساعدها على الرغم من أنها لم تطلب منه شيئًا قط, ترى

هل يحمل هذا القدر من الإنسانية أم أنه يسعى بحيلة جديدة وذكية للوصول إلى مبتغى كل من رآني ولكن على كل الأحوال، الأيام سوف تظهر الحقيقة, حمدت الله على أن أمها لم تعتلي الفرشة في هذه الليلة لأنها تعلم أول ما سوف يتطرق إلى ذهنها هو استغلال هذا الفتى وتقوم بوضع الخطة التي لا يعلم مجراها سوى الله تعالى.

تخاريف بردان

أبان الفترة الانتقالية التي اتخذها دعبس لتكون حدًا فاصلًا بين ما كان وما سوف يكون، انتابته نوبة برد شديدة مما أثر في حالته المزاجية قليلًا, فقد عاهد نفسه على أن يبدأ يومه بلا أسى على ما فاته في الحياة كي لا يضيع منه المستقبل بعد تعمقه في قراءة مجموعة من المقالات والكتب الصغيرة الخاصة بهراء التنمية البشرية الذي غزى العالم عن بُكرة أبيه وأصبح حديث كل فئات المجتمع, فمثلًا تجد محللًا كرويًا أو خبيرًا استراتجيًا لا يخلو كلامه من مقتطفات عن العادات السبعة للأشخاص الأكثر

نجاحًا, أو كيف تضيف شيئًا للحياة
وهو نوع من تحلية المرار الإنساني المعاصر, ويأتي بالإيجاب مع البعض في أحيان كثيرة، ولكن في حالة دعبس الواقع تحت تأثير مضادات الاكتئاب لا يزيده الأمر سوى اكتئاب نفس وضيقها تفاعلت أدوية الإنفلونزا بشدة مع مضاد الاكتئاب مما أدى إلى نوم دعبس المستمر فترة تزيد عن (٧٢ ساعة وأثناء اليقظة يقوم بمراجعة بعض مقالات التنمية المملة ومن ثم يغلبه النوم ثانية, لا يعلم كثرة نومه تلك الأيام هو نوع من حرمان النوم السهل في السابق أم هو هروب من خطط يجب وضعها لحياته المقبلة كما يقول علم التنمية البشرية وهو عاجز تمامًا عن إدراكها أو تطبيقها على حياته
وتحت وطأة الدواء الذي أصابه بالدوار ودوافع التنمية البشرية التي يعلوها شعار ابدأ بنفسك أو ابدأ الآن أزال عن رأسه الغطاء الثقيل وطقيته الصوف الشتوي، وقام بإلقاء الكتب مع مجموعة الأدوية في سلة القمامة, وذهب مباشرة إلى الماء
انسابت قطرات الماء على جسده في تلك الليلة الباردة، ولكنها كانت بردًا وسلامًا, كان هناك بداخله شعور أو إحساس أو نذير يخبره أن ما فات من الماضي كان هو الأشد قسوة وأن الغد سوف يكون مختلفًا أيضًا تسرب إلى أذنيه أثناء الاستحمام أصوات المنشدين وموسيقى الموالد والذكر المحببة إلى قلبه والتي توقف

عن سمعها منذ سنين مضت, لا يعلم تلك الحالة من الخيالات والنذير والماء البارد هو تأثير جرعة (البرستمول والكونجيستال والإكتفييد) وهي مجموعة البرد أم الزنكس (مضاد الاكتئاب) يرقص مع تلك المجموعة في حضرة مولوية ويذوب ليسيطر على تلابيب الخلايا العصبية للمخ ويحتلها

ارتدى دعبس ملابسه الشتوية الثقيلة والكوفية الحمراء والمعطف الأسود الصوف الذي يشعره بالاحتواء, واتعطر بعطره الشتوي الذي يميل إلى رائحة العود الطبيعي، ونزل إلى الشارع على غير هدى, توقف عند كشك السجائر واشترى علبة سجائر مالبورو أحمر على غير عادته فهو يفضل السجائر الخفيفة، ولكن برودة الشارع وخلوه من الناس مع أنها لم تتجاوز الثامنة أشعره باحتياجه لجرعة كبيرة من النكوتين وكأن الحديث سوف يطول بينه وبين سيجارته اليوم

وفي شارع الفلكي الذي عزف عن السير فيه منذ سنوات أو سار فيه في غيبة من مشاغل النفس انتبه لسيره وضع يديه في جيوب المعطف وتحسس قلبه الطريق, لم يكن يشعر بالوحدة مطلقًا بل انتابه شعور أنه في أفضل حال على غير عادته وأنه استطاع أن يتغلب على كم مهول من أفكاره السوداء وأصبح في حالة سلام مع نفسه, لم ينتابه هذا الشعور من زمن بعيد بل أحس أن رائحة الهواء عفية وجميلة وغيوم السماء التي كانت تسبب

له اضطرابًا أخذت تتشكل في عينه أطفالًا صغارًا بأوجة صافية ومبتسمة وناصعة البياض
وفي تقاطع الفلكي مع شارع حسين حجازي وجد تجمعًا من الشباب وبعض الأجانب أمام محل الدونتس المدرسي الذي تحول اليوم بقدرة قادر إلى مسرح ثقافي يتبع وزارة الثقافة وحمل اسمًا جديدًا هو (مكاني), دخل ليستطلع ما في الأمر فأوقفه أمن المكان واستعلموا عن تذكرة الحضور وتم منعه من الدخول, فكر دعبس في الخروج من المكان ونعل سلسفيل الأمن ولكن وجد نفسه يقف في صبر في طابور قطع التذاكر دون أدنى مشكلة وكأن هناك ما يسوقه إلى الدخول بلطف, بالفعل قطع التذكرة ودخل إلى الحفلة
وجد الإضاءة شديدة الابتكار والمكان غاية البساطة والموجات النفسية المنبعثة في ألفة هي سحر ذو تأثير شديد على النفس يدخلك إلى عالم شديد الخصوصية، رغم الجموع المنتظرة بدأ الحفل
انطفأت الأنوار وبدأت فرقة العازفين في الظهور واعتلاء المسرح يختبر كل منهم صوت آلته الموسيقية أمام الميكرفون وهناك شيخ معمم يبدو كفيفًا يصل إلى الميكرفون المخصص للغناء, لم يستوعب دعبس فكرة وجود شيخ يقف خلفه مجموعة من العازفين بينهم أجانب سوى عندما بدأت الموسيقى تعلن عن

نفسها
مقدمة تمهيدية لعازف الساكس جذبت الآذان إليها وأصرت الناظرين إلى أن احتضن العواد عوده وبدأ في عزف مقطوعة موسيقية (صولو) جعلت دعبس يعتللي بساط أحلام حياته سريعًا, احتضن العواد عوده وكأنه يمسك قطعة نادرة من جلباب أمه التي تركتها له للذكرى ورحلت حتى أخذت عيون دعبس في البريق ولبست روحه روح العواد في حالة من التوحد بالشجون ومع عزفه المتميز وبداية تقاسيم النهوند اغرورقت الدموع في عين دعبس بغير استئذان كان يشعر أنها دموع القلب التي طالما أخفاها, ومع تقاسيم الناي ازدادت الدموع أكثر في فيض (أحيانًا الدموع لا تكون بسبب ألم ولكن هي دموع الفطرة الإنسانية) التي يغلبها لحن شجي أو سعادة روح وتجلي حال
وعندما بدأ المنشد إنشاد قصيدته كانت مشاعر دعبس استوت تمامًا وتنتظر لحظة الهدر (يا ملكًا قدري وقدري لا يملك سواك, إن جئت بابك عاجزًا أنت لست أملك غير ذاك)
انسابت الدموع في هدير وخفت الروح, شعر دعبس مع الدموع أن الآلام كلها تختفي شيئًا فشيئًا, ترك الدموع والروح تتجلى عندما أجاد المنشد في غنائه كلمة عجزي ورقص بها على كل المقامات الموسيقية كأنها تنتفض من جراح عمر وسيرة إنسان مهما فعل فهو مسقوف بقدر وعجز

شعر دعبس أن المنشد يقصده هو كلما أطال وجود في غنائه ولعبت الخلفية الموسيقية من الطبول والناي حالة الراثي والمتعاطف مع دعبس الذي بدأ وجهه يتخلى عن الشحوب وجسده يتعافى من نزلة البرد ودرجة الحرارة المرتفعة بين عزوبة الألحان وصوت المنشد السماوي وكأنها مزامير تأتي من خلف السحاب لتشفيه
انتهت الحفلة وتم إضاءة المسرح, أفاق دعبس من حالة الوجد وتخلل الموسيقى جسده والتحامه بها على عنفوان من الصحة لا يعلم مصدره رغم مرضه. لربما عشق دعبس للكلمات واللحن الصوفي الشجي كان أكثر فاعلية من جميع الأدوية والكتب التي تعيد اكتشاف الإنسان لنفسه أو تخرج من كوامنه ما تعجز عنه الحلول التقليدية.
شرب من إبريق ماء موضوع كديكور بديلًا عن الكولدير فوجدا الماء حلو الشراب فزاد في شربه حتى امتلأ, خرج دعبس إلى الشارع بروح لا يعلم مصدرها وكأنه أفاق من غيبوبة أحزان عمرية, لربما أخرج قلبه بتدبير إلهي كل الشوائب المتعلقة بها عندما تعلقت روحه مع كلمة عجزي التي أنشدها المنشد وفهمها دعبس الآن فكل النرجسية والأنا الأعلى والزهو بالنفس كانت يجب أن تتوقف في مشوار العمر ولو حتى مصادفة كما حدث اليوم لتعترف بعجزها فتلك هو حقها الإنساني الذي لم يفهمه دعبس طيلة حياته وفهمه اليوم بعد ٣١ سنة هي عمره, أشعل سيجارته

في خفة وعاد إلى منزله بمشاعر جديدة وامتن اليوم لحكمة المرض ورسائل الله القدرية

نحن من نصنع من الأشخاص سببًا لوجودنا عندما نفتقد سبب الوجود, لم يتخيل ميدو قدر سعادة مريم عن التحاقها بورشة الرسم على الفحم في جاليري الشكمجة أثنى المدرب على موهبتها كثيرًا، فنظرت إلى ميدو بفرحة وامتنان ولكن أخبرها المدرب أنها تحتاج إلى وقت لدراسة الرسم من الناحية العلمية كالأبعاد والظلال كي تتجه إلى الاحتراف عن علم وموهبة معًا
لم يبالي أحد في الورشة بشكل مريم أو كونها تنتمي إلى طبقة متواضعة وكأن عنصرية المجتمع ذابت وتلاشت في هذا المكان وعلى أنغام موسيقى البيانو الهادئة لشوبان يعطي المدرب توجيهاته ويترك الملتحق لخياله ولحظات إبداعه, وقف ميدو بجانب مريم يشاهد هذا العالم الفريد من نوعه وتفحص وجوه الحاضرين بعمق وبعد فلسفي, فاكتشف شيئًا لم يعهده داخل شركته وجد أن الوجوه هنا مفعمة بشغف غريب وسعادة بكر, لا يوجد أحد في هذا المكان متأفف مما يعمل أو مجبر ويشعر بالضيق من كثرة مهام العمل وكأن الكل أتى إلى هذا المكان بإرادة وحرية فابتسم وشرد في معنى الحرية, انتبه على صوت الموظف الإداري للمكان الذي دعاه إلى دفع رسوم الالتحاق بالورشة

طأطأت مريم رأسها وهي تقف بجانب ميدو الذي أخرج من حافظة نقوده مبلغ الاشتراك واستلم الإيصال ومواعيد الحضور وأعطاها إلى مريم التي نظرت إليه وعينها مغرورقة بدمعة محبوسة لا تعلم إن كانت فرحًا أم حزنًا أم حيرة ولكنه خليط من المشاعر لم تستطع عينها إخفاءه,فهم ميدو عنها كل المشاعر وفي حركة احتواء تشابكت يده في يدها الصغيرة وكأنه حضن دافئ وخرجا من المكان تعلقت يد مريم بميدو وكأنها لم تعرف أحدًا في الوجود سواه وسألته (إنت بتعمل كل دا ليه)

ضحك ميدو وهو يسحب يده من يدها برقة وأنكر عن نفسه فعل أي شيء غريب أخبرها أنه نوى أن يساعدها منذ أن رآها أول مرة في جمعية الفنون الجميلة وأردف أنه كان يتمنى أن يساعده أحد منذ زمن بعيد وإلا يترك سجين طابور مكرر من أفعال البشر ولكن للأسف أصبحت حياته الظاهرة لكل الناس أنها مستقرة هي عبء عليه وسألها بصوت منكسر, تدرين لماذا يا مريم فنظرت إليه مستغربة وهزت رأسها بأنها لا تعلم

فأردف ميدو لأنها تفتقد شغف أن أكون حرًا فيما أفعل ولكني تعلمت منكِ يا مريم أنتِ درس حياتي الصغير العميق, استرسل ميدو في كلامه الفلسفي وكأنه يتحدث إلى أستاذ جامعي

عارفة يا مريم أنا اكتشفت حاجة صغيرة من ساعة معرفتك إن النجاح الإنساني الحقيقي ما هو إلا أن تفعل ما تحب لحين انتهاء

العمر حتى ولو كانت الظروف كلها صعبة وغير مواتية
ضحكت مريم وأردفت
مع إني مش فاهمة نص كلام حضرتك بس أنا عايزة حاجة واحدة دلوقتي
قامت مريم بتقبيل ميدو قبلة خاطفة وبدون أي نوع من الاستئذان (لا منطق من الاستئذان في القبل أحيانًا)
تصبب ميدو عرقًا من الإحراج ولكنه لم يمانع هو أيضًا في أن يربط على كتفها بحنان
وبطفولة استأذنته في أن يبقى معها اليوم بطوله أخبرته أنها سوف تريه نزهة الغلابة في شوارع وسط المدينة
دعها لركوب السيارة للبدء في النزهة
أخبرته أن من قواعد النزهة أن تكون سيرًا على الأقدام للشعور بالسعادة والحرية
قطعا شارع محمد محمود إلى ميدان التحرير ثم إلى كل ميادين وسط البلد أكلا الكشري من محل جحا وتفحصا فتارين المحلات عطفوا على الشحاتين وعرجا إلى حلواني العبد وكان من نصيب ميدو قطعة كبيرة الحجم من الإيس كريم المثلج أخبرته أن يرفع عن نفسه الحرج وهو يأكل وسحبته من يده إلى الرصيف ليطالع مشهدًا لم يره الكثيرون ولكن ذابت هي في هذا المشهد تجليًا
شوف يلا الناس

نظر ميدو فلم يلحظ جديدًا، فنظر لها وأردف كأنه لم يلحظ المشهد جيدًا

آه زحمة أوي

لا حضرتك مشوفتش كويس بص كل العلم إللي بتاكل جيلاتي دي يا باشا فرحانين بجد وهو دا زي مبيقولو بتوع السيما المستر سين بتاع وسط البلد هي الفرحة الرخيصة إللي مبتكلفش كتير ممكن تكون فرحة الصحبة بس مش أكتر ناس فرحنين إنهم مع بعض وبس

انبهر ميدو من إدراك مريم لتلك المعاني البسيطة عن الفرح والسعادة التي يبحث عنها الجميع ويوظفون جهدهم وإمكانتهم للحصول عليها فيغرقون في تفاصيل تلو أخرى دون تحقيقها واتسع شارع القصر العيني بأضاآته الساحرة ليلًا في عيني كل من مريم وميدو وكأنها بداية حياة جديدة لكل منهما حياة بلا صفقات مجرد حياة الآن فقط.

* * *

لم تعد الحبوب المنومة مؤثرة بالمرة، فالنوم الهادئ السهل لا يأتي بالرغم من زيادة جرعة الزولام إلى ٢ ملي, صوت فيروز الناعم أصبح رتيبًا نفس الصور الذهنية المتكررة مع كلمات الأغاني نفس الروتين اليومي الذي يوحي بالهدوء الظاهري ونفس الصراع

النفسي الداخلي.
اشتاق لسماع رنين الهاتف أو وصول رسالة من أحد ولكن بلا جدوى تتوالى الأيام ويبقى الهاتف مصابًا بسكتة قلبية ودماغية وكأنه قطعة من الحديد البالي، بالرغم من اعتزاز د سامي الشديد بهاتفه (الإستار تاك) الذي اشتراه في أيام العز بعد آخر رحلاته ككبير أطباء أعالي البحار, إلا أنه يفكر الآن في بيعه ليس سوى التخلص من شعور الانتظار الذي لا ينتهي ولا يتحقق سوى من شركات عروض التيم شير أو رسائل خدمة العملاء اشتاق أن يمازحه أحد أو يتذكره أحد ويلقي عليه السلام, شعر وكأن الأربعين سنة الماضية من عمره كان في صحراء خالية من البشر تمامًا ولم يمر بمراحل يكتسب منها صدقات تبقى ولو حتى صديق واحد يشاركه أيام الوحدة, وسؤال يلح عليه ويؤلمه أين الخلل أهو شخصه أم في أصدقاء العمر أم في الزمن الكاذب حتى شقيقته المتزوجة نيهال أصبحت كالأغراب تأتي فقط في الأعياد والمواسم أو عند مرض أحد الأبوين كيف يتحول الشقيق إلى ضيف ينظر في الساعة ويهم في الانصراف متحججًا بالأولاد والمواصلات وتلاهي الدنيا
يتذكر دائمًا أنه كان مجرد كان ولا جديد أين أحلام الصبا والشباب أين النجاح على الرغم اعتقاده بأنه يملك كثيرًا من المميزات والملكات على المستوى العلمي والإنساني

فشله المتكرر في اجتياز اختبار الخارجية بسبب الواسطة وحلمه ليصبح من الصفوة أو حتى ترك البلد بأكملها والرحيل إلى أي مكان آخر والهجرة جعله بالفعل يفقد الثقة في نفسه ويدرك أن أحلامه فقط في خياله ولكن على أرض الواقع لا شيء نعم هي الحقيقة ولكن كنوع من الحنين إلى الحياة أو هروب من الآن القاسي إلى الماضي الحاني يدفعه إلى دولاب الملابس الخشبي

يفتح الدولاب المرتب بعناية شديدة, وقد خصص الرف الأول لمجموعة من الجوائز التي حصل عليها جائزة الملك عبد العزيز في يوم التفوق وحصول الطالب سامي علم الدين على المركز الثاني في الثانوية العامة على مستوى المملكة, شاهدة تقدير من جمعية الكشافة المصرية والمركز الأول في الانضباط, جائزة نادي التجديف المصري لعام ١٩٧٩, شهادة الحصول على بكالريوس الطب والجراحة بتقدير جيد, شهادة إنهاء الخدمة العسكرية بتقدير جيد جدًا وأخيرًا المركز الأول في رقص التويست للأطفال على هامش مهرجان فنون الرقص والتعبير الحركي بالقاهرة والأسكندرية.

يفتح ألبوم الصور ذا الغلاف الأزرق وفي أول ملف صورته مع أقرانه في أولى رحلاته إلى الخارج وخلفه ساعة بيج بن في لندن, صورته في أول الثمانينيات كثيف الشعر مثل أشهر أبطال كرة القدم آنذاك, مجموعة من الصور في سيناء وأمامه دبابات العدو

بعد التحرير في أواخر السبعينيات, صورة وهو يداعب الدولفين مرتديًا بدلة البحارة)
يغلق ألبوم الصور ويرميه لأول مرة دون أي اكتراث في الرف الأول فتهتز الشهادات وتسقط هي الأخرى كما سقطت تلك الأيام من تاريخه وأصبح الآن أمام علامة الاستفهام الكبرى أين أقف الآن
يستلقي على الكرسي الهزاز ويغوص في تفكير عميق كل الصور التي شاهدها أكثر من مرة تدل على حالة من السعادة وجمع كبير من الأصدقاء وذكريات عمر مضى ويبدأ في حديثه الصامت لنفسه
(هو إيه الواحد مكتوب عليه يضحك في الصور بس وبعد كدا الدنيا تضحك عليه) وبعدين إيه كل الصحاب دي أي حد يشوف كدا يقول إني كنت هعيش طول عمري حواليا ناس دا حتى من كترهم أنا نسيت أساميهم للدرجا دي يا سامي بقيت ذكرى وأكبر حاجة تعملها إنك تفتح دولابك أنا لازم أحرق كل الصور والشهادات دي لا أنا هتجنن أنا عايز أتكلم مع حد أنا زهقان
أمسك د سامي بقصيص الصبار وألقاه بعصبية شديدة داخل حديقة فيلا الكيال, فتهشم تمامًا وأحدث دويًا عاليًا الصوت كسر حدة سكون الليلل, شعر بعدها د سامي براحة نفسية غريبة لا يعلم سببها هو تحطيم شيء ما أو كان إخراج طاقة غضبه وعدم كظمه للغيظ والتنفيس عما بداخله هو الباعث لتلك الراحة,

وإلى متى يظل الليل فقط هو الذي يواسيه ويحمل عن كاهله جم الأحزان وينعكس في النهاية في شكل سحابة سوداء أسفل العيون وكأنها ضريبة سهره حتى الليل يأخذ من السهري الثمن, عاد بعد هدوء نوبة الغضب يلملم الصور والشهادات ويعيد ترتيبها كما كانت, فتوقف وهو يضع شاهدة أفضل راقص وتذكر مانيلا الفتاة الكولومبية التي تعرف عليها على إحدى الشواطئ في جزيرة بالي وكانت من أكثر الفتايات الآتيات سخونة واهتمامًا بجميع تفاصيلها النسائية, سمرتها اللامعة وعينها السوداء وشعرها الغجري يعطوا للحياة مذاقًا خاصًا, كانت قد تجاوزت عامها الثاني والأربعين وتبدو فتاة في بدايات العشرين, عندما تعجب د سامي من سبب شبابها الدائم، أخبرته أنه بكل بساطة الرقص والرجال

كانت تعشق البحر حتى أنها تقوم بالسباحة طوال اليوم وفي آخر الليل ترتدي الثياب اللاتنية السمت اللامعة، وتترك شعرها الغجري ذا الرائحة الذكية يداعبه الهواء

صعقت عندما رفض د سامي إقامة علاقة معها بشكل كامل في البداية, وسألته هل لك حبيبة لا تريد خينتها؟ فأجابها أنه يعتنق دينًا يضع قيودًا على العلاقات الحميمة إلا فقط في حالات الزواج فتعجبت كثيرًا من ذلك, أخبرته أن الزواج يقع مرة واحدة في العمر ولذلك لم تشغل نفسها نهائيًا بموضوع الزواج, وأردفت

أنها تعشق معظم أنواع الرجال من كل شكل (الأروبي واللاتيني والآسيوي والأمريكي) فكيف بها أن تحجم جبح عشقها للرجال فهي غريزة بداخلها ولا تستطيع أن تفي لرجل واحد طيلة العمر وعلى أنغام التوسيت خطفا أنظار كل الحضور في ساحة الرقص بسبب براعة د سامي في آداء الراقصات بخفة مما انعكس على آداء مانيلا أيضًا وشعرت معه بنوع من الانسجام الغريب, تلك الليلة التي لم يستطع فيها مقاومة أغواء شيطانه وسحر مانيلا بعد وصلة الرقص المثيرة حيث وجد نفسه بداخل الكوخ البوص معها على الرمال عاريًا تمامًا كيوم ولدته أمه, اختللى بها بعد انهياره التام من الصمود أمامها لبضع ساعات, ابتسم د سامي عندما تذكر كلمتها القبيحة في تلك الليلة, كانت لا تجد حرجًا من فعل أي شيء

وصباح تلك الأمسية الخلابة بعد نوم عميق, وجدها تداعب خده بنوع من الزهور الاستوائية كبيرة الحجم التي لا يستطيع أن ينسى شكلها فهي تشبه زهرة اللوتس ورائحتها ذكية ونفاذة كرائحة الفانليا قامت مانيلا بفرك أوراق الزهرة بيديها وتعطير جسده في نوع من أنواع التدليك للجسد (مساج)

تنهد دسامي من اشتياقه لتلك الليلة التي تكررت بشكل متواصل على مدار شهر وهي فترة أجازته هناك وقبيل رحيله من بالي أخبرته أنها ينبت بداخلها ذريته, وهي متأكدة أنها منه فقلبها

فقط هو الذي يشعر بذلك وأردفت أنه بالرغم من تعدد لقاءاتها مع الرجال فهي على يقين أن ما تحمله من صلبه

استشاط غضبًا وأمسك رأسه وبدأ في التفكير, فلم يجد منها سوى روعة الإنسان بالرغم من عدم انتمائها إلى أي دين سماوي, قالت له إنها تتمنى أن تصبح أمًا وترغب في ذلك ولكن لا تستطيع أيضًا الضغط عليه ليرضخ لطلبها بترك المضغة تنمو في أحشائها

ودعته على وعد أنها سوف تقوم بتعاطي دواء سوف يؤدي إلى رحيل حلمها الصغير إلى غير رجعة, وبكت وهي تحتضنه بقوة وأردفت تلك هي آخر فرصي لأكون أمًا, فهي على الرغم من كونها فتاة لاهية ولكن حلم الأمومة ينبض بالفطرة داخلها كأي فتاة في قمة المجد كانت أو فقيرة تقبع لتمشيط البغال في السهول

فما كان منه سوى إخبارها إذا كانت تريد طفلًا فلا بأس, ولكنه سوف يرحل إلى الأبد بغير رجعة وينسى تلك التجربة في النهاية أو يعتبرها حلمًا جميلًا, فاق د سامي من أحلامه على كابوس إذا كانت بالفعل مانيلا لم تفِ بوعدها وتحمل منه ذرية لم يرها فشعر بتأنيب الضمير وغاب في دعاء

يا رب يا رب انظر لي نظرة رحمة يا رب أنا قصرت مع نفسي بس بجد أنا محتجلك أوي عشان أنا تعبان ومليش حد أكيد إنك سمعني, ويغير من وضعه مستلقيًا إلى رافع يديه بالدعاء والابتهال إلى أن بكى بكاءً لم يبكه طيلة حياته بكاء خيبة الأمل والوحدة

والعوز والضعف, ارتفع صوت أنينه إلى أن شعر باحمرار وجهه وملح دموعه وشعر أنه أزاح ما بداخله وتخلص منه في نوبة دعاء نسى فيها أنه طبيب ونابه وابن ناس ومثقف وتذكر فقط أنه عبد فقير إلى الله تعالى

* * *

استشعرت أم مريم تغييرًا غريبًا يطرأ على ابنتها, فأصبحت مريم تهتم بمظهرها بشكل زائد عن الحد بل استدعت سماح التي تقوم بتجهيز العرائس لكي تقوم بحف شاربها وتقليم حواجبها وذلك للمرة الأولى بعد رفض دام طويلًا, اشترت مريم زجاجة عطر (برفيم) بريتني سبيرز من محل عطور التركيب بمحطة ماري جرجس وطلاء أظافر قرمزي اللون ماركة لونا من أجزخانة حجاب بالمنيل وأصبح لمريم درج خاص بمستحضرات تجميلها ومتعلقاتها الشخصية

فالأمر تغير منذ معرفتها لميدو فقد شعرت أنها أنثى فقط حين تعرفت على هذا الشاب وكأن الفتاة في حقيقة الأمر تكون حياتها عبارة عن طور من الطفولة والصبا والمراهقة إلى أن يبدأ قلبها بتعلق برجل فتتحول تدريجييًا إلى الأنوثة التي تقوم هي على رعايتها بنفسها

وبين الحين والآخر تختفي مريم بضع ساعات من اليوم وهي

ترتدي الملابس التي قامت بسحبها على النوتة من دكان السنيورة بالوكالة وتعود ليلًا منتشية ووجهها منير وفائق الجمال وكأنها تجرعت إكسير الحياة

وأصبحت تتعلل كثيرًا عن النزول إلى اعتلاء الفرشة ليلًا أنها متعبة وتحتاج إلى الراحة أو لديها عذر قهري يحتم عليها عدم النزول وكانت تعلم أن أمها لن تتركها إلا في حالة واحدة فقط وهي كسر عينها بالمال فتصبح بذلك بمنأى عن إزعاجها المستمر بالسؤال أين كانت أو أين تذهب

فأخبرت ميدو بذلك الذي بالطبع انصاع إلى ما تقوله مريم وفي نهاية كل موعد كان يعطيها من حافظة نقوده مبلغًا من المال كي تسمح لها أمها بالنزول وتركها الفرشة ليلًا

فهمت أم مريم بشكل أو بآخر ظهور رجل في حياة ابنتها ولم تسأل مريم يومًا عن مصدر المال وتظاهرت بتصديق كذب ابنتها أنها مدخرة مبلغ من المال حصيلة بيع رسوماتها لمعارض فنية وطلبة الكليات التطبيقية

لكن في ظل إلحاح الأستاذ أيمن شرف الزائد وتلويحه لأمها أنه بدأ الملل يتسرب إلى قلبه وأنه سوف يوقف نزيف المبالغ المالية التي تسحبها منه كل أجازة بحجة إمالة رأس ابنتها وإجبارها على قبول عرض الزواج واحتمالية صرف النظر عن الأمر برمته

كان لا بد من مواجهة لحسم الأمر لم تستطع أم مريم في هذا

الوقت أن تجني مكاسب مادية من كذب ابنتها ومن أستاذ أيمن في آن واحد، فبالرغم من استفادتها من الطرفين عليها الآن أن تختار

انتظرت أم مريم ابنتها ليلًا وعندما دخلت مريم من الباب وجدت أمها مضجعة على الأريكة الإسطبمولي ذات الورود الحمراء الدامية ونادت عليها في غضب

خدي يا بت يا...........

وابل من السباب بأفظع الألفاظ خفق قلب مريم بشدة خلعت حذاءها البرليني الذي قام ميدو بشرائه لها من محل شهير بالمهندسين وأخذت في الركض حتى باب غرفتها

تحولت الأم إلى وحش آدمي أو غول أو مشهد من راية وسكينة هرعت أمها من مكانها في خفة غريبة وقبل أن تغلق مريم باب الغرفة أمسكتها من شعرها الذي خلع عنه الحجاب وسحبتها إلى الأريكة وسحبت من فوق الأريكة المخدع الأصفر البالي وجسمت بكل ثقالها على صدر مريم التي أصبحت خائرة القوى ووضعت المخدع على وجهها وصاحت

هخنئك يا بنت الكلب يا.......

زعر في عيني مريم وعرق أمها ينهمر على وجحها من شدة المجهود وعينها الجاحظتين وأسنانها الصفراء جعلا من الأم شديدة الشبه بالسفاحين من النساء وهمت برفع المخدع إذانن بالبدء في عملية

الخنق وقالت بصوت غريب وكأن شيطان يتحدث من خلالها
هتقولي ماشية مع مين ولا أدفن إللي خلفوكي هنا
لم تستطع مريم أن تلتقط أنفاسها لتتكلم وأخذ وجهها في الاحمرار الشديد, فقامت الأم بجرها من شعرها مرة أخرى وأحكمت قبضتها عليه وقامت بلفه على يدها وأضجعت على الأريكة وهي تصيح
خرستي ليبه قولي يا بت اسمه إيه إللي عشقاه دا قولي لأموتك
لم تتحمل مريم الألم أكثر من ذلك، كانت تريد أن يبقى ميدو بعيدًا عن أفكار أمها الخبيثة، فصاحت خلاص هحكيللك
انطقي بقولك
فصاحت مريم دا الأسطى حسن الكهربائي
تركتها أمها ومسحت بيديها على وجهها ورأسها ثم ضمت يدها الاثنتين في شكل قبضة وانهالت بهما على صدر مريم في حركة سريعة كانت تنهي بها دائمًا مشاجرات الشارع دفاعًا عن مكان فرشتها من المتطفلين فارتطمت مريم بالحائط وسقطت على الأرض
وفي ثقة بلطجي منتصر نادت بصوت أجش
تعالي يا بت وهاتي الشبشب دا في إيدك أصلي مش هسيبك تعالي
قامت مريم بصعوبة وأحضرت النعل في يدها وتوجهت به نحوها وأغلقت عينها وانتظرت نصيبها من اللطمات والصفع

أخبرتها أمها أن الأسطى حسن يسهر معها كل يوم عند الفرشة مسطول وقامت بصفعها وقرصها من منطقة حساسة وكأنها عملية تعذيب ممنهج

فصرخت مريم واعترفت بكل شيء في انهيار

اسمه أستاذ أحمد ناجي وساكن في ٩ الفلكي عند فيلا همت الكيال وزبونا كمان أبو عربية سودا إللي بيسيب الفلوس على الطوبة وبيمشي من غير كلام

استجمعت الأم ذاكرتها وتذكرت شكل ميدو، فهي تعرفه جيدًا منذ صغره يكفي فقط الدقائق المعدودات التي يتلقط فيها الجرائد من أعلى الفرشة حتى يتعطر الجو من رائحته الفواحة، كانت تعتقد أنه ذو حيثية وهيبة لقلة كلامه فتتجنب التنطع عليه وجره في أي حديث لتستوضح أمره

فكت الإيشارب الأسود من على رأسها وقامت بقمطه في حركة سريعة، وكأن مرحلة العنف قد انتهت تمامًا وأمرت مريم أن تحضر لها زجاجة مياه من الثلاجة الإيديال ذات اليد المغلفة بأكياس القمامة السوداء لعزل الكهرباء

أخذت جرعة بهيمية من الماء وكأنها تملأ خزان وقود سيارة وتأجشت ثم أعطت ما تبقى لمريم كي تشرب

شربت مريم بضع قليل من الماء فنظرت لها الأم وقالت بصوت كالحفيح احكي كدة يا بت من الأول عايزة أعرف كل حاجة من

كعادة والدته دائمًا في الصباح ممسكة بفنجان القهوة, ترتشف منه رشفة وتضعه جانبًا بجوار الأبجورة ذات الإضاءة العالية التي تساعدها على رؤية الحروف بوضوح تسحب القلم الأصفر الفسفوري من علبة الأقلام وتبدأ في وضع خطوط على الوظائف الشاغرة المتعلقة بمجال الطب في الإطلاق, أملًا منها في أن يعثر ابنها على مبتغاه وفي قلبها دعاء أن يجعل الله لابنها في تلك الوظائف نصيبًا وتنتظره حتى يستيقظ لتعرض عليه الأمر

يخرج د سامي من حجرته بعد أذان المغرب مسرعًا إلى دورة المياه يقضي حاجته ويتوضأ لصلاة ما فاته أثناء نومه من ظهر وعصر ومغرب ويتفادى النظر في وجه أمه الجالسة في انتظاره،

فقد تعود منها على ذلك يومًا بعد يوم, يبدأ في الصلاة وعقله مع أمه وأحلامها يحاول التركيز في صلاته ولكنه ينسى عدد الركعات وحديث النفس يعلو وتيرته, الآن بماذا سوف أتعلل لم أستطع أن أفرح قلبها يومًا من الأيام, على العكس أصبحت أمي تتفادى الحديث عني في جلسات الجيران المسائية عندما تبغتها أحدهم بسؤال ماكر عني

(هو الدكتور سامي مش هيفرحني بقى بعياله, دا إللي في سنه دلوقتي ولادهم في الثانوي) لم أستطع أن أرفع عنها الإحراج طوال ثلاثة أعوام, ينهي صلاة بعد أخرى ويختم وكأنه يسقط الفريضة فقط لم يسمح له تواتر أفكاره بالخشوع أو الدعاء أو السكينة يخرج من غرفته إلى حجرة الجلوس بجوار والدته ويبدأ في الحديث العادي

إزيك يا ماما النهاردة, ختي الدوا أنا هعمل قهوة أعملك معايا تجيب أمه بالرفض وتبدأ في رسمة بسمة أمل على وجهها (بس بسرعة يا سامي تعالى علشان في أخبار حلوة)

يجلس د سامي مرتديًا بيجامته الكستور المقلمة قلم لبني وآخر أبيض ويخلع شبشبه الأزرق ويجلس القرفصاء ويميل برأسه إلى موضع يد أمه على صفحة إعلانات الوظائف في جريدة الأهرام ويمعن النظر

شركة كبرى تعمل في مجال الرقابة على شركات الأدوية تطلب

مدير تنفيذي حاصل على بكالريوس الطب بتقدير عام جيد وماجيستير في إدارة المنشؤات الطبية بمرتب مجزي وتأمين صحي واجتماعي كامل ويفضل قاطني مدينة القاهرة وخبرة لا تقل عن ٥ سنوات

البريد الإلكتروني........................ وآخر ميعاد للتقديم آخر الأسبوع القادم

في تنهيدة طويلة يربط على كتف أمه بيد حانية (واللهي يا ماما معنديش أي مشكلة بس إنتي شايفة خبرة وماجيستير وأنا زي مانتي عارفة آخر حاجة اشتغلت فيها دكتور كانت على مركب في عرض البحر)

يابني بس قدم محدش عارف النصيب فين وإنت تعبت وأكيد ربك هيكرمك يا بني.. بس حاول وحياتي عندك واعمل إللي عليك وسبها على ربنا)

أخذ د سامي كلام أمه على محمل الجد مع عدم اقتناعه تمامًا بجميع الوظائف المتاحة عن طريق الإعلانات المبوبة ولاكنه رضخ لطلب والدته ليفعل أي شيء يحرك به المياه الراكدة في حياته ويأخذ بالأسباب ويبدو أمام الجميع أنه مستسلم للارتياح ويتكئ على معاش والديه دون إحساس بتأنيب الضمير

سمى الله وضغط على زر إرسال وحدثه يقول له إنه لا أمل, تنقل بين صفحات الإنترنت ما بين أخبار محلية وعالمية ورياضية

لم يجد أي شيء جديد عن البارحة, ضغط على قائمة الاختيارات المفضلة واختار موقع الجديد في عالم الطب الذي يصدر برعاية الجمعية الأمريكية للطب ويهتم بأهم الأبحاث الطبية الجديدة في شتى المجالات ويصدر بالغة الإنجليزية وجد صورة سيدة متصدرة الصفحة والعنوان الجنين وتأثير الجينات الوراثية على سلوكه لم يهتم بالعنوان على قدر اهتمامه بالصورة نعم هي هي إنها عبير

لم أنسَ تلك الابتسامة الهادئة قط لا أنساها عبير فتاة أحلام الجامعة ورفيقة الدرب «عبير صاحبة التيير الشانيل الأزرق والسيارة المزدا ٣٢٣ قرأ الموضوع كله واندهش من مجموعة الشهادات التي حصلت عليها وأنها الآن لها مجموعة من الرسائل العلمية تدرس في مجال تخصصها.

يااااااااااااااااة عبير قالها بامتنان وحنين إلى أيام مضت تذكرها في المعمل ناظرة إلى الميكرسكوب وشعرها ينسدل على كتفيها بنعومة ورقة عندما رفعت رأسها فوجدته وألقت عليه السلام وبالكاد سمع صوتها الحاني.

أنا آسفة يا دكتور أنا عارفة إنك محتاج تعمل التجربة بسرعة.. أنا شكلي خدت وقت كبير

وجد فيها رقة وخجل وتاهت منه الكلمات وتابعها إلى الكافتريا وعرفها بنفسه ومن هنا بدأت قصة حب هادئة الظلال. لم

يندهش كثيرًا عندما وجد عبير وصلت إلى تلك المرتبة العلمية الرفيعة, فحماسها كان دائمًا حقيقيًا لا زيف فيه حتى عندما تتحدث عن الأشياء التافهة, كانت عقلانية بشكل كبير لا تخضع نفسها إلى صولجان الهوى حتى عند لحظات الفراق لم تدمع عينها ولم يحس منها بأي نوع من الضعف جلست معه في تراث النادي الأهلي وخاطبته بالمنطق والحجة

أخبرته أن كل ما يشغلها الآن ليس الزواج وفتى الأحلام كباقي أقرانها إنما هي حلمت أن تكون عالمة أو باحثة وتحقق أشياء ملموسة تفيد بها البشرية......... سكت لبرهة ونظر لها نظرة أفلح إن صدق ودعها بأدب جم ولكن صوتها لم يزل يرن داخل أذنيه على فترات متباعدة أدرك أن أحلامها لم تكن لها مجرد أضغاث أحلام بل واقع عاشته واستطاعت أن تبلغ جميع آمالها.

أما أنا الآن ماذا لا شيء سوى سكون وخراب يشاهد ما حوله من تحرك الزمان ويأسى على نفسه بل يقف عند الماضي يجلد في ذاته,

قطع حديث نفسه رنين هاتفه

ألو مساء الخير د سامي حضرتك عندك مقابلة إن شاء الله في مدينة نصر الساعة ١٢ ظهرًا يناسب حضرتك الميعاد

استعجب د سامي من سرعة الرد عليه من قبل القائمين على متابعة الإعلان فبالتأكيد تلك الوظيفة وهمية أو يكتنفها الغموض

تردد في الإجابة ثم أردف طبعًا يناسبني إن شاء الله بس آخد العنوان بالتفصيل من فضلك

أخذ العنوان بخط منمق وهرع إلى أمه ليبشرها وانتابته حالة من الحماسة الوقتية حقًا إنه يوم غريب يأتي فيه أكثر من مفاجأة مشروع عمل وهاتف من الماضي أخذ البريد الإلكتروني لعبير وبدأ في كتابة رسالة صغيرة ورقيقة

(إلى أجمل فتاة رأتها عيني، أنا سامي علم الدين هل تتذكريني....... المخلص لكِ وقام بوضع رقم هاتفه واختار من صندوق الأشكال وردة بيضاء اللون وقام بالضغط على زر إرسال)

لم يكن تعلق د سامي بعبير يندرج تحت مسمى الحب أو العشق فهو مجرد نوع من الاستلطاف والتعود والمشاركة الهادئة، فهي فعلًا ظلال علاقة رومانسية وشبه قصة حب يعلو فيها صوت العقل عن صوت القلب, فكان التشبس القوي باستمرارها غير منطقي بالمرة لأن أحلام هذا الوقت كانت كثيرة ومن الحماقة اختزالها في حلم واحد فقط.

* * *

تقيحت عينا مريم من أثر البكاء الشديد جلست على سريرها داخل غرفتها في وضع القرفصاء وكأنها في حبس انفرادي مرت بقلبها على الأشهر المعدودات الفائتة التي كانت فيها بصحبة

ميدو كم شعرت أنها تم ولادتها من جديد، تعرفت على أشياء لم تكن تعرفها من قبل واتطلعت على عوالم جديدة لم تكن لتدخلها سوى عن طريق السرحان في صورة من مجلة أو مشاهدة فتاة تجلس بالقرب من حبيبها داخل سيارته تحتضن ذراعه
كان ينتابها شعور بالأهمية عندما تنتهي من ورشة الرسم وتجده منتظرها ويهم بفتح باب سيارته لها عند قدومها لم تشعر قط أنه يريد منها شيئًا سوى أن تكون سعيدة كان ينظر لها وهي تشرب من كوب عصير البطيخ عند توت إكسبريس ويبتسم لها ويعلق على طريقة مسكها للشفاطة بكلتا يدها أنها فتاته الصغيرة وأن كل فعل تلقائي تفعله يشعر بأنه طبيعي لا افتعال فيه وهذا ما يميزها كان دائمًا الثناء على قدرتها الفائقة على الفهم والاستيعاب وسرعة البديهة
وذات مرة احتضن يدي طول الطريق واعترف لي أني الفتاة الوحيدة التي عندما يلمس يدها يشعر كأن ما به من شتات وعواصف داخلية يهدأ تمامًا ويجتمع شمل روحه الحائرة
ولكني كنت في كل مرة ألقاه فيها أشعر أنها آخر مرة وأن قصة الأستاذ ميدو هي مجرد حلم ليلة صيف وفي طريقه للزوال فأبذل كل جهدي ليكون يومي معه هو أفضل يوم كأنه صلاة مودع
أتعجب بكل ما يحمل هذا الفتى الطيب من نبل البشر إلا أنه بداخله هذا الجبل من الوحدة التي تزيده الأيام نحرًا وكأنني

الشيء الوحيد في حياته الذي يحتمي فيه من هذا النحر المؤلم ويبعث بداخله أملًا للغد

بالتأكيد كان يحتاج لي هو الآخر وأعتقد أن لقاءنا رغم التفاوت الطبقي الملحوظ بيننا كان مدبرًا لإنقاذ روحه من وحدتها وأن أجد أنا من يرعاني ويعولني بإخلاص

وبعد كل ذلك تريد أمي أن أدبر له مكيدة لم تقتنع مطلقًا أنه يفعل كل ذلك دون مقابل أصرت على أنه يريد مني الشهوة الحيوانية أو يقضي وطره فهي تعتبر أن هذا هو الشيء الوحيد الذي أمتلكه أنا

تنهدت واكفهر وجهها وهي تفكر في أمها وكيف تحمل داخل قلبها الأسود هذا الكم من المكر والشر بحجة أنها فقيرة وعاشت حياتها في ضنك وظلم وكيف يصل انحطاط أمي الأخلاقي أن تجعلني أعرض نفسي عليه أو أحاول إغواءه كي يقع معي في المحظور لتضغط عليه بمعرفتها كي يتزوجني ومن البجاحة المفرطة أن تعترف لي أنها لديها عرض أفضل وأسهل ولكنها ترى في عيني أني أريده, فحولتني إلى عاهرة لمن يدفع الثمن الأكبر الطامة الكبرى أنها بدأت في وضع الخطة بالفعل منعتني من النزول إلى الشارع وأعطت أبي مبلغًا من المال تكفي بقاءه مسطولًا في المنزل وقامت بتعيينه حارس في مقابل أن يقوم بمنعي إذا حاولت النزول

تنهدت بألم ودعت حسبي الله ونعم الوكيل أنا بدأت في الشك أني لست ابنة هؤلاء البشر

بالتأكيد سوف يعتري ميدو القلق ويقوم رغمًا عنه بسؤال أمي عن سبب غيابي سوف يفعل لا محالة وانهمرت الدموع من عينها وهي تسترسل في خطة الأم

سوف تتدعي أني مريضة طريحة الفراش وتوصف له مكان المنزل بعد أن تقوم بتسريح أبي بأي حجة

وتنتظر ساعة وتأتي وإن لم تجده معي في السرير سوف تشوه وجهي بماء النار كما كان في خطتها والتي وافقت عليها رغمًا عني أو بإرادتي نعم من الممكن أن أهرب أو أن أحاول الاتصال به لإبلاغه بألاعاليب أمي الشيطانية ولكني لم أفعل ورضخت إلى ما قالته أمي نعم وجدت أن هذا حل سحري لكي أمتللك هذا الفتى لبقية العمر نعم أريد أن أمتلكه

عبث وجهها وهي تنظر إلى المرآة المكسورة التي ظهر فيها وجهها نصفين كأنه انعكاس للخير والشر بداخلها وصرخت

آه أنا كدة بالظبط

وجه بريء لا يريد من ميدو سوى أن يكون بجانبه فقط ينهل منه حبًا وعشقًا ورجولة وشهامة ويريد أن يدفعه كي يبتعد عني فسوف يصيبه هلاك وأزى بسببي

ووجه آخر مثل وجه أمي القبيح الانتهازي أحاول أخفيه ولكنه

يظهر وكأنه مكتسب من جينات الأم أريد أن تستمر الخطة بل وتنجح حتى وإن أفقدني عفتي، فلا أبالي سوف أفقدها في يوم ما, الفتاة بداخلي وكل شيء يتمناه بجنون ولكني أعلم كل العلم أنه لا يتمناني أنا له مجرد دمية تلهيه يضحك على تصرفاتها ويشعر معها بنوع من المشاركة والأنس وفرحة تقديم العون لمحتاج وأتساءل لماذا اختارني أنا كدمية أم القدر هو الذي ساقني إليه.

أغمضت مريم عينها وهي تشعر أن الكل يستغلها أمها وأبوها على الجانب المادي وميدو أيضًا على الجانب الروحي، وفي زحام أفكارها سمعت أزيز باب المنزل ورجل أمها الثقيلة، وهي تدخل مباشرة إلى غرفتها حاملة أكياس سوداء وتصيح

الواد مستحملش تغيبي عنه يومين جالي النهاردة وسأل عليكي دمعت دمعتين وقلتلوا إنك عيانة وادتلوا العنوان هيجيلك بكرة جهزي نفسك

وأخرجت من بين الأكياس قميص نوم أحمر قذفته في وجه مريم وضحكت بخلاعة

البسي دا بكرة هيساعدك

* * *

تلقى د سامي اتصالًا مفاجئًا من أخته ليلي تستغيث به من بطش زوجها الذي تمادى في قسوته وقام بصفعها وطرحها أرضًا

مما أدى ارتطام رأسها في باب حجرة النوم وإصابتها بجرح قطعي بالرأس

هرع د سامي إلى دولابه وأخرج شنطته الطبية بنية اللون, وارتدى ملابسه في عجالة واستقل سيارته مسرعًا إلى حي المعادي, ركن سيارته وترك المصعد قاصدًا السلم اختصارًا للوقت, رن جرس الباب بعنف وعصبية ففتحت له ابنة أخته (جان نور) الطالبة في المرحلة الإعدادية منهارة فضمها إلى صدره وأخذ في تهوين الموقف عليها, دخل إلى حجرة النوم فوجد نيهال أخته في حالة إعياء وضعف شديد ناتجة عن الصفعات الكثيرة أثناء المشاجرة, ارتمت أخته في أحضانه باكية واحتواها بكلتا يديه في حنان أخوي حتى هدأت تمامًا, ثم بدأ في تضميد جراحها عن طريق بعد المطهرات والمراهم الملطفة وأحضر قطعة من الثلج وأخذ بالمسح بها أعلى الأجزاء المتورمة بوجهها.

عندما بدأت أخته بالتعافي وشعرت بالأمان أخذت تحتضنه وتقسم عليه ألا يتركها مع زوجها مرة أخرى وأنها تريد الطلاق منه طلقة بائنة, لم يستوعب د سامي كم المشاعر الحزينة التي تملكت أخته في هذا الوقت, كل الذي يحاول اكتشافه هو سبب اندلاع المشاجرة وتدعيتها, فهو بالكاد يعرف زوج أخته عمرو ولكن لا يرتاح إلى سريرته, فهو من وجهة نظره شخص انتهازي من أول يوم له في الزواج حيث إنه تنصل من كثير من وعوده

قبل الزفاف بأيام ليضع أباه تحت ضغط الأمر الواقع ليرضخ على إعفائه من بعض التزماته وقيامه هو بشرائها عوضًا عنه
وفي أثناء غربته في أعالي البحار كان يكفيه مجرد الاطمئنان من أمه على حال أخته إنها بصحة جيدة وتعيش هانئة مع زوجها وأولادها, واتضح أنها أخفت عنه الكثير من القبح بغريزة الأمومة
نظر إلى محتويات الشقة، فوجد أغلبها مبعثرًا على الأرض مع تهشم المرآة وانتشار الزجاج في كل مكان, لمح أيضًا نظرات الخوف والحزن في وجه نور جان وأخيها الطفل الصغير عمر بدى شاحب الوجه
تجرعت أخته كوبًا من الماء بينما جلب د سامي كرسي التسريحة، وجلس أمامها وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة وبدأ بالتدخين
واعتلى المكان الهدوء الروحي بعد نصف ساعة من وصول الأخ
أخبرته أخته شاكية, إن زوجها الذي حارب من أجل زواجهما, لم يعد يحبها كما كان والأنكى من ذلك أنها اكتشفت أخلاقه السيئة وسبابه لها بالأهل على أتفه الأسباب حتى وإن تأخرت في إحضار كوب من الماء, وإن هددته باللجوء لبيت أهلها يأخذ في القسم بأنه سوف يذهب إلى أبيها وينكل به أمام الجيران وسوف يتحول الأمر إلى فضيحة
بكت الأخت في أسى وهمست في حضن أخيها
انتظرتك كتير يا سامي بس لما جيت وشوفت إن الظروف ملخبطة

معاك مردتش أتقل عليك بمشاكلي
شعر د سامي بالحمية واستشاط غضبًا عندما أردفت أخته ببعض الحكايات الغريبة عن زوجها وعنفه المتنامي في الفترة الأخيرة على أهل بيته
سألها د سامي سؤالًا في برود طبيب جراح, أخبرها أنه يوجد مثل فرنسي يقول فتش عن المرآة فهل يوجد في حياته امرأة أخرى تأثر في علاقتهما بالسلب, وقبل أن ترد سمع أزيز فتح باب الشقة وصوت زوج أخته ثائرًا
اوعي تكوني لسة هنا وملمتيش هدومك وغورتي, ودخل مسرعًا إلى غرفة النوم فوجد د سامي واقفًا أمامه مباشرة في غضب, وهنا تحول الأمر تمامًا
خفض الزوج الثائر من صوته وتصنع الابتسامة الصفراء وسلم على د سامي وهم بتقبيله فأبعده د سامي عنه بقوة, وسأله بصوت هادر
إنت عامل راجل على أختي يا عرة إنت
فما كان من زوجها إلا التطاول مرة أخرى على أخته وسبها وقال بصوت جاهوري
إنتي فاكرة الدكتور العوطلي الصايع دا هيخوفني دا عالة على أبوه وأمه بيصرفوا عليه وهو ذي الشحط وعامل فيها شيخ المثقفين وعلامة

لم يعطه د سامي فرصة لتكملة كلامه وصفعه على وجهه ثائرًا لكرامته وتبادلا اللكمات وأصبحت غرفة النوم حلبة مصارعة ولمن الغلبة في تلك الجولة

لقن د سامي زوج أخته درسًا فقد كان يضربه بغل ومرارة سنين عجاف استعان فيها بالصبر على كل شيء منذ أن وطأت قدمه أرض مطار القاهرة, حتى استسلم الرجل نهائيًا واحتمى بأولاده الصغار كي يتوقف د سامي عن الركل والصفع

حذره د سامي بأن المرة القادمة لا يكفيه رميه من شباك المنزل، وإذا سمع أي شكوى من أخته ثانية سوف يحرر محضرًا ضده وأنه على استعداد تام لملاحقته في جميع المحاكم وخرج من الغرفة يتمم

مش إنت قلت إني صايع وحياة أمك أنا فضيلك ومش ورايا غيرك هعملك تسليتي يا ابن الكلب

يلا يا نهال لبسي العيال هخدك معايا هنروح القسم نعمل محضر نحبسه الأول لأنك محتاجة أكتر من ٢١ يوم علاج وتيجي بيت أبوكي على دمعنا إنتي والأولاد

فما كان من الزوج الذي استأسد على أخته أن يتحول إلى نعامة بعد سماعه تهديدات د سامي ويقوم إليه يستسمحه أن يعطيه فرصة ثانية من أجل أولاده ولا يهدم البيت القائم حتى ولو كان هو مقصرًا

فكر جاليًا د سامي في الموقف واقتضت الحكمة أن يترك الأمر هكذا بعد تلقين الزوج درس فيكفيه هذا الآن ولا يستدعي تصعيد الأمر من أجل الأطفال الصغار

لملم عدته الطبية وقبل وجنة أخته التي رغم الألم وجد فيها نوعًا من الزهو باسترداد كرامتها المهدرة والاحتماء في أخيها العائد والحاضر بقوة لدعم عائلته الصغيرة

أدرك د سامي عندما انتهى الموقف, أن بالتأكيد تسرعت نيهال أخته في الزواج, فكيف لم تنتبه لأخلاق شريك العمر منذ أيام الخطوبة فبالتأكيد كان هناك مؤشرات عن سوء أخلاقه ولكنها تغاضت عنها آملة في ارتداء فستان الزفاف الأبيض, وها هي الآن تواجه الحقيقة من راحة بالها وسعادتها التي تحولت إلى القبول بالأخطاء ونسيان الصواب

فكر في إهانة زوج أخته له الذي نعته بالعواطللي, لم يكن يضمر في نفسه أن يتطور الأمر إلى حد الاشتباك بالأيدي, فكل ما كان يريده هو الركون إلى الدبلوماسية لأن جميع البيوت لا تخلو من المشكلات، ولكن تلك الكلمة التي أصابته في الجرح الذي يعانيه هي التي جعلته يثور تلك الثورة

وجد د سامي نفسه بعد ساعة من خروجه من منزل أخته لم يخرج من حي المعادي نتيجة انشغال فكره, فركز أخيرًا في الطريق إلى أن أوقفته إشارة المرور التي تحولت إلى اللون الأحمر

فتوقف بشكل مفاجئ وأثناء استرجاعه للموقف مرة أخرى وجد سيدة طاعنة في السن وقعيدة تلتف حول السيارات تستجدي المنتظرين فتح الإشارة, وعندما وصلت إليه أشاح بوجهه جانبًا فهو بالفعل لا يمتلك المال الفائض عن حاجته للتصدق وحتى لا يستطيع ردها بأدب كما تعود في معاملته للشحاذين فهو من الوارد أن يردهم بلا نوع من جبر الخواطر
فوقفت مباشرة بجانبه وقالت (امشي يابني وربنا هيفكها عليك قريب)
أصاب الدعاء قلبه مباشرة وكأنها رسالة إلهية على شفاه تلك العجوز التي لا تعرفه فاستبشر خيرًا وابتسم لها وانطلق مسرعًا عند تغيير الإشارة إلى اللون الأخضر, ففي نهاية هذا اليوم شديد الظلام أكرمه الله ببشرى على لسان عجوز لم تطلب منه إحسانًا بل أحسنت هي عليه فهكذا يفهم د سامي عن الله

* * *

باءت خطة أم مريم بالفشل لم يحضر ميدوا كما ادعى, يمضي يوم تلو الآخر من أيام الأسبوع دون أي جديد, كانت مريم مرتقبة وصول ميدو ليس لتنفيذ خطة أمها ولكن كي تعرف موقعها من حياة هذا الفتى, هل هي مجرد الدمية التي من السهل عليه أن يتركها أم فعلًا يرى فيها شيئًا جميلًا يدعوه إلى البقاء جانبها,

أهلكتها الحيرة ومع كل يوم ينفرط تقترب مريم من الحقيقة التي لا تريد تصديقها مطلقًا

أفرجت عنها أمها بعد أن عايرتها أنها كانت له مجرد عطف ليس أكثر وأنها لم تستطع إغواءه فهذا الفتى رحل ولن يعود لها ثانيًا شعرت أمها بالانتصار وأن الوقت حان لإتمام صفقتها مع أستاذ أيمن شرف بأقصى سرعة

تألمت مريم من ردة فعل ميدو غير المتوقع لغيابها, حاولت أن تبحث عن أي مبرر آخر لعلاقتها بميدو, حتى تكتم نغزات الشيطان والنفس التي تخبرها أنها ليست سوى إنسان وضيع رخيص بائعة جرائد من عوام المجتمع,, جابت كل مكان يمكن أن تعثر لميدو فيه على أثر إلى أن هداها تفكيرها للوقوف أمام سور فيلا همت الكيال الذي يقوم ميدو بركن سيارته بمحازتها, في نهاية اليوم بعد أن أنهكها الانتظار شاهدته ينزل من السيارة ويحمل معطفه في يده فهرعت إليه في قلق وتشتت

ابتسم لها مرحبًا ولكن كان في سلامه نوع من الفتور الشديد وكأنه لم يعرفها من قبل أو يخفي شيئًا ما, وقفت مريم تطلع فيه وبدى عليها الإرهاق الشديد لا تعلم هل بسبب السجن في المنزل أو السجن في مشاعر عاشقة محطمة وتأنيب ضمير على موافقتها على الإيقاع بميدو في لعبة منحطة أحكمتها أمها الشريرة طلبت منه أن يذهبا إلى أي مكان أخبرته أنها تريد التحدثاليه

وقامت بالاتجاه نحو باب السيارة كما تعودت ليقوم ميدو بفتح الباب وجلوسها بجانبه على الكرسي الجلد الذي يشعرها أنها تجاوزت حدود القهر والدونية ولكنه لم يفتح الباب وتسمر في مكانه,

وقفت تنظر له بغربة وبدت كل مخاوفها الآن حقيقة قائمة وبصوت متهدج مرهق خائئف

ميدو ممكن تفتحلي الباب

أجاب ميدو في صرامة واضحة

أستاذ أحمد من فضلك

نظرت له مريم تستعطفه بنظراتها التي يشوبها نوع من الندم فأردف ميدو

لا يا مريم مش هينفع خلاص أنا آسف

بدى وكأنه حسم أمر علاقتهما غير المبررة مع أن عينيه تحمل اشتياقًا لضمها إلى صدره ولو حتى لآخر مرة وظهر فيها بريق من الدموع ولكنه هرب من نظرتها التي تحمل صراعًا ما بين عدم تصديق الواقع وأحلام بكر كانت تنتظر أن تكملها معه صنيعة خيالها, تركها ميدو هاربًا إلى مدخل عمارته الراقي, لم ينتظر المصعد كعادته وانطلق كطلقة رصاص سريعة على السلم واختفى عن نظرها تمامًا

شعرت مريم ببرد شديد يتخلل جسدها, سارت في الشارع وكأنها

شبح لا يشعر بها أحد ولا تهتم بأن ينظر إليها الناس وهي تزرف الدموع بحرقة فمن أصعب اللحظات الإنسانية أن تترك دموعك تنهمر أمام الجميع ولا تبالي شفقة العيون المتطفلة, أكملت سيرها في فزع كطفل تائه فقد أمه توًا سارت إلى لا شيء
لجأ ميدو إلى ميكرفون إذاعته الصغيرة، وفاضت نفسه بعبارات شديدة السخاء في تصوره لعلاقته بمريم, أمسك ميكرفونه وأدار المسجل ونظر إلى المرآة وارتجل كلماته وكأنه شاعر مخضرم أو روائي تمتزج روحه بالكلمات
ودائمًا الفراق مفزع ولكن في النهاية علينا قبوله كحقيقة ساطعة وجزء لا يتجزأ من حقيقة الحياة, كم يتمنى الجميع أن يتوقف الزمن عند لحظات السعادة ولكنه يمضي في خياله ويخرج لسانه للجميع في بجاحة واستفزاز, ونقف مكتوفي الأيدي في انتظار التعافي من حلم قديم وأمل في حلم جديد يفي ولا يخون
وبعد مخاض الفراق يولد شخص جديد يتحسس الدنيا بحذر ويحمل قدرًا كبيراً من ندوب الماضي البعض يطلق عليها خبرات ولكن دعنا نطلق عليها مسماها الحقيقي هي الأحلام المجهضة التي تحولنا إلى أشباح وأشباه من أنفسنا التي كانت.
كان واقع كلامي على مريم كبيراً جعلها مصدومة تبكي دون صوت وكأني سلبتها حق التعبير عن الألم تركتني وحيدًا وهربت من هذا الحلم الغريب, أنا الحلم السندبادي الجميل والمفزع

والجبان والنبيل وأنا العنصري المتسامح الثوري الخانع أنا كل هذه النبضات والترددات الإنسانية المشفرة التي لا يعلم بتركيبتها إلا الله رب العالمين

لن أكون لكِ يومًا يا فتاتي الصغيرة وإن كنت سببًا لإسعادكِ يومًا ما فيتحتم علي أن أتركك في هذه الحالة من اللا معقول، فأنا لست هانيا الجبالي التي تجرعت من دمي الكثير دون شفقة ولا أحب أن أكون من تلك النوعية من البشر

ما زلت أحمل من العنصرية والتراكمات ما يجعلني أبتعد عنكِ حتى ولو شعرت للمرة الأولى في حياتي أني سعيد كطفل لا يحمل ماضي ولا يفكر في مستقبل إنها سعادة الساعة فقط, وأنهيت تلك السعادة بيدي لأني لم أحمل القلب الجسور لأكملها معكِ لعلنا نلتقي فيما بعد عندما أصبح بطلًا ولكن ليس من رماد أو ميدو آخر لا أعرفه

شعر ميدو بفرحة بجانب مريم ولكن لم يجد سببًا مقنعًا لضميره بهذه الفرحة وخاف حد الارتعاد في أن تتعلق مريم به وهو كل ما يحمله لها رغبة في أن يرى نفسه يصنع شيئًا مبهجًا وجديدًا لشخص غير أمه أو يخوض تجربة لا يهم أن تنجح أو تفشل ولكنها تدل على أنه ما زال يحيا.

وقع تحت وطأة تأنيب الضمير ومحاسبة النفس فترة اختفاء مريم واحتجابها, واتهم نفسه باستغلال أحلام إنسان آخر, فأراد

أن يكون بابا نويل (سانتا كلوز) الذي يوزع الهدايا في عيد الميلاد دون مقابل ودون أن يتعلق به أحد على أن يكون مغتصبًا لأحلام فتاة صغيرة فكان هذا المصير, وحكمة رب العالمين هي التي قادته إلى مريم كي يتعلم منها أشياء كثيرة تقوده إلى إعادة غربلة أفكاره المكبوتة منذ سنوات والمشوهة أيضًا

وصل إلى برهانه الأكبر أن الله تعالى يمنح أيضًا السعادة بطلاقة قدره في أبسط الأشياء (مثل الصحة والبساطة والإيمان والحكمة) ولكن نحن من اختصر السعادة في هذه الدائرة الضيقة من سعادة الكماليات فقط من سيارة فارهة ومنزل واسع وأموال نكنزها وأشياء كثيرة يمكن الاستغناء عنها ومن حمق أغلب البشر أننا لا نفهم أن بدون تلك الأشياء تبدو الحياة أكثر لطفًا.

تمرد شديد طرأ على كل معتقدات ميدو حينما بدأ بالفعل في الكف عن سماع جميع الأصوات الخارجية وبدأ في سماع صوت شغفه فقط واتباعه, وكأنه يتعرف على الدنيا من جديد فأصبح ينتهز الفرصة للسفر كلما سمح له الوقت بذلك كان ينشد سيناء تحديدًا تلك البقعة الخالدة في الوجدان المصري وفي السفر حقًا فوائد تعرف على أصدقاء جدد من المصريين والأجانب اكتشف فيهم حبهم لأن يعيشوا الحياة ولا يرضخوا إلى شكل واحد أو ثابت أو اللهث وراء الكماليات مع اختلاف مرجعيتهم

لم يتخيل نفسه في مدرسة التانجو يتعلم الرقص هو الذي كان

يرتعد من مواجهة النساء الآن النساء بكل أشكالهم يرقصون بين أحضانه لم يعد هذا الفتى الخجول انعكست فلسفته الآن حتى على شكله فأصبح لا يرتدي الملابس الكلاسيكية أبدًا سوى في أوقات العمل وامتلأ جدول الأسبوع بكثير من الأحداث بين ندوات شعر وحفلات للموسيقى بكافة أنواعها

فكر جاليًا في الانضمام إلى حزب سياسي يكون بوابته لخدمة المجتمع بعد سؤال أحد الأصدقاء المهتمين بالشأن العام قرر أن ينتمي إلى حزب عريق في الحياة السياسية المصرية لم يكن يستهويه الشأن السياسي بالمرة بقدر سعيه فعلًا ليحقق تفاعلًا جديدًا مع الحياة

انضم فعلًا للحزب وبدأ في حضور فعاليات الحزب بانتظام ولكنه أصيب بقدر كبير من الإحباط فلا يوجد في هذا المكان ما يبعث الأمل على أي شيء إنهم مجموعة من المتحدثين الجيدين فقط وعندما عرض أفكاره لتطوير المجتمع على اللجنة المختصة بأفكار الشباب المنعدمي الوجود في هذا الكيان الحزبي

نظر له البعض نظرة الشاب الماجن ونصحه البعض أن يترك هذا الحلم لأسباب كثيرة وقال أحدهم له بصوت حنجوري نحن لا نملك رفاهية تحقيق أحلامك يا أستاذ أحمد ابحث في مكان آخر حاول مرة أخرى في ميدان آخر وهو الجمعيات الخيرية وجد أهدفها نبيلة بشكل كبير ولكنها لا تستطيع أن تتبنى شعارًا أو

مشروعًا أو أي شيء سوى نشاطها فقط, فأصبح الجمود هو مرض المجتمع وآفاته, حلم بإنشاء مركز ثقافي ينشئ فيه إذاعته الخاصة وعكف على دراسة الأمر من الناحية المادية جيدًا وبدأ بالفعل في دراسة علوم الإذاعة بشكل حر من خلال شبكة الإنترنت, تجسد حلمه أمامه في إنشاء دور إذاعة ومرسمًا لتعليم فنون الرسم, لم يغفل حلم بائعة الجرائد مريم التي غابت عن اعتلاء فرشة الجرائد تمامًا.

وفي احتفال صغير التف الزملاء حول ميدو يتمنوا له التوفيق في مكان آخر بعد تقديم استقالته غير المسببة، والكل يجزم بأنه انتقل بعرض خيالي إلى شركة أفضل, لا يتوقع أحد مطلقًا أن ميدو سوف يبدأ بفعل ما يحب وأنه لديه القدرة على الخروج عن القطيع واتباع شغفه فقط, بغض الطرف عن إذا كان سوف يجني من ورائه عائدًا ماديًا مجزيًا أم لو انتهت الحفلة بكلمة صغيرة من ميدو

لا أجيد كلمات الوداع, أتمنى التوفيق للجميع, إذ كان من الصعب التغيير فالاستمرار أيضًا يمتاز بالصعوبة تلك هي المعادلة غير المفهومة لكافة البشر إن على الإنسان الاختيار الصعب الذي يروقه الاختيار وتنحنح بهدوء وقال أشكركم, لم يفهم أغلبهم المغزى من كلمته المقتضبة وعاود الجميع يمارسون مهام عملهم في آلية وصمت.

* * *

رائحة شجرة الكافور تنبعث بشدة بعد سقوط الأمطار شتاءً في فيلا الكيال وكأنها ذكرى تأبى تمامًا أن تختفي حتى تكميم الأنوف لا يفلح في إخفاء هذا العبير الأخاذ

اعتكاف دعبس في المنزل تلك الفترة هو نتيجة لرغبته في إنهاء السنة الأخيرة له بالمعهد ليحصل على الشهادة التي طالما وجد أنها ليست الحل في تحقيق النجاح الإنساني ولكن الآن بعد تجاوز تلك المراحل والخبرات الحياتية، أجبر على أن يستسلم لهذا الحل الأخير, وعده والده أن يساعده في الالتحاق بوظيفة في البنك قبل بلوغه سن المعاش, وأقسمت والدته بأغلظ الإيمان أن يكون زواجه في نهاية العام الجديد في الشقة التي استطاعت أن تدبرها له بما تبقى لها من إرث عن والدها

شعر دعبس أنه لا يستطيع حتى المناقشة وهو يرى الجميع يضع لمستقبله الخطط التي سوف تأخذه إلى النجاح, حالة من الاستسلام دون أدنى مقاومة، اعتقد الكثر ممن حوله أن سببها مضادات الاكتئاب التي داوم عليها ولكن جهل الكل بأن دعبس الآن لا يقوى على أدنى المشاعر حتى ولو في شكل اعتراض

إدراك الإنسان لأخطائه يعيها بمرور الزمن ولكن رغم تتابع الأيام لم ترسخ فكرة ارتكاب الأخطاء لدى دعبس, لكن اعتقد أنها كانت

حياته هي عبارة عن مجموعة من المحاولات للوصول إلى نوع من النجاح خارج السرب والمألوف، فهو لم يطلب الكثير أو يتبجح بأخذ حق ليس من حقه, كل أحلامه في مضمار الإنسان البسيط لعل رسالة الشاب المنتحر قد أستوعبها الآن أعادها على ذاكرته مرارًا بعد أن كان يجبر عقله الواعي على إرسال تلك الذكرى في آخر مكان في عقله الباطن

أخرج ورقة فلوسكاب

وكتب فيها نفس الرسالة وصلت إلى الثلاثين ولم أجد معنى لوجودي

وكأن تلك الجملة شديدة الفلسفة لا يعيها البشر سوى بعد مرور أعمار وسنين ولها ثمن وثقل في عالم الخبرات بل ضريبة أيضًا على الجميع تحملها

قام بإشعال سيجارته واستلهم الكلمات وكأنها تأتي من أعماق القلب ممزوجة بعزوبة الماضي

معنى الوجود لأمي وأبي ومن حولي أن أكون مستقرًا في وظيفة ورب أسرة وأرعى صغارًا وأعدهم لمواجهة تلك الحياة ولكن معنى الوجود بالنسبة لي كان رنا وبيت صغير وأطفال تشبه الأم والأب تملأ المنزل بهجة ووظيفة محترمة تكفيني سؤال الغير وكفاح تتشابك فيه الأيادي المحبة لبناء أبسط الأشياء

وحيث إني مللت من تعثر أحلامي فسوف أجنح إلى ركوب

أحلام الغير فبحصولي على وظيفة تكون تلك البداية تنهد دعبس بأنفاس ساخنة واستطرق

زورق أحلام الشباب قد رسى على لا شيء وتلك رسالة الشاب التي حفرت في مخيلتي كنت أعتقد أني سوف أنجو وألقي اللوم عليه في يوم من الأيام وأتهمه أنه لم يجتهد ويواجه ولكن الآن أنا مشفق عليه تمامًا بعد بلوغي نفس المرحلة العمرية, تفحص دعبس بعيونه أركان مكتبته التي تحمل معاني أكثر من احتوائها على أشياء أهمها زجاجة العطر البلوجينز التي أهدتها له رنا في عيد ميلاده

أخرج دعبس آخر كبسولة لمضاد الاكتئاب وبلعها دون ماء كان يريد أن يشعر بطعمها المر بعد مرور عام كامل من مداومته عليه, تنازل دعبس عن كل ما تبقى له من خطط واختار أن يتبع المخلصين ممن حوله لعله ينجو حتى ولو كانت النجاة هي قارب من أحلام بسيطة فلم لا أن أجعل من تلك البساطة حالة من البطولة

انتهت ساعات تحليل الماضي وجلس دعبس على المكتب وأخذ في مذاكرة المواد المقررة بهمة عالية كان يعلم أنه سوف ينجح لأنه أراد ذللك ولأول مرة فكر في اقتحام فيلا الكيال كنوع من المغامرة الشيقة والبعد عن ملل ساعات المذاكرة التي حولته مجبرًا إلى طالب علم, وفي حركة سريعة قفز دعبس من فوق

السور ودخل إلى الفيلا يستطلعها في خوف, الظلام كان حاللكًا إلا من إضاءة خافتة لمصباح عمود نور, تمهل دعبس في المشي مرتجفًا وأمسك بقداحته مشعلها في يده إلى أن وصل إلى شجرة الكافور فسمع صوت حفيف بجانبها, هم إلى الخلف مسرعًا وزادت ضربات قلبه ولكن قبل أن يقفز السور مرة أخرى للهروب تذكر أنه الديزل سابقًا وأمسك جزع شجرة ملقى على الأرض في يده واقترب أكثر فوجد من يلقي بيديه على كتفه ويهمس بإعياء
أهلًا يا دعبس
فزع دعبس ورفع يده الممسكة بجزع الشجرة وأخذ يناوش هذا الشكل الغريب ولكنه لاحظ حركة يد تدعوه إلى الهدوء وصوت ليس بالغريب عليه, اقترب دعبس أكثر فوجد هذا الخيال يتبدد إلى ملامح رفيق الماضي ميدو الذي بدى مرهقًا
غابا في حضن من غربتهما الأيام عن عمد سأل دعبس مستنكرًا عن سبب مجيء ميدو إلى فناء فيلا الكيال في هذا الليل الشتوي البارد وماذا فعلت به الأيام كي يجلس هكذا
أخبره ميدو أن هذا المكان بالنسبة له كزيارة المقابر التي يكون هدفها أخذ الموعظة ومعرفة أن النهاية محتومة والصراع الذي يدور فيه الجميع إلى زوال لا محالة، ورائحة الكافور تستفز فيه الإنسان وأنه لم ينسَ مطلقًا وصية هذا الشاب الثلاثيني التي دفعته إلى فعل كل شيء وأي شيء كي ينجح ويكتشف معنى

لوجوده ولكن بعد إدراكه النجاح خاب ظنه تمامًا وشعر أنه نجاح زائف عليه التفكير به مجددًا
تحدث دعبس بتأثر شديد وأخبر ميدو أن الأمر معه أصبح مختلفًا تمامًا, فقد قام بمحاولات كثيرة لفعل كل شيء يبقيه ناجحًا بعيدًا عن التقليد والرتابة ولكن باءت كل محاولاته بالفشل فلم يجد لنفسه أي نجاح وبدأ في فعل كل ما عاند على فعله أيامًا وليالي
تعادلا الصديقان الذي تمرد وشعر أنه أخفق كثيرًا والذي اتبع كل ما هو مطلوب فعله لكي يحقق الهدف من الوجود ولكن حتى الآن التعادل بلا نتائج مفرحة
تنهد ميدو وأخبره أنه الآن في مرحلة نقاهة من تجربة حب لم تكتمل وتجنب سرد قصة بائعة الجرائد لخجله من تلك البطولة الزائفة وسأل دعبس عن رنا هل يستطلع أخبارها أو زارته في القريب
أخبره دعبس أن رنا هي الشرخ الوجداني الكامن داخل الصدر التي جعلته يندفع في كل التجارب التي مر بها حتى وصل إلى مضادات الاكتئاب وأردف بعد تلعثمه لبرهة كأنه يستجمع كلامات ممتزجة بكثير من المشاعر المؤلمة وشديدة الصدق
كنت أريد أن أثبت لنفسي أنها كانت غير محقة تمامًا في تركي وحيدًا وأنا الذي قد اتنسم الحياة بعبيرها والغريب أنها منذ سفرها ألمانيا لم تأتِ لو مرة واحدة إلى مصر فقد تعودت على

زيارة منزلهم على فترات متباعدة واستطلاع أخبارها من بواب العمارة حتى أصبحنا فيما بعد أصدقاء فكنت أذهب إليه وأجلس معه لساعات

نظر له ميدو وبدى عليه الاستغراب

أردف دعبس نعم كان هو عزائي لسنوات أو عندما أريد أن أجلس كما تجلس أنت الآن في تلك الحديقة القاحلة الظلام وتشعر بالراحة

فحديثي معه عن رنا وطفولتها وعائلتها السعيدة التي كانت هي الشيء الذي كان يحميني من أن تكون رنا مجرد خيال اصطنعته لنفسي وأنها فعلًا حقيقة,

أخرج دعبس علبة سجائره وأشعل واحدة فالتحم دخانها مع دخان الشتاء ونظر إلى ميدو وصاح بصوت واضح صفر صفر

* * *

شارع طويل وعوادم سيارات وصخب, عمارات سكنية صغيرة وأبراج مرتفعة, كثير من المحلات العشوائية التي تبيع أي شيء وكل شيء, يفتقد هذا الشارع إلى الحس الفني للأحياء الراقية أو حتى دفء الأحياء الشعبية, تنحدر السيارة يمينًا إلى منطقة تسمى الطوابق تهتز السيارة بشدة نتيجة المطبات والحفر الهائلة في المكان, تطلب منه والدته التهدئة حفاظًا على السيارة, يراقب

دعبس المكان في ذهول, وفجأة يظهر قطعة أرض زراعية يرعى فيها قطيع صغير من الغنم تجبرك على الدخول من شارع شديد الضيق إلى أن تصل إلى المكان المنشود

الدور السادس على الأقدام فتح السمسار النور من لوحة الكهرباء بجانب الباب وأخذ في شرح تفاصيل الشقة، وتقمص دور المهندس الاستشاري الذي أشرف على بنائها وهو يعلم جيدًا أن صاحب الرؤيا في تنفيذ العقار في الأصل كان يعمل بوابًا في أحد دول الخليج واشترى الأرض من تحويشة العمر وقام ببناء العمارة كنوع من الاستثمار فألقى بجهله على تصميمها الهندسي ببشاعة ولم يكترث بالنواحي الجمالية مطلقًا

فتح أبواب البلكون فوجد طوفانًا من النموس يدخل الشقة فأسرع في غلق النور وأغلق الباب السلك المصنوع من أجل حماية المكان من دخول الحشرات أو الجرزان

وبصوت يمتلئ بالفرحة سألته أمه

إيه رأيك في المنظر دا بقى قولي مش هوا يرود الروح

نظر لها دعبس مبتسمًا وهو يحمل مشاعر حزينة على المنتهى الذي وصل إليه, يعلم أن طموحه هو وكل جيله من الشباب أفضل من ذلك بكثير إنهم بالفعل يستحقون شوارع واسعة ومساحات خضراء وأماكن انتظار سيارات وحراسة وأمن ومستشفيات حديثة، ولكن انحسرت أحلام هذا الجيل في شوارع فيصل الضيقة

أو في طوابير إسكان الشباب التي يتعفف ويتكاسل معظم أبناء الطبقة المتوسطة عن الوقوف فيها.

انتهت أمه من توقيع العقد مع السمسار ودفع المبلغ المطلوب ونبهت عليه أن يتحرى اختيار السكان الجدد في هذا العقار وألقت على مسامع السمسار بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد أهمية الجار وحسن اختياره.

احتضنته والدته وهنأته بحصوله على شقة الزوجية أخيرًا, فقبل دعبس يدها واعتذر لها عن كل ما سببه لها من تعب وأخبرها أنه لم يكن يستطع الحصول على غرفة في أي مكان لولا ادخارها الدؤوب ودعا الله أن يرزق أخته أيضًا الزوج الصالح

ولكن فكرة زواجه عن طريق الصالونات أخذ يراوغ فيها كثيرًا إلى أن استسلم بعد إلحاح أمه الشديد وحلمها في أن تحمل أحفادها قبل انتهاء العمر

شعر دعبس أن وجود أطفال من صلبه هي أكبر الهدية التي يمكن أن يقدمها لأبويه بعد مرارة السنين العجاف الفائتة تكون برهانًا على عدم العودة إلى الخلف نهائيًا علاوة على إدخال نوع من البهجة في هذا المنزل الذي أضحى يفتقد ألوان الفرحة من أعوام بعد خيباته المتكررة وبدأت رحلة من البحث بواسطة الأم ومعارفها

اصطحبته أمه في السيارة وكأنه سوف يساق إلى إعدامه ذلك هو

إحساس دعبس عند الذهاب لزيارة أي عروس متجهم رافض وفي نفس الوقت أصبح الخوف من الفرص الضائعة هاجسًا يراوده بل يشعره أيضًا بالذنب لمضي العمر دون إنجازات حقيقية. ارتاح دعبس عند التحاقه بالبنك كمحاسب وأحس أنه لم يخسر الكثير على المستوى الاجتماعي والمهني في ظل ضياع معظم أصدقائه في تخصصات مختلفة، ولكن على المستوى الإنساني خسر دعبس الكثير خسر روح التحدي وإثبات الذات خسر حلم أن يصبح شاعرًا وأن يرتبط بفتاة أحلامه خسر أشياء كثيرة واهتزت ثقته بنفسه إلى أن ارتمى في حضن النمطية لكي يكون في الجانب الأسلم من الحياة ولا يضيع ما تبقى له من عمر في أوهام أو أحلام لم تعرف طريقها إلى النور.

وبصوت مبتهج بعد التأكد من عنوان العروس المزمع زيارتها

فك نفسك كدا بابني دنت رايح تشوف عروسة, علفكرة طنتك صفية شكرت فيها كتير

مش زي إللي قبليها والتانية بتاعت المهندسين انتساب اسكتي يا ماما والنبي

لا مش هسكت إنت خلاص عندك ٣١ سنة وأنا عايز أفرح بعياللك بقى يا بني

هو إحنا فين يا ماما طيب

سبحان الله إحنا في إمبابة إنت نسيت الشوارع

سكت دعبس عن الكلام ولم يرد, أراد أن يصرخ بأعلى صوت نعم أنا نسيت الشوارع ونسيت نفسي وأريد أن أنسى كل شيء أحس بعجزه وخوفه لم يكن يتخيل قط أنه سوف تكون تلك نهاية شاب ملأ الدنيا ضجيجًا بأنه سوف يكون ولكنه وجد نفسه بجانب والدته يساق إلى أحد أحلام الحياة الغالية والمنتهية صلاحيتها بالنسبة لها

ارتطم بالرصيف كعادته عند الركن وفاق من غفوته ونزل من السيارة وأغلق الباب بعنف وغاب في نوبة سرحان

لم يعد يفرق إذا قالت العروس أني أبله تصطحبه أمه للزواج أو إن قالت عديم الخبرة بالنساء أو جاء مرغمًا لم يعديهم صورتي ومظهري أمام نفسي وأنا كالسعة تباع وتشترى وكأني بلا مشاعر وماذا فعلت لي المشاعر سوى التوهان في دنيا الله هكذا قال لنفسه وشعر أنه مغلول الأيدي أمام الأقدار والزمن وأنه يجب أن يعوض ما فاته حتى لو لم يكن مقتنعًا

بابتسامة فتحت الباب أم العروس المنتظرة، وجلس إلى جانب والدته في الصالون انتظارًا لقدوم المجهول الذي لا يعلم عنه أي شيء سوى رغبته في الزواج

لم يشارك في أي حديث ولزم الصمت شعر أنه هذا ليس مكانه.... وكيف يكون وهو الذي أخذ الحب من عمره سنين بكل رضاء تام منه وفرح ودافع وحارب وبكى وانهزم في النهاية ولكنها هزيمة

محارب شريف لم يعطَ ظهره للخلف هربًا
أراد أن يخرج أن يهرب أن يصرخ بأعلى صوت أنا أستحق أن أختار في مشوار الحياة ولكنه تسرب إلى أنفه رائحة عطر يعرفه جيدًا فسكن تمامًا
دخلت ريهام العروس المنتظرة في خجل وجلست بجوار والدتها نظرت إليه نظرة خاطفة ثم إلى الأرض بينما قامت والدته من مكانها ونادتها أن تجلس إلى جوار دعبس فانصاعت الفتاة إلى الأمر وأخذ وجهها في الاحمرار خجلًا
نظر لها دعبس وفاجأها بسؤال (عندكوا بلكونة) استغربت العروس وأجابت بنعم
قام دعبس من كرسيه واستأذن الجالسين في أنه سوف يصطحب ريهام للبلكونة لتدخين سيجارة
فهمت أم دعبس ونظرت لأم العروس وابتسما وأكملا حديثهما عن ذكريات الماضي
أشعل دعبس سيجارته وتلعثم في الكلام, ازداد وجه ريهام حمرة وقررت الخروج, فأمسكها من يدها فنظرت له باستغراب
وبصوت مكتوم ريهام أنا معلش متلخبط وأنا كمان تعبان إنتي أكيد مش المفروض تسمعي الكلام دا من عريس جي يتقدم بس أنا عايز أتكلم تسمعيني
طال انتظار الأمهات في الصالون وبدأ القلق ينتابهم أكثر من

ساعة, همت والدتها لتنادي عليها فردت ريهام من الداخل بصوت رقيق متهدج
استني بس شوية يا ماما

* * *

لم ترَ مريم الحلي الذهبي الحقيقي طوال عمرها ولكن لحسها الفني منذ الصغر كانت تصنع من أغلفة بسكوت لوكس مجموعة من الخواتم والأساور التي تشكلها بعناية وترتديها طوال اليوم ومن حرفيتها الشديدة في صنع هذا الخيال اعتقد أبوها ذات مرة أنها ترتدي خاتم من الذهب وخطط لسرقته ليلًا ولكنه خاب ظنه عندما وجده عبارة عن كرتون مقوي, نعم للذهب بريق خاص وسحر على البشر فسبحان الله معدن يستخرج من الأرض ككل المعادن ما الذي جعله يستحوز على هذا القدر من تقدير البشر وتقديسهم أهم البشر أنفسهم أم بريق هذا المعدن هو من يعمي الأبصار والقلوب التي في الصدور
عادت أم مريم إلى المنزل على غير المعتاد في منتصف يوم العمل لم تنتظر وصول مريم لتسليمها الفرشة بل تركتها في رعاية حارس أمن البنك المجاور للفرشة حتى تعود
استغربت مريم التي كانت تجلس قرب الشباك الحديدي للغرفة ممسكة بكراسة رسمها وترسم وجوه الأطفال وانفعلاتهم وهم

يلعبون بالبلي لعبتهم الشهيرة المثلث ولكن اكتشفت أن كل ما تقوم برسمه يتسم بالحزن حتى وإن شاهدت ضحكات الأطفال تعلو, فأصبحت تصبغ الوجوه المفعمة بالسعادة صبغة الأسى فرسمت وجوهًا مشوهة وإن بدى وجهها باسمًا ولكن الروح المنبعثة من خطوط قلمها امتلأت بالشجن

تعددت محاولات مريم الكثيرة كي تتابع حياتها كما كانت وتخفي ذكرى ميدو في آخر مكان داخل القلب, لم تمتلك حتى رفاهية الصراخ أو البكاء والبوح بألم شديد يعتصر القلب فكل الذي يدور في خلدها الآن أنها أخذت جزاءها من الله على تفكيرها في الإيقاع بهذا الرجل الشهم وكأن الله أيضًا يحاسب البشر على إضمار النوايا السيئة داخل الصدور لم تجد مبررًا آخر لما حدث فعجزها عن منطقة الأحداث (جعلها منطقية) يجعلها محاصرة في فكرة وحيدة حتى وإن كانت قاسية وتستدعي جلد الذات المتكرر

يستنطع والدها على الأريكة الخشبية ذات المرتبة شديدة الصلابة ويدخن سيجارة تلو الأخرى وهي عادته بعد بلبعته زجاجة البرنكوفين اعتقادًا منه أن تدخينه الشره سوف يزيد من مفعول المادة المخدرة على جهازه العصبي

نادت أم مريم على ابنتها وهي تلتقط أنفاسها من إرهاق السير, فنظر لها زوجها مستغربًا من وجودها في هذا الوقت خلعت حجاب رأسها ومسحت عرق الجبين وانتابه زوجها على آثار الزمن

التي سحفت على الشعر الأسود وحولته إلى شديد البياض وكأنه إعلان واضح على بداية الشيب الصريح

هم الرجل الجالس على الأريكة في نفسه ما أسرع الأيام لم أتخيل أن يغلبك المشيب, أنتِ الشابة القوية الجميلة اليافعة حولتكِ الأيام إلى عجوز كيف ذلك على قدر ما سببته لكِ من ألم ذقت على يدكِ مر العيش والإهانة فبغا بعضنا على بعض نحن الآن متساويان

وناداها بصوته الخشن

إيه إللي جايبك دلوقتي كدة يا مرى إنتي عيانة ولا حاجة

أخرجت أم مريم من تحت إبطها كيس أسود ينم عن وجود شيء معلب بداخله ورمته على الأريكة بجانب زوجها دون اكتراث وأزاحت قدم زوجها الذي استجاب ليدها وأعطاها مكانًا للجلوس ابتسمت لمريم وهي تخرج العلبة القطيفة حمراء اللون وتفتحها وعين مريم ووالدها تتابعا المشهد الغريب بدقة وهي تخرج الطوق الذهبي الكبير والأسوار والدبلة والخاتم ذا الفصوص اللامعة وتعلقهم جميعًا على أصابع يدها حتى امتلأت يدها عن آخرها

اعتلى الذهول الجميع ينتظرون تفسيرًا لما يحدث وأين حصلت تلك السيدة على هذا الكم من المجوهرات وبأي طريق وشك زوجها أنها غيرت نشاطها إلى الاتجار بالمواد المخدرة أو انضمت

إلى إحدى عصابات سرقة النساء
قطعت عنهم الأفكار تمامًا بكلمة واحدة
دي شبكتك يا مريم ألف مبروك البسيها جربيها يللى يا بت إنتي مسهمة لييه كدة, دي بالشيء الفلاني جبهاللك عريسك القمر البيه مش زي أبوكي الشمام دا وقامت بوجز زوجها في صدره بقوة لم يستطع ولو مرة واحدة منذ عودته إلى أرض الوطن أن يرد على إهانتها المتكررة فإرادته ورجولته وكيانه تم استباحتهم جميعًا من أم مريم دون أدنى مقاومة
فعصب حياته وقوامه كرجل أصابه العطب منذ أن سمح لها النزول إلى الشارع والاعتماد عليها كليًا في المعايش حتى حقوقه الزوجية لا يستطيع أن يطلبها أبدًا بل يطلب لها عندما تريد هي أن تنتشي
ضحك الرجل وتظاهر بعدم الاكتراث إلى نعته بالشمام وأمسك بالشبكة يتفحصها ولكن وجد صفعة قوية على يده من أم مريم وبصوت عالي
ابعد إيدك النجسة دي يا راجل إنت وتعالي يا مريم البسيها
نعم للذهب بريقه الخاص على عقول البشر
ألقت مريم كراسة الرسم على طاولة الطعام وأمسكت بالطقم الذهبي تتفحصه وعيونها لا تصدق أنها تمسك هذا المعدن التي ترتديه فقط من أغلفة البسكوت أو تراة في واجهة محلات

الذهب في شارع المنيل
استغرقت وقتًا لكي تستوعب الموقف بل بريق الذهب بالفعل أنساها ما قالته أمها عن خطوبتها, تسمرت أمام المرآة وهي تبدل الأساور فتقلبها مرة عن اليمين وأخرى عن الشمال وكأنها في حالة سكر
انتهزت أم مريم الفرصة وأخذتها إلى غرفتها وقفت بجانبها أمام المرآة طلبت منها أن تخلع البادي الكارينا الأسود الغامق الذي ترتديه وأغلقت باب الغرفة وظهرت مريم عارية إلا من حمالة الصدر سوداء اللون, قامت أم مريم بمساعدتهاعلى ارتداء طقم الشبكة بالكامل وهي تكبر وأردفت
ما شاء الله يا مريم بتفكريني بنفسي وأنا صغيرة كنت فرسة زيك كدة وضحكت ضحكة نسائية خليعة
لييه حق أستاذ أيمن يتهبل أومال لو شافك عريانة هيعمل إيه
انتبهت مريم ودبت على صدرها وهي تصرخ يلاهوي أستاذ أيمن مين يامة
جارنا يا بت إللي في عمارة الشمس
يلاهوي يامة دا راجل كبير في السن وكأنها أفاقت من غفوتها
وبعدين أنا هكمل الكلية وعايزة أبقى مدرسة
مدرسة إيه يا بنت الكلب دانتي لو اشتغلتي عمرك كله عمرك مهتجيبي حق الخاتم إللي في الطقم دا وبعدين فكري في الموضوع

كله حتى الواد إللي حبتيه رماكي
وبدأت أم مريم في نوع من الوسوسة أو النصيحة أو نقل الخبرات وهي تعدل من السوار الذهبي على صدر ابنتها
تخيلي بس في الخطوبة جابللك كل الدهب دا أومال بعد الجواز هيجبلك إيه
اجدعنى إنتي بس وهتيللك منه حتة عيل وأنا اقشطلك أمه
وبدأت تحكي عن مرادها هي من الزيجة وكأنها تمني ابنتها بمستقبل جميل ومشرق
دا غير العربية وكمان ملوش حد في الدنيا غير أخوه الدكتور إللي هاجر وحتى محضرش عزاء أمه والشقة الخمس إوض وتترحمي بقى من ميلة الكتف دي من شيل الجرايد خلاص يا بت الدنيا ضحكتللك وهتتجوزي حد محترم وغلبان مش زي أبوكي الرجل المكسور دا
لمعت عين مريم في استشراق لحياة كانت تطردها حتى من خيالها لصعوبة تحقيقها فأقصى أحلامها في الزواج أن تتزوج عاملًا في بنزينة أو أسطى نجار وفي الحب ميدو الشهم الذي ظهر واختفى كشمس الشتاء وكلاهما بائس
سألت مريم أمها طب هو الأستاذ أيمن دا ساب كل نسوان العالم وعجبته أنا على إيه
ردت أمها بسرعة فشر يا بت دانتي فرسة لا إنتي مشفتيش نفسك

في المرايا هو كان هيلقيها من الصدر ولا الجناب ولا إيه دانتي لما بتعدي بس من قدامه بحس إن ريالته هتنزل وهو باين عليه راجل خام مقدرش عليكي

البسي نطلع للنطع إللي برة دا نفطنه هيعمل إيه لما أستاذ أيمن يجي علشان ميبهدلش الدنيا

أخذت أم مريم ابنتها من يدها وسحبتها من غرفة النوم الخانقة إلى الصالة وكأنها تسحبها إلى عالم جديد محمل بالآمال لم تكن في الحسبان بالمرة وشاورت لزوجها بالسبابة محذرة

اسمع يا راجل إنت

* * *

أيام معدودات ويزف دعبس إلى عروسه الشابة........ لم يشعر بأي نوع من الفرحة سوى في وجوه الغير ولكن بداخله أحس بشيء غريب وتساءل من ريهام في الأصل كي أتزوجها إني لم أعرفها جيدًا وكذلك هي.... أهو النصيب أم ماذا أو خوف كلانا من تابوهات الحياة أدرك أنه يشترك معها في حالة الخوف, تخاف هي من العنوسة وقطار العمر الذي لا ينتظر ويخاف هو أيضًا من تكرار الفشل كلنا يبحث عن حياة جديدة ليهرب إليها....... وقف دعبس بسيارته أمام سوبر ماركت الحاج سيد الأمريكاني بالعجوزة لمحه حمادة صبي المحل.... وبدأ في إعداد طلب دعبس

في همة أحضر زجاجتين بيرة بريميم وعلبة سجائر ميريت أصفر ووقف عند شباك السيارة المقابل له وسلمه الكيس الأسود... أعطاه دعبس النقود وأدار المحرك وهز شريط أمل واهبي رابع سنة بيده وخبطه على تابلوه السيارة ووضعه في الكاسيت, صعد كوبري أكتوبر وبدأ يرتشف من زجاجة البيرة بهدوء.

 عند مسجد النور دائمًا اعتاد أن يزيد سرعته هي عادة قديمة اعتادها عند مقابلة حبيبته ليلحق بالميعاد ولا يجعلها تنتظره، وصل إلى الكوربة ووقف عند كافيه إنشانتي ولم يحرك ساكنًا ترك نفسه للطمات الذكريات وفتح الزجاجة الثانية وارتشف منها بقوة

 .... جرس هاتفه يرن لم يلتفت إليه عادود الرنين مرة تلو أخرى فنظر له وجد اسم ريهام.... أراد أن يرد عليها وينهي الموضوع أراد أن يقول لها إنه شارب خمر عربيد وزير نساء جريح مهزوم وتارك للصلاة

 لم يعرف دعبس لماذا وافق على ريهام كي تكون زوجة له وكأنه مجرد من الإرادة عينها المتسعة شديدة البريق وطيبتها وإحساسه بجانبها أنه الآن أصبح في أمان جعله يسير في طريق الزواج, لم يكدر عليه حاله سوى ذكرى رنا الحبيبة الغائبة وكل الذي يعلمه عنها الآن, أنه لا يعلم عنها شيئًا سوى رسالة البريد الإلكتروني التي بعثتها له منذ سنين, فكر كثيرًا في حالتها هل هي سعيدة أم

حزينة هي تفتقد حبه أم نسيته تمامًا, تعجب من ضعفه أمام الأقدار واستعد إلى العودة إلى المنزل وكأنها آخر زيارة له لحي مصر الجديدة الذي يحمل بين أركانه مجموعة كبيرة من الذكريات, عزم على أن يترك تلك العادة إلى الأبد وأن ينتبه إلى القادم عاهد نفسه على أن يكون زوجًا صالحًا وأن يصلح ما أفسده الزمان فيه وأمسك بالهاتف وطلب ريهام..

ردت عليه بسرعة وكأنها تنتظر هاتفه.... ألقى عليها السلام وأفصح لها عن رغبته في رؤيتها الآن... تعللت أن الوقت أصبح متأخرًا, نهارها وذكرها بأن زفافهما لم يبقَ له سوى أسبوع, فانصاعت إلى رغبته وانتظرت وصوله في شباك المنزل

شاور لها فنزلت مرتبكة وسلمت عليه بيد مرتعشة, نظرت إلى وجهه الذي ارتسمت عليه إرهاق أحاديث نفس طويلة طلب منها ألا تتكلم فقط تنتظر إلى أن تقف السيارة, فسكتت عن الكلام إلى أن وصل إلى الروضة في حي المنيل عند مقياس النيل أغلق السنتر لوك رجع بكرسيه إلى الخلف.... أخذ العرق يتصبب من وجهها وسألته بصوت ضعيف إنت ماللك إنت عايز إيه بالظبط مد يده إلى كتفها يربط عليه ويهدئها فصرخت

ابتسم وقال (شوفتي إزاي بقى إحنا منعرفش بعض...... شفتي إني هقل أدبي صح)

أشعل سيجارة ونظر أمامه وسألها إنتي وافقتي عليا لييه عشان

إيه وأعطاها منديل معطرًا تمسح وجهها
أخذت منه المنديل مسحت وجهها التقطت أنفاسها ونظرت إلى صفحة النيل العريضة المظلمة أمامها
بص أنا عايز أقوللك حاجة أنا مش بيرة واتقدملي ناس كتير أحسن منك بص مش عارفة تصدقني لو قولتلك إني كنت مستنياك
نظر لها باستغراب فأردفت بص أنا عجبني فيك حاجات لمستني علطول مش سبحان الله ربنا بيقول (خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليه) أنا حسيت إنك من نفسي حسيت إني عايزة أسعدك يمكن كمان حبيت الإرهاق إللي باين في عينيك من طول المشوار كمان طريقتك في تعبيرك عن نفسك سرقتني عارف ذي حالة نشوة سمعاك للحن جديد واوعى تقول كدابة
ابتسمت ريهام وسكتت عن الكلام تمامًا شعرت بالخجل كانت تريد أن تعترف له أنها لم تحب أحدًا في حياتها كحبها لوالدها المتوفى التي دائمًا ما تخرج صندوق الصور ليلًا وتفتش فيه عن ملامح غائبة لم تشبع منها وآخر ما تبقى له من صور والدها كان في نفس سن دعبس تقريبًا مع الفارق أن وجه والدها كان يشع بالبهجة عكس وجه دعبس الجميل الشاحب الذي يفتقد إلى أي نوع من السعادة، وكأن الأيام مارست معه أسوأ أنواع القهر
كمللي.... لا مش هكمل أنا عايزة أسمعك إنت
أخرج دعبس كل ما بداخله حكى لها عن لأحلامه المنسية ودموع

الليل, أصدقاؤه ورحلات الصيف, كانت تنصت له بكل كيانها وأمسكت يده بقوة وأقسمت عليه ألا يشعل مزيدًا من السجائر رضخ لطلبها بل شعر أنه لم يحنو عليه أحد منذ زمن هكذا, كأنها مزيج من رنا وأمه وحب المراهقة أحس براحة واطمئنان وشعر بنسمة هواء منعشة نظر في ساعة يده وجداها تجاوزت الثانية عشرة, فهم ليوصلها فأوقفته وسألته إنت هتعمل إيه
هتوصلني دلوقتي وبدلع أنثوي لا يخفى عليه أنا مش عايزة أروح ممكن تلففني شوية في البلد عايزة أروح كل حتة في الدنيا معاك فضحك من قلبه وأمسك يدها وقبلها وغابا في شوارع القاهرة وسحرها ليلًا
على أنغام الفستان الأبيض اصطف المعازيم على الجانبين وسط فرحة عارمة من الأهل والأصدقاء تشابكت يد العروسين واقتربت الأنفاس وتداخلت, نظرة عيناه لها كانت هادئة وممتنة لها وهي تشعر الآن أنها الفتاة الوحيدة على وجه البسيطة, أخذت عينها في زرف الدموع وهي تحاول أن تخفي دموعها دون جدوى كأن للعيون أيضًا حق في الاحتفال والتعبير عن الفرحة
وقف ميدو يرقب صديق الطفولة من بعيد تذكر كل صور شكله من الطفولة إلى الآن وجد اختلافًا كبيرًا انتبه إلى زحف الصلع على مقدمة رأس دعبس وبروز بسيط في منطقة البطن فتذكر مدرس اللغة الإنجليزية الذي أصبح دعبس يقربه في الشبه فتأكد

أنه على الطريق
لا أحد يرقص من الأصدقاء هو مجرد نوع من تمارين الصباح هو ما يشاهده الآن, جذب أمجد الذي يعلم بخبرته في الرقص فوجده أيضًا يكتفي بهز الأكتاف, لم ينقذ الموقف سوى مجموعة من أقارب العروسة في بداية العشرينات قاموا باللازم في أكمل وجه, نظر لهم ميدو مبتسمًا وهمس بصوت خافت (الرقص في العشرين فقط)

* * *

تائه في شوارع مدينة نصر المزدحمة يبحث عن العنوان...... لم يتركه حسن ظنه بأنه سوف يحظى بهذه الوظيفة, ويتساءل؟ ولم لا فمن العدل الآن أن أحصل على شيء في هذه الدنيا وأنا لم أطلب الكثير لا أريد زوجة جميلة ولا سيارة فارهة كل ما أريده الآن وظيفة فقط تحميني من أعين الناس التي تنهش في كرامتي وتتهمني بالفشل وتنعتني بالعوطلي..... سقف الأماني والطموحات لم يعد كما كان من الأفضل أن أرضى بأي شيء فقط من أجل أمي..... لم يفارقه شكل أمه وإصرارها على أن توصله إلى باب المصعد وعينها ممتلئة بأمل طال انتظاره... توصيه بأن يكون أكثر حكمة في الرد على الأسئلة وكأنه تلميذ صغير ذاهب إلى أول امتحان له في الشهادة الابتدائية

لن أخيب ظنك اليوم يا أمي وسوف أفعل ما بوسعي لكي أحصل على تلك الوظيفة إن شاء الله ولا تكبر ولا تعالي بعد اليوم..... يجب أن ينتهي دور الكومبارس الصامت ويتحول إلى أي شيء لن أطلب البطولة لأني أصبحت أخاف من طالبها لأنه من المؤكد أني أضعت كثيرًا من العمر انتظارًا لهذا الدور الذي لن يجئ ولو حتى مصادفة أو جاء وضاع كأي شيء في الحياة

وصل إلى الشارع الذي دونه بدقة على ورقة النتيجة, ركن سيارته ونظر في المرآة وعدل من رابطه العنق وتأكد من أن شكله لائق فسوف يقابل رئيس مجلس إدارة الشركة بنفسه ومن المؤكد وفقًا للإعلان أنه سوف يحصل على وظيفة مهمة في هذا الكيان

ترجل عبر الشارع فوجد عددًا كبيرًا من الشركات ذات الأسماء المعرفة, أخذ في مراجعة العنوان لاحظ أنه لا يوجد اسم للشركة التي دونها.... أو أي إشارة سوى أنها شركة كبرى مبهمة الاسم, أو أنه من لهفته لم يلتقط الاسم واكتفى بالعنوان فقط, وصل إلى نهاية الشارع ولاحظ انتهاء جميع الشركات ولم يبقَ سوى بعض البنايات الصغيرة التي تشبه المساكن... لمح دكان مكوجي منهمكًا في عمله بهمة فألقى عليه السلام

والنبي يا حج العنوان دا فين ٥ شارع دار النور

دي العمارة دي

نظر يمينًا ويسارًا أي عمارة يا حج

دي يابني إللي أنا واقف فيها دلوقتي وحضرتك قدامي.... هو إنت جاي علشان الإعلان بتاع يوم الجمعة

أيوة واللهي يا فندم

طيب الدور الثالث هتلاقيهم

نظر إلى شكل البناية من أعلى إلى أسفل لا توحي مطلقًا بشركة كبرى أو حتى شركة تحت بئر السلم.... وكيف يوجد شركة كبرى وأسفلها مكوجي تبسم ابتسامة سخرية وهم بالصعود سلالم قذرة وعنكبوت يملأ الأركان وصل إلى الدور الثالث وجد بابًا كبيرًا ألوميتال وخلفه مجموعة كبيرة من الشباب ملتفين حول فتاة تجلس أمام شاشة كمبيوتر

في صوت غليظ عرفها بنفسه

أنا د سامي علم الدين وإنتوا كلمتوني علشان الوظيفة ومعادي الساعة ١٢ الظهر

أهلًا وسهلًا يا فندم اتفضل استريح وهنادي على اسم حضرتك في الدور

أراد أن يلزق وجهها البارد وكحل عينها الزائد في شاشة الحاسوب ولكنه تماسك....... وذهب إلى أبعد كرسي عنها وجلس نظرًا إلى سقف الشركة (شركة كبرى إيه دا مش أكتر من حمام بلدي أنا قولت من الأول ..... كل إعلانات الجرايد دي كمين ابن ٦٠ كلب.... قال وأنا مظبط البدلة ومكلف نفسي وعمال أحلم, في

الغالب رئيس مجلس الإدارة دا سباك وأكيد كمان لابس شبشب جلد وصوابعه قذرة)

دخل من الباب شخصان يرتدون البدل ويحملون أجهزة لاب توب وتبدو ملامحهم أنهم من الشرق الأقصى.... ودول إيه دول كمان مناديب مبيعات وجم هنا غلط

وقفت الموظفة لهما وفتحت لهم باب خشبي بني الون لا يحمل أي نوع من اللافتات

تحركت الساعة ببطء إلى الواحدة والنصف ويدخل واحد تلو الآخر ولم يزل هو متنظرًا

استشاط غضبًا وهم أن يوبخ الموظفة وينعل تلك الشركة الكبرى المزعومة ورئيس مجلس إدارتها ولكن شعر أنه مكتوف الأيدي أمام عمر مضى وأم تنتظر حادثًا سعيدًا يثلج صدرها

نادته الموظفة د سامي اتفضل حضرتك من هنا

غرفة ذات مائدة طويلة يجلس خلفها رجل يرتدي بدلة أنيقة وبجانبه فتاة تبدو ساخنة تلف ساقًا حول الأخرى وتمسك بجهاز حاسب آلي (لاب توب) تدون فيه بعض الملاحظات ويجلس بجانبهما الغريبان أصحاب الشعر الناعم والعيون الضيقة يتبادلون أطراف الحديث بلغة آسيوية غريبة

في رقة زائفة تحدثت الفتاة د سامي ممكن تعرفني بنفسك باللغة الإنجليزية من فضلك

أخذ د سامي نفسًا عميقًا وكأنه يستعد للركض وأخذ في تعريف نفسه... قاطعته الفتاة وطلبت منه الجلوس..... جلس في توتر وأخذ يكمل ما بدأ من تعريف لنفسه, لمح في وجوه الحاضرين استحسان لكنته الإنجليزية فزادت ثقته في نفسه وأخذ في استخدام مفرادات لغوية أصعب

طيب حضرتك اشتغلت في أكثر من مكان... صح دا باين من السيرة الذاتية بتاعت حضرتك... ممكن توضحلنا سيبت كل الوظايف دي ليبه باختصار

احمر وجهه وأحس أنه فقد الوظيفة توًا, أخذ في الإجابة بحجج واهية لم تقنع الحضور ولكنه لمح في وجه صاحب البدلة الأنيقة ابتسامة لا معنى لها..... طيب حضرتك إحنا عايزين دكتور قادر على إدارة منشؤات طبية وأنا شايفة إن حضرتك أكبر وظيفة حصلت عليها كانت كبير أطباء على مركب.... ونظرت الفتاة إلى الرجل الأنيق لتنهي المقابلة ولكنه أرسل لها إيماءة بأن تستكمل الأسئلة إلى النهاية في استغراب شديد من الفتاة, وبالفعل أكملت الأسئلة حتى آخرها مع عدم اقتناعها بكل ردود د سامي الواهية والخالية من الحرفية والإلمام بمقتضى الوظيفة

انتهى د سامي من إجابة آخر سؤال مع شعوره بجفاف ريقه وعندها سمع صوت الرجل الأنيق يباغته

حضرتك دفعة ٨٧

أيوة يا فندم.... طيب تشرب ليمون.... استغرب د سامي من العرض واندهشت أيضًا الفتاة

استأذن الرجل الأنيق الحاضرين للذهاب إلى ١٥ دقيقة راحة وطلب من الموظفة الاعتذار إلى باقي المتقدمين بأدب ووعدهم بفرصة جديدة عند افتتاح الفرع الرئيس للشركة

ذهول تام من د سامي وصمت إلا من أزيز الكرسي الجلد عند وقوف الرجل وذهابه للوقوف مباشرة أمام د سامي

إيه يا عم هو أنا عجزت أوي كدا إنت مش فاكرني ياض

نظر د سامي إلى وجهه يتفحصه عن قرب وجده ليس بغريب عليه.... بس معلش يا فندم مش واخد بالي حضرتك مين

أنا بقولك ياض وإنت تقولي حضرتك طب بلاش فاكر ساندوتش الكبدة الفاضي بتاع عجيبة في المنيل

لا.... لا يا راجل أحمد الشرقاوي.... وأخذهم حضن طويل وكثير من حديث الذكريات الباسم

سماعات صوت كبيرة وفرع واحد زينة يزين فرشة أم مريم مع وجود عدد قليل من الكراسي في مدخل عمارة الشمس مما أثار استياء السكان من موقوف أستاذ سامي الذي يرتدي البدلة ويصافح عددًا من الباعة والسائقين وسياس السيارات وصعاليك الحي بلا خجل من انحطاطهم الطبقي في نظر الكثر
ترتدي أم مريم جلبابًا أحمر واسعًا ومن حولها مجموعة من النساء يرتدون العباءات السمراء ويمسكون أكوابًا من الشربات, وقف أبوها يرتدي بدلة جينز زرقاء بجانب العريس الذي استعد للذهاب ليحضر مريم من كوافير داليا بشارع أمين سامي, تعجبت إحدى السيدات وهي تتحدث إلى أخرى وتمصمص شفاتها من

حضور العريس بمفرده وقالت بصوت خافت عن الجميع
العريس جاي لوحده هو ملوش أهل ولا مستعر من البت دي حاجة تكسف والنبي ياختشي, فردت الأخرى
اسكتي يا اختشي أم مريم تسمعك المرى دي طلعت مش سهلة وقعت عريس لوقطة مكتش تحلم توقف تغسل صحون بتهم دا ابن الست إحسان هانم وكيلة الوزارة
الواقع لا يريد أحد الاحتفال ولكن انصاع الكل لأمر الست أم مريم التي أرادت أن يعلم الجميع أنها تزوج ابنتها من أستاذ أيمن الراجل المحترم وكأنها تريد لسكان العمارة ورواد الحي أن يعلموا أنها استطاعت أن تزاحمهم وتحجز مكانًا من أعلى من البلكون وليس من الأسفل على الرصيف
ضمنيًا هو إعلان لنجاح أم مريم في الصعود الطبقي غير المحسوب من الكثير حتى هي شخصيًا
ارتدت مريم فستان الزفاف فبدت كاميرات القصر الملكي البائد ناطح نور وجهها أنوار إستوديو فينوس وغلبه بل أخفاه
وقفت بجانب العريس لا تشعر حتى بملامسته يدها ولكن كل ما تشعر به الآن هو نوع من إشباع حرمانها في أن ترتدي الحلى والفستان الأبيض الغالي وترقد على سرير واسع في شقة جميلة بوسط المدينة ويستقيم الميل غير الملحوظ في خصرها والملحوظ بل الحقيقي والساطع في حياتها, وعن غير قصد أو بقصد تخلت

عن ارتداء حلمها وارتدت أحلام أمها كاملة اعتقادًا منها أنها قطعًا الأفضل بل الأسهل

وقف العريس كالجائع الذي يشتهي وجبة يحبها من مطعمه المفضل, زائغ البصر, يريد أن ينهي تلك المراسم بأقصى سرعة حتى يلتهم وجبته وحيدًا لا يشاركه فيها أحد

الجميع في ذهول وخاصة سكان العمارة فبدى انزعاجهم من أصوات الزغاريط ووقفوا للفرجة على العريس ابن الهوانم وبائعة الجرائد الكل منساق العريس تسوقه شهوة الجنس العارمة والعروسة تسوقها شهوة الثراء والكل يستعجب من الدنيا وحالها ولغز النصيب

الزيجة لم تأخذ الوقت الكافي والمتعارف عليه بين الخطاب وبما أنها صفقة فتمت حين تم الاتفاق على شروطها دون مراعاة أي بعد إنساني, لم يتح الزواج السريع لمريم في التحدث لعريسها أو حتى في أن تعرف عنه أي شيء وهو لم يكترث بذلك كثيرًا

أسرعت أم مريم إلى الشقة قبل دخول العروسين حاملة في يدها صنية كبيرة من البط والحمام قام جابر الفرارجي بإهدائها الطيور كنوع من الواجب أو تحية للعروسين وخرجت إلى باب الشقة تنتظر صعود ابنتها

صعدت مريم إلى المجهول إحساسها الآن غريب لا تستوعب الموقف وكأنها أفاقت الآن من دوامة بدأت منذ أسبوع عندما

حملت إليها والدتها الشبكة وتوالت ترتيبات الزواج السريعة لم تستطع حتى التفكير وكأنه قدر تساق إليه دون أي نوع من الإدراك
وقف العريس عند باب المصعد ممسكًا يد مريم بقوة وفي حركة بهلوانية قام برفعها أعلى بين يديه وضحك ضحكة المنتصر, قامت أم محمود فراشة المدرسة بإخراج كيس من الملح وقامت برشه على الحضور بينما دمعت عين حسن أبو مريم دون سابق إنظار وهو يرى مريم محمولة من زوجها الذي هرع إلى داخل الشقة وأغلق الباب بقدمه

دخل أستاذ أيمن إلى عشة الهادئ اليوم, قبل مريم في حنان بالغ وأخبرها أنه انتظر ذلك اليوم منذ فترة طويلة وهو يعاني وحدته خصوصًا بعد وفاة والدته إحسان هانم وهجرة أخيه إلى كندا, قام بغلق أنوار الشقة كلها وأضاء شموعًا اشتراها خصيصًا برائحة التوت البري الفواح
لم تتكلم مريم جلست مستمعة فقط حتى ينهي كلامه أخبرتها أمها أن هذا يوم عمرها عليها بالطاعة لزوجها فيما يرغب وفي قباحة متناهية نصحتها بعدم الخوف بل محاولة الاستمتاع بهذا الفحل الذي لم يقرب النساء طيلة حياته
تذكرت ضحكتها وهي تقوم بدعك ظهرها وهي تقول (دا عفي

يا بت مش زي أبوكي الكيف عدمه العفية)
وفي رقة شديدة، طلب منها تغيير ملابسها
رفضت مريم واحمر وجهها بشدة وطلبت منه أن ينتظرها في الخارج حتى يسمع نداءها وبالفعل قام مسرعًا إلى الخارج
وحين سمع النداء هرع إلى الداخل مسرعًا, أصابه ذهول من شدة بياض مريم وهي ترتدي قميص النوم الأسود وقوامها الممشوق منحني الجنابات فبهت تمامًا
ابتسمت له في خجل فقام بخلع ملابسه في ثواني ودخل إلى السرير وأخذ في تقبيلها بقوة ووضع يده حول عنقها مداعيًا مداعبتها إلى أن قبضته أصبحت شبيهة بحالة الخنق لم تستوعب مريم ما يحدث ارتفع صوتها وأصيبت بنوع من الدوار
إنت كدا بتخنقني (حاسب والنبي)
لم يكترث تمامًا وكأنه ثور هائج قام بضربها على رأسها بيده بقوة وقام بزيادة إحكام يده أعلى رقبتها
رفصته بقدمها فرجع إلى الخلف حاولت الهرب جذبها من شعرها صرخت استنجدت بأمها لا أحد يسمع أقسمت عليه أن يتركها صفعها على وجهها بقوة وسدد لها لكمات أفقدتها وعياها
قام بحملها إلى السرير وأخرج شنطة متوسطة الحجم من الرف الأسفل بدولاب الملابس مرسوم عليها فتاة تتنكر في زي شيطان وعدد من الأحزمة ربط يدها وقدمها في السرير وأحضر كوبًا من

الماء ألقاه بوجهها
فاقت وصرخت صراخًا هستيريًا أخذ بضربها بالحزام على أنحاء جسدها وهي تصرخ وتستغيث وهو يستمتع وقام بسحب إحدى الشموع الساخنة من فوق الكمود وأخذ في لسعها حتى انتابته رعشة شديدة وارتمى عليها لدقائق وهدأ تمامًا وكأنه أفاق من مس شيطاني, كمية كبيرة من العرق يتصببها ونظر إلى مريم وجدها تورمت وتحول وجهها إلى الاحمرار فقام بفكها سريعًا وأخذ في حضنها بقوة وهي خائرة بين يديه
وكلمة واحدة أخذ في تكريرها بهذيان معلش كنت لازم اربيكي لازم تتربي لازم لازم

* * *

قد يهلك القلب من التمني أحيانًا خاطرة طراءت لدعبس في محطة مترو أنفاق البحوث وهي المحطة الرابعة في مشواره اليومي إلى مكان عمله في البراجيل..... يغيب في وجه فتاة جميلة في إشراقة صباح تتمم بوردها اليومي ويتنبه على وجه أخرى ملبد بمجموعة من مساحيق التجميل, يتابع أبناء الوطن وفي الوجوه كثيرًا من مشاوير الحياة التي تترك بصمتها بكل تجبر وديكتاتورية.
استطاع أيضًا أن يخمن أعمار الركاب في ذهنه على, فهنا شاب في

مقتبل الصلع هو ثلاثيني لا محالة, رجل يجلس متأملًا لم يفقد صحته بل فقد بريقه هو في مقتبل الخمسينات,, عالم آخر ومصر الحقيقية التي لم يخالطها من قبل سوى من عام واحد عندما استعادت أمه سيارتها وتغير محل إقامته إلى حي فيصل

في مثل هذا الصيف الحار منذ أعوام كان ينادي على محروس نادل الشاطئ ليجلب له مشروبه من الشاي المثلج ويستمتع بالجلوس في الساحل الشمالي أمام البحر مع الرفيقة هايدي في فيلا أختها المتزوجة من خليجي ثري يكبرها في السن وتعيش معه في بلدة

أصداء أغنية ماريا ماريا لم تزل في أذنه مع لسعة برد الليل الساحلي ولكن لسعة عرق الجبين من شدة الحر هي الحقيقة في عربة المترو الخانقة.... من أنا هل من أبناء الطبقة المتوسطة التي لم تملك مكانًا بين الأغنياء ولكن استطاعت أن تزاحمهم في أماكن تواجدهم بتمويل كامل من الأهل الذين لم يدخروا شيئًا في سبيل إسعاد أبنائهم بينما لم أجد متكأ أيضًا بين الفقراء ومعتادي المواصلات العامة, وأصحاب الأيدي الخشنة من عمل اليد, أنا من الذين رقصوا على السلم في كل شيء, باعتمادي على نفسي الآن أجد عالمًا جديدًا كان مختبئًا وراء دعم الأم والأب وعندما تكشف الغطاء اكتشفت أن فاتني الكثير من تعلم فن الحياة

حتى التفكير الآن هو نوع من الرفاهية والعبث زواجي كبلني

وأرضخني على العيش على أرض الواقع والتعامل معه, فقدت حتى بابًا من أبواب الله تعالى يمن على عباده بالدخول فيه وهو الرضا.... تعالت الأصوات بداخله وتعالت أيضًا صيحات الركاب فوقعت عينه على مشاجرة وسمع الكلمة المتكررة وكأنها من الموروث اللغوي والثقافي للمجتمع (إنت مش عارف إنت بتكلم مين) ولكن كان الرد على تلك الكلمة من أبلغ ما يكون (هتكون مين يعني إمبراطور الحديد أكيد إنت جربوع راكب مترو) فتساءل هل أصبح المترو دليلًا على الهوة بين الطبقات.... صاح آخر طويل العمر يطول عمره فانفجر الركاب في الضحك.... ركض سريعًا في محطة الجيزة ونظر في ساعة يده فاطمأن أنها لم تتجاوز الثامنة والنصف, فهرع إلى الميكروباص مواصلته الثانية للحاق بالإمضاء في التاسعة تمامًا.

طراءت له فكرة التقدم بطلب نقل إلى مديره المباشر إلى أي فرع من فروع البنك تكون قريبة من مسكنه يعلم تمام العلم أن أستاذ عوض رئيس القسم الذي تجاوز الخمسين هو مثال صارخ للموظف الحكومي المصري بدلته الصيفية ونظارته الطبية وتسميعه الدائم للوائح والقوانين وكأنها من المحفوظات, يجعلك تقف أمام إنسان شديد الفظاظة ولكن لا مانع من التجربة عوضًا عن زحام المترو وطول الطريق

أطرق باب المكتب بلطف مرتين... سمع صوت أستاذ عوض

الخشن النبرة يأذن له بالدخول فدخل
تطلع أستاذ عوض له من خلف نظارته الطبية وهز حزمة الجرجير في يده وقضمها في غير هوادة وسأله خير يا أستاذ
بقايا العيش وطبق السلطة وحزمة الجرجير والبتنجان والخيار المخلل هو نوع من ديكور المكتب الصباحي للأستاذ عوض, سرعان ما أزاح طبق الفول جانبًا وأمسك كوب الشاي وارتشف منه رشفة بصوت واضح, خير يا أستاذ دعبس حضرتك جاي تصورني وأنا بفطر اتفضل قول طلبك
خطر ببال دعبس أن يلقي بالسباب على هذا العوض ويلقنه درسًا في احترام مكان العمل, وأن هناك كافتريا مخصصة للفطار ولكنه كظم غيظه وأدرك أن ثقافة المكان هكذا, وتشجع ومد يده بلطلب دون أن يتكلم.
نظر أستاذ عوض في الطلب المقدم من دعبس والمكتوب بعناية فائقة وتفحصه جيدًا, ووضعه بجانب ملف بمحاذاة طبق البتنجان ورجع بالكرسي للخلف في مشهد محفوظ للمديرين في كل أفلام سينما المقاولات وسأل دعبس بتعالي
يعني حضرتك عايز تتنقل من عندنا هنا ليبيه يا باشا, وتغيرت لكنته إلى اللكنة الفلاحي دون مقدمات ليكتمل المشهد التمثيلي هو إحنا مش عجبين جانبك ولا إيه أينعم إنت شكلك أنضف من مدير الفرع بذات نفسه بس ديه مش سبب

أومال إيه السبب هكذا صاح دعبس..... وكأنها فرصة ليشنف آذان دعبس بالقوانين واللوائح ويسمع حتى الموظفين في الخارج أخذ دعبس في سماع ما يمليه عليه أستاذ عوض في ملل حتى انتهى من كلامه وهم بسحب الطلب والعودة إلى مكتبه ولكن أوقفه أستاذ عوض وجذبه من يده وأجلسه على الكرسي وطلب منه أغرب طلب للموافقة لتيسير الطلب

أنا عارف يا دعبس يا بني إنك لسة متجوز من سنة تقريبًا طب, هوا مافيش حاجة في السكة؟

هم دعبس أن يصفعه على وجهه من شدة العصبية ولكنه أرجأ هذه الخطوة لسماع كل ما يريد أن يقول أستاذ عوض

أجاب دعبس بصبر وعدم ارتياح إن شاء الله في السكة

طب يا سيدي مبروك مقدمًا..... من الآخر يابني إنت ذي ابني وابتسم ابتسامة خبيثة كشفت عن أسنانه الصفراء أنا همشيلك الطلب لأنه ليك حق طبعًا تشتغل جنب محل إقامتك وكمان إنك عديت سنة في مكانك إني معملش حاجة مش قانونية أبدااااا, بس عاييز ٥ علب فيجرا

رفع دعبس حاجبيه مندهشًاااا لم يستوعب الكلام, وسأله باستنكار فيجرا, يا أستاذ عوض بس دا حقي زي محضرتك بتقول منا عارف يا سيدي دي مش ليييه دا لمدير شؤون العاملين واللهي وهمس بجانب أذنه كل ماتجيب علب أكتر هننقلك

أسرع وهوديك فرع الكعب العالي في الدقي يا سيدي
انفرجت أسارير دعبس, سبحان الله ما هذا الهوس الجنسي الذي أصاب الجميع منذ السماع عن عقار الفيجرا, وأصبحت هي الشغل الشاغل لشريحة كبيرة من المصريين وكيف يحصلون عليها مهربة من الخارج, حتى أنت يا أستاذ عوض تحمل في طياتك ذئبًا بشريًا يختفي وراء بدلة صيفي فابتسم ومد يده للأستاذ عوض وسلم عليه وأردف
موافق يا باشا انزاح ستار المدير عندما طلب رشوة تقزم حجمه كيفما يتقزم حجم المدرس الوقور عندما يعطي درسًا نظير مبلغ ماذى هكذا صنعت الرشوة فيه
وضع دعبس يديه على كتف أستاذ عوض وتخطى حدود اللياقة متعمدًا وأخذ من جيبه سيجارة وأشعلها وأوضح له أن طلبه عزيز في هذه الأيام ولكنه سيراسل صديقًا له في ألمانيا ويفي بالمطلوب مع نهاية الشهر
وعده أستاذ عوض أن طلب النقل سيتم في نهاية الشهر مع وصول الهدية كما أطلق عليها
خرج دعبس من مكتب أستاذ عوض ظافرًا بإتمام مهمته بسهولة غريبة وجلس على مكتبه منتشيًا سأله أحد الزملاء في تطفل واضح كنت بتعمل إيه عند أستاذ عوض يا باشا
فأجاب بقتضاب (خليك في حاللك يا فلاح إنت)

* * *

بناءً على أمر نيابة قصر النيل وبتوقيع للكشف الطبي على كل من أيمن علي شرف (جاني) ومريم حسن أحمد (مجني عليه), وبعد الاطلاع على التاريخ المرضي للجاني وجد أنه يعاني اضطرابًا نفسيًا يدعى (البارفليا(وتعاني مريم سحجات في الرقبة وتمزق بأربطة اليد اليسرى وحروق بأنحاء الجسد المختلفة مما يستوجب علاجها بأكثر من ٢١ يوم وأخضاعها لدورة تأهيل نفسي نتيجة لإصابتها صدمة عصبية أفقدتها النطق علمًا أنها ما زالت بكرًا
ولكم جزيل الشكر
(مصلحة الطب الشرعي)

لم تلجأ أم مريم إلى قسم قصر النيل سوى بعد شهرين من الزواج فمن أول يوم وهي ليلة الصباحية وجدت ابنتها في حالة إعياء شديد ولكنها لم تفعل شيئًا بالمرة بعد أن قام أستاذ أيمن بالاعتذار إلى مريم أمام أمها وأبيها وعلل فعلته الشنعاء وادعى كذبًا أنه كان واقعًا تحت تأثير الخمور والإنهاك من ترتيبات الزواج وأقسم على المصحف الذي أحضره ورفعه على عينيه أنه لم يفعل ذلك مرة أخرى وأنه يشعر بالخزي والندم وأخرج من جيبه مبلغ ألف جنيه ودسها في جيب أبو مريم كنوع من المساعدة على المعيشة وأخرج خاتم أمه المرصع بفص من السوليتير وأعطاه لمريم كنوع

من الاعتذار
أخذت الأم ابنتها وفي حديث قصير بداخل الشرفة
معلش يا بت أول مرة يشوف حتة لحمة حمرة جننتي أمه وإيه المشكلة ضربك علقة يجي بالألوفات دا ياما أبوكي ضربني ببلاش
قبلت مريم اعتذار شريطة ألا يلمسها حتى تهدأ, شعرت أنها يجب عليها تصديق هذا الكابوس لعله يمر دون تكرار فمن الصعب أن تعود في منتصف الطريق لأنها تعلم أنها على الرغم من مدة الزيجة الصغيرة فقد سلب منها الكثير
وبالفعل أخذ زوجها في معاملتها بود بالغ بل في بعض الأحيان كان يركع تحت قدمها بشكل مبالغ فيه ويقبلها ويبكي كطفل صغير وبدى أنه في احتياج لشخص يشاركه فكان لا يتوقف عن الكلام معها وحكى لها قصة حياته وكيف عانى بعد غياب أمه فترة طويلة اعتادت عليه فيها وكان يفترقا ليلًا كل على حدى في فراشه وبدأ الأمر هادئًا تمامًا طلما لا يحدث معاشرة زوجية
تطلب الأمر سفر مريم معه إلى مكان عمله الحدودي مترامي الأطراف وهناك تغير تمامًا وتحول إلى ذئب بشري يعاود ممارساته الشاذة بل أخذ في ضربها واستخدم أقبح الألفاظ في إهانتها وعايرها أنها بائعة جرائد قام هو بلمها من الشوارع ووفر لها معيشة لم تحلم بها فلذا يجب أن تتجاوب معه في لحظات مجونة في تلك اللحظة واجهت مريم المودعة لحياة الطفولة قريبًا قبح

الحياة لم تدرك مريم نوايا أستاذ أيمن من وراء الزيجة اعتقدت كما اعتقد الكثير أن جمالها وجسدها الفارع هم من جعلوا هذا الرجل يهرع إليها ولكن كان السبب الرئيس هو الفقر ومستواها الاجتماعي الضعيف أو المضمحل

سعى أستاذ أيمن في أن يشتري بماله أمًا طماعة وفتاة فقيرة ترضى بأفعاله الشاذة فلا تتكلم أو تفضحه كان ذلك هو السبب الحقيقي من الزيجة أن تقبل مريم شذوذ زوجها في مقابل الحياة الأرقى

فعزوفه عن الزواج طيلة هذه الفترة كان الخوف من الارتباط بزوجة من نفس طبقته الاجتماعية كي لا تقوم بفضحه أو التنكيل به فاختار مريم

غافلته وهربت ركبت الفطار وهي لا تحمل معها شيئًا سوى نفس تتمزق بل تتحضر

دخلت المنزل ارتمت في حضن والدها لأول مرة وأخذت في البكاء وسرد شهور العذاب, استفزت فيه مشاعر الأبوة أجبر أمها على السكوت وعدم الدفاع عن زوج ابنتها ولكن حلم أم مريم بالاستيلاء على الشقة لم ينتهِ وبكل فظاظة أخبرت مريم كي تنتظر حتى تجلب الولد وعندئذ يكون لها الحق في الشقة

فشقت مريم ملابسها لتظهر علامات التعذيب وصرخت أنا زي مانا بكر

هرع عم حسن (أبو مريم) وأحضر سكين المطبخ ووضعها على رقبة أم مريم وهددها بأن لو نطقت بكلمة سوف يحولها إلى جثة هامدة

أخذ مريم من يدها إلى قسم الشرطة وعمل محضر إثبات حالة وقام أستاذ أيمن بعمل محضر سرقة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه لمريم وتوالت المحاضر بين الطرفين بل تبادل عم حسن وأستاذ أيمن اللكمات والسباب في الشارع وعلى مسمع من الجيران الذي تدخل أخذهم للصلح الذي تم على إثره تنازل الطرفين عن المحاضر والقضايا وتنازل أستاذ أيمن عن الشبكة وقام بدفع المؤخر كامل وباع شقته بعد الفضيحة المدوية وعادت أم مريم للفرشة مرة أخرى ولكن لم تعد مريم هي مريم الأمس

البارفليا

السادية الجنسية: «التلذذ الجنسي بإيلام الشريك»، وقد يكون ذلك بالضرب بالسوط أو العصي، بالعض أو بالإذلال والإهانة من خلال القذف وتوجيه الألفاظ الجارحة وأقصى درجات العنف عند الشخصية السادية في تعذيب الآخرين هو القتل (Lust murder) قتل الرغبة. كما يشير علم النفس إلى تعريف معظم حالات السادية «بتعلق الفرد باللذة الجنسية مع ضحيته بعد تعذيبها أو التطلع إلى هذا العذاب والمعاناة، ويكون إحساس التمتع بتلك المعاناة أقوى من ممارسة الجنس نفسه».

وعذاب الضحية أمام الشخص السادي يسبب له الاستثارة الجنسية، التي توصله أثناء إنزاله العذاب بضحيته إلى رعشة الجماع (قمة الاستمتاع الجنسي)، حتى وإن لم يحدث اتصال جنسي في الأصل. والسلوك الجنسي في السادية تختلط فيه الرغبة في الجنس والرغبة في العدوان مجتمعتين.

* * *

حياة جديده وأمل فرحة عامرة وشموع مهد الرضيع تتمايل في هدوء رائحة مشروب الموغات تنتشر في أنحاء المنزل المكتظ بالأهل والأقارب.... يقف دعبس بحالة جديدة من الفرحة لم يعتد عليها من قبل شعر الآن بمعنى الأبوة شيء من صلبه يملأ الكون بهجة, حلم قديم يتحقق بعد كذب الأماني بينما تتدافع صفوف المهنئين له بحرارة لم يشعر بدفء حضن ميدو صديق العمر من قبل كهذا اليوم

تأثر ميدو بشدة فكم جميل أن تشعر بفرحة أعز الأصدقاء بعد طول انتظار لم يدرك أحد سواه أن هذا الولد بالنسبة لدعبس هو أكثر من مولود رضيع بل هو هبة ومنحة من الله تعالى لدعبس لتدعمه على النجاح في حياته الجديدة, فهو طالما حلم أن يصبح إنسانًا جديدًا يتجنب أخطاء الماضي كلها وينبت كل الخير في ذرية صالحة

تبادلا أطراف الحديث بلهفة أسفل شباك المطبخ, فمن الآن فصاعدًا ممنوع التدخين في أروقة المنزل وضع دعبس القوانين وطبقها على نفسه أولًا.
قامت ريهام الزوجة في وهن يمتزج بدلال ومع قرع الهون بدأت تخطو فوق المولود وينظر لها دعبس في شوق وحب مع كل قرعة هون (اسمع كلام أمك ومتسمعش كلام أبوك)
القرعة الأخيرة نظر فيها إلى ريهام وهي ترفع المولود عاليًا وغلبته دموع عينه, الآن أصبح لديه أسرة صغيرة بمعنى الكلمة وهو عائلها, أضمر أمانيه داخل قلبه أن تكون تلك الأسرة هي كل حياته واستيقظ فيه شعور جديد كان يعتقده مات وافتقر إليه كثيرًا هو الانتماء إلى شيء
التف الأقارب في وصلة رقص تعبيرًا عن الفرح وفاجأت أم دعبس الحضور بوقوفها متكئة على ذراع أختها الصغرى ومشاركة الجميع الرقص عينها اغرورقت بالدموع واحتضنت دعبس وهمست في أذنه (كان نفسي أبوك يكون وسطنا دلوقتي) قبل رأسها ويدها ودعا لها بطول العمر وترحم على والده هذا الأب الوحيد الذي مارس أبوته في صمت إلى النهاية.
شرع المعازيم في الانصراف وبالطبع تأهب ميدو للمغادرة وترك ظرفًا ممتلئًا بجوار المولود وقبله من وجنته وتوجه نحو دعبس ليودعه ولكن دعبس طلب منه الانتظار قليلًا لأنه يريده في شيء

مهم

دخل دعبس البلكونة وأغلق الباب وجلس منتشيًا وسأل ميدو

هاااااااااااااا أنا نجحت صح في حاجة صح

أجاب ميدو أكيد يا دعبس

(عمري مكنت أتخيل إنك تتجوز عادي وتبأى أب وكمان موظف) كنت حسك ثوري هتكمل شعر وبيرة وفشل وتكتب أغاني عن الحياة لمحمد منير

ضحك دعبس من قلبه وقام من مكانه مستشرقًا للغد

الخطوة الجاية يا ميدو هي إني أبني نفسي وأحسن من دخلي

نظر ميدو إلى دعبس يتفحصه (كرش كبير ومؤخرة مرتفعة ونظارة طبية وبداية صلع وسيجارة l.m تفوح برائحتها الخبيثة) كائن هاموشي في الطور الأول من التكوين يبحث عن زيادة الدخل ويتحدث عن لقمة العيش أحس أن مشهد دعبس يفتقر إلى الخيال هذا العنصر المهم الذي يؤدي إلى إبداع الطبقة المتوسطة فأدرك أنه لم يعد هناك مساحة لأحلام فقد أرغم الواقع دعبس على التحدث بنمطية شديدة محت بجانبها ملامحه الأصلية كشاعر ومفوهة

أنا مش عارف ياض يا دعبس إنت إزاي بئيت كدا

كدا إزاي يعني يا ميدو دانا أول مرة أنجح إنت مستغرب, لم يفهم دعبس عن ميدو مغزى السؤال

أفهمك يا دعبس
أنا مش عارف هيا دوامة ولا إيه (مكتوب على كل الناس دخولها الزواج والكرش والدخل والمدارس وتجهيز العيال) وبعدين نقول إحنا شقنا
فهم دعبس ميدو الآن فابتسم وأشعل سيجارته الثانية وتقمص دور حسين رياض في أفلام الزمن الجميل
أيوة يا باشا هي دوامة مكتوب علينا كلنا ندخلها طالما مش ولاد رجال أعمال ولا لاعيبهة كورة أو فنانين لازم كرشك يكبر من قعدة المكتب وتسعى إنك تزود دخلك علشان بيتك وتركب مترو وبطيخة كمان واحمد ربنا لو عندك ضمير ومابتخودش رشوة وكمان دي مش بلد شهادات دي بلد وسايط وأردف دعبس
إنت عايش في عربيتك أم تكيييف ومش عايز تتجوز ومتمرد وبتصرف على نفسك بس إنت أناني ياض
تغير وجه ميدو وبدى عليه علامات الحنق
 أحس دعبس أنه اندفع, فربط على كتف ميدو وشرح له عامًا كاملًا من الزواج إلى الوقت الراهن كان يتبادلا القفشات ويعلو صوتهما بالضحك من كوميديا دعبس السوداء التي تدفع ميدو إلى البكاء من فرط السخرية
شرح ميدو لدعبس مشروعه الثقافي
فهم بسحب (علامة اعتراض) من فمه ثقافي

أردف ميدو لم أكن أدرك أن صخرة الواقع شديدة الصلابة وجامدة بهذا الشكل لا شيء يتغير والكل يفتقد الخيال أو تخلى عنه مرغمًا
قاطعه دعبس مستنكرًا
طب الخيال عملك إيه معيشك لوحدك عشان مش عايز تتنازل عن أي حلم في حياتك حتى الجواز عايز واحدة مناضلة زي سماح أنور في فيلم امرأة واحدة لا تكفي يا عم فكك عيش وإنت ساكت مفيش حد عافر مع الدنيا دي قدى
قطع حديثهما طرق أم دعبس لباب البلكون, فنظر ميدو في الساعة, عاتبت الأم دعبس على تركه زوجته كل هذا الوقت في يوم جميل كهذا وأخذت ميدو من يده ليوصلها إلى المنزل وضحكت بلطف
إحنا سلامو عليكوا بقى عشان منبقاش عزول واتكأت على يد ميدو في نزول السلم وسألته مداعبة إنت هتتجوز إمتا يا واد إنت.

إحساس ميدو بالحرية الآن يفوق كل الحدود قرار ترك الوظيفة بالنسبة له هو أول اختيار حقيقي ينبع من رغبة كامنة داخل القلب, لم يعبأ تمامًا بالغد وما يحمله من تقلبات, أدرك أنه طيلة حياته سجين إحساس الخوف, ما أشقى أن يسجنك إحساس الآن متسع من الحرية أنا الذي أمتلك الوقت وأنا الذي سوف

أقوم بإدارته ولن أضل الطريق إن شاء الله, بهذا الحماس بدأ ميدو يومه وعكف على النزول إلى الشارع لعله يجد شكلًا لمشروعه الجديد فهو الآن مجرد من مجموعة من الأفكار داخل عقله فقط ولعل التجول في الشوارع يلهمه الشكل النهائي فهو يستلهم أفكاره من وجوه البشر

هدفه من البحث هو العثور على محل من طابقين أو فيلا قديمة تصلح لمشروعه الذي تخيله وحتى إن كان العائد المادي ضئيل فمن الغباء البحث عن المقابل المادي مرة أخرى

لم ينسَ ميدو في آخر زيارة له في دهب الثنائي مايكل وماريا الأجانب الأكثر إلهامًا له على البدء في تحقيق ما يريد, فهم استوطنوا سيناء من سنين تاركين إحدى الدول الأوروبية ويعيشون الآن في قمة السعادة داخل كوخ من البوص والقش, قاموا بالاستثمار في تلك البقعة النائية وأقاموا مشروعهم الصغير وهو عبارة عن واحة للراحة والاستجمام صديقة للبيئة ومعزولة عن كل أشكال المدنية الحديثة

عندما سأل ميدو ماريا أتشعرين بالسعادة

أجابت بكل تأكيد وسألته مستنكرة أنا لا أعلم لماذا أنتم أبناء الوطن تتكدسوا في المدن وتتركوا هذا الجمال الطبيعي فأنتم اللذين تختاروا الشقاء وتذهبوا إلى أوروبا أو أمريكا وتحلموا بالعيشة الرغدة تاركين أوطانكم

وضحكت والشمس تنعكس على وجهها شديد الاحمرار (هذا شيء غير منطقي)

وصل ميدو بسيارته إلى حي المهندسين الذي يكن له مكانة كبيرة داخل قلبه فهو يحفظ هذا المكان عن ظهر قلب منذ أيام الجامعة واختار هذا المكان ليكون بدايته لاحتوائه على عدد من فيلل حقبة الستينيات والسبعينيات وسمع عن هجرة سكان تلك الفيلل إلى المدن الجديدة في السادس من أكتوبر

ركن سيارته خلف كافيه بيت الدونتس وترجل باحثًا عن سمسار للبدء فعليًا في اختيار المكان المناسب وبدأ حماسه ينخفض شيئًا فشيئًا وهو يترجل في المكان

ما هذا المسخ كل شيء تغير الفيلل تم هدمها بالكامل واحتلت مكانها أبراج عالية أين محلات الملابس الشهيرة التي كانت هنا, أين أكشاك شرائط الكاسيت والسجائر التي كانت تجمع الشباب تعجب ميدو من سرعة دوران الزمن ورأس المال أيضًا والتقط رقم سمسار معلقًا على جزع شجرة وقام بالاتصال به وانتظره عند أول شارع محيي الدين أبو العز

فوجئ ميدو بالسمسار القادم يحمل تليفونه المحمول وعلبة سجائره وولاعته ويرتدي سلسلة ذهبية وجلباب

باختصار لقطة لأحمد زكي من فيلم البيه البواب

عرفه ميدو بنفسه وحدثه عن بحثه عن مكان إيجار لعمل

مشروع
سمع ميدو أرقامًا تتكون من مجموعة من الأصفار المتجاورة وذلك في حالة وجود مكان خالي فقد احتلت البنوك والشركات النشأة المكان بالكامل مما أدى إلى ارتفاع الأسعار هذا ما قاله السمسار
شكره ميدو وانصرف, بدت فكرة حصوله على غرفة في هذا الحي ضئيلة جدًا فاستسلم للهزيمة في أول يوم وشعر بالتعب وفكر في أخذ قسط من الراحة واحتساء كوب ساخن من الشاي يزيل عنه شيئًا من التوتر فداهمه الحنين إلى مكانه القديم الذي لم يدخله منذ ما يقرب من عشرة أعوام أو أكثر, فأدار محرك سيارته إلى هناك, وعند الوصول شعر بالسعادة أن المكان لا يزال هناك ولم يتم تغييره أو بيعه أو هدمه ولكن حاول جاهدًا أن يقوم بركن سيارته ولكن بلا جدوى, كأنه يطلب المستحيل وعلى حين غرة ظهر من تحت الأرض شخص غريب وسأل ميدو تركن يا باشا
فحرك ميدو رأسه بالإيجاب
خلاص عشرة جنيه ومش أكتر من ساعة
نظر ميدو لوجه المتحدث وحدثته نفسه عن البصق في وجه هذا الكائن لكنه تماسك لاحتياجه الشديد إلى مشروب ساخن
أزاح الرجل جزع شجرة كبيرًا يحجز به الأماكن وشاور لميدو
تعالى تمام يا بيه حضن شوية شمال. الحساب بس علشان هسلم

لا يريد ميدو حتى النظر له حتى لا يوسعه ضربًا فأعطاه ما يريد ودخل الكافيه سريعًا

وجوه كثيرة لكنها غير مألوفة بالمرة, المكان كما هو نفس الصخب ونفس ادخنة الشيشة الممتزجة (تفاح وخوخ وكريز) بحث بعينه فى لهفه عن اى من اصدقاء الماضى لم يجد سوى حسرة تنتابه,وقبل ان يحزم امرة بلانصراف وجد من ينادي عليه أستاذ أستاذ أحمد التفت إلى الصوت وجده الرجل الأسمر خلف ماكينة الكابتشينو عم عبده البار مان

أخذه بالأحضان وكأنه يحتضن ذكريات من الماضي... ابتسامة وجه الرجل احتوت غربته في المكان. اعتلى ميدو الكرسي الخشبي العالي نسبيًا في مواجهة عم عبدو وكأنه في حالة خصام عن الوجوه الجديدة والغريبة عما اعتاد عليه وراقب طريقه صنع مشروبه المفضل من يد الرجل الأسمر الودود

أشعل عم عبدو سيجارته وارتسمت على ملامحه الحرفية الشديدة وهو يضع الفوم أعلى الكوب وابتسم وهو يقدم لميدو المشروب وسأله عن حاله وحال أفراد الشلة جميعًا وأخبرة أنه لا يزال على الاتصال بالبعض إلى الآن واعتذر عن التقصير مع ميدو في السؤال

استغرب ميدو من حفاوة اللقاء ومازحه

يعني عملت الموكا بسرعة المرادي دا كونت بتحايل عليك تجبها

بسرعة زمان
أخذ الرجل نفسًا عميقًا من سيجارته وبدأ في عمل مقارنة بين زبائن الآن والماضي وقال بصوت حاد سمعه الويتر جيدًا, يا ميدو بيه إنتوا أنضف شلة قعدت هنا كلوكوا ولاد أكابر ومتربيين دلوقتي يجيلي واد مسقط عدم الامؤاخذة المنطلون لحد ما لابسه يبان يقولي خلص يا عبدو بسرعة.... محدش في الشلة كلها بتاعت حضرتك قلي يا عبدو حاف كدة من غير ياعم....
ولا هانيا هانم الجبالي....
تبسم ميدو في أسى وأردف الله يمسيها بالخير, معرفش عنها حاجة إزاي يا بيه دي جاتني ديك النهار من شهرين يمكن ومعاها بنتين صغيرين أولادها مشاء الله سلمت عليا وقالتللي إنها عايشة برة وكل مهتنزل مصر هتجيني تاني
انتاب ميدو لحظات من الحيرة في الحياة وشؤون البشر آخر مرة شاهد هانيا الجبالي كانت في عداد الموتى فكيف وأين ومتى تزوجت وأنجبت ودارت بها الحياة لتسافر خارج الوطن
قاطعه النادل من لحظات شروده
عند حضرتك ولاد دلوقتي صح ربنا يخليهملك
أجابه ميدو بالنفي
فضحك الرجل وأردف واللهي مفيش أحلى من العزوبية بس هنعمل إيه هي دي سنة الحياة

انتهى من الموكا وشكر عم عبده وترك له رقم هاتفه وانطلق إلى منزله بخف حنين وتوالت الأيام عليه في مصابرة يبحث عن مكان لحلمه الذي يكاد يتلاشى من قلة الأماكن المتاحة، فهو لا يريد شقة مفروشة أو إيجارًا جديدًا كما خيل لكل من صادفهم من سماسرة فهو يريد مكانًا ذا حالة خاصة يصلح لتقديم فنًا ويحمل بين طياته جمال الزمن المتعاقب وعبيره.

انتهى من مسح شامل لحي الزمالك والدقي ومصر الجديدة في أسابيع متتالية وبشكل يومي دون جدوى فعرج إلى حي المعادي, سمع أيضًا أسعارًا لا يصدقها عقل ولم يبقَ أمامه سوى فيلل جاردن سيتي التي من المحال أن يجد فيها مكانًا، ولكن قد تأتي الرياح بما تشتهي السفن تلك المرة لأنه بكل بساطة يحمل إيمانًا داخل قلبه أن العناية الإلهية سوف تتدخل في الوقت المناسب وتهديه إلى أفضل الأماكن

وفي حي جاردن سيتي الذي يعلمه جيدًا, أخذ بالبحث والسؤال من شارع إلى آخر حتى أنهكه التعب فوقف يلتقط أنفاسه عند كشك الرملي وأخذ في تفحص المكان بعينين أثقلهما التعب وما بين الصحو وأرق اليوم وجد فتاة تتهادى من بعيد ترتدي عباءة سمراء اللون وتقترب في اتجاهه مباشرة, خطوة تلو أخرى بدأ في التحقق من الشخص القادم فهي ظلال أو طيف مريم, اضطرب قلبه قليلًا فهو لم ينسَ مطلقًا تلك الفتاة التي حركت بداخله

المياه الراكدة وأكدت له أن الأحلام لا علاقة لها بغني أو فقير
اقتربت أكثر منه حتى تلاقت عيناهما وابتسم لها واستعد للسلام
لكنها تركته ومضت
كان كل اعتقاده أنها تزوجت وفارقت الحي وعزز ذلك الاعتقاد
اختفاء فرشة الجرائد الملحوظ من عام أو أكثر
لم يترك نفسه للحيرة هم نحوها ونادى عليها مريم يا مريم
التفتت مريم له ونظرت في وجهه صامتة
وقف للحظات يتفحص وجهها تحول من الوجه الطفولي إلى وجه
أم ثكلى فقد الوجه إشراقه تمامًا وأشرف على الزبول التام
مد يده مصافحًا فمدت يدها في إعياء إزيك يا أستاذ أحمد

توقف للحظات وهو يضع مسحة من جيل الشعر المعتاد الذي
أجهز تمامًا على شعره الثقيل في سنوات معدودة, ظهرت بعض
من الشعيرات البيضاء وكأنها تعلن عن بداية زحفها على ما تبقى
من السواد في الأجناب فبدى منزعجًا طالت نظرته إلى المرآة هذا
الصباح بشكل ملحوظ ولسان حاله يقول نحن الجيل الذي ظلم
من كل شيء حتى جيل شعره وضحك بسخرية ونادى على زوجته
التي اتخذت الشكل المخروطي بسبب زيادة الوزن وكأنها قالب
واحد
عارفة يا ريهام جيلنا دا اتظلم في كل حاجة حتى الموضة جيل

الشعر مرحمناش وبعدين إنتي بئيتي شبه الأنبوبة لييه كدا
دمدمت ريهام بكلمات تعبر عن استيائها من كوميديا دعبس السوداء التي لا وقت لها الآن في صباح يوم جديد (يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم) هكذا تمتمت

لم ينتظر دعبس أي رد من ريهام وأشعل سيجارته وأغلق الباب
فتح دعبس زجاج سيارته التي استطاع الحصول عليها بتمويل بنكي والتي كانت سببًا في مشاجرة كبرى بينه وبين زوجته التي اتهمته بالتبزير وتدخلت أمه لحل الموقف

وضع ال c.d المعتاد صباحًا وهي موسيقى فيروز والرحبانية وارتدى نظارته الشمسية ماركة ريبان الشهيرة وانطلق إلى العمل ترحم على أيام المترو السوداء وحمد الله على نعمة السيارة حتى لو كبدته أكثر من نصف راتبه كان يقول لنفسه وزوجته أنا لست بمبزر ولكني أريد أن أعيش كما أريد أو حتى كما كنت بالماضي
لمح دعبس فتاة تقف عند كشك السجائر القريب من البنك شعرها البني الكستنائي وبنطلها الضيق أجبراه على الوقوف وتعلل لنفسه أنه يحتاج إلى علبة سجائر فوقف عند الكشك واقترب من الفتاة وطلب من البائع علبة سجائر l.m نظر إلى الفتاة وابتسم فبادلته الفتاة الابتسام في توتر وسألته

عمو ممكن تقولي أروح ميدان فني إزاي
دوت كلمة عمو في أذنه كالصاعقة، ارتبك شرح لها الطريق وأخذ

علبة السجائر ونسى الباقي هرع إلى سيارته وأغلقها
عمممممممممممممممممو يعني إيه عموا دانا نازل المفروض
أظبط تقولي عمو هو أنا كبرت أوي كدا
مع أنها كلمة بسيطة، ولكنها كانت ذات أثر موجع جعلته
يسترسل في حديثه لنفسه
طبعًا أكيد عموا واحد بكرش وشعره اتنحل وأبيض هيبقى إيه
براد بت
حمار شغال بقالي سنتين باروح الشغل وأروح البيت آكل وأهشك
النونة وأنام أنا نسيييت كنت حتى بحب إيبيه, الحياة عاشيتني
جامد
تبًا لما بعد الثلاثين حقًا إنها مرحلة تحول كبيرة في حياة الفرد
أصبحت الآن شابًا سابق نفسيًا وفسيلوجيًا ودعت جنون
العشرينات وزخم التجارب وأصبحت إنسان مكبل الأيدي يتلصص
عبير الماضي.
تذكر دعبس ألقابه السندباد والكونشرتوا والديزل وتحسر على
تلك الأيام (أرسل دعبس رسالة إلى ميدو يا بختك يا ميدو إنت
لسة مبقتش عمو)
عصفت به نستولجيا الحنين إلى الماضي لم يستطع مقاومة حنينه
إلى ما قبل عموا فغير اتجاهه إلى كوبري أكتوبر عكس اتجاه
العمل تمامًا نزل إلى الكوربة ركن السيارة وعرج على جروبي

الكوربة وجلس وطلب باتيه بالجبنة ونسكافيه بلاك
هذه عادته في الماضي عند مقابلة محبوبته رنا كان يبدأ يومه بفطار جروبي ثم التمشية في شوارع مصر الجديدة صباحًا ولكنه الآن شخص مختلف تمامًا أجزم أنها لو رأته الآن محال أن تتعرف عليه

ألحان النستولجيا تعزف الآن برقة, أنهى إفطاره بشهية مرتفعة، وتصفح الجريدة وسار هائمًا توقف عند كل ركن له ذكرى بينهما, لم يشعر بالمرارة التي كان يشعر بها سابقًا, بعد مرور الزمن تصبح الذكرى مفعمة بالامتنان والحب للشريك الذي كان فتلك هي الأخلاق النبيلة, انساب مع الشوارع والذكريات أدرك فعلًا مقولة كانت يقظة دائمًا في وجدانه أن الحب يعطي الحياة الألوان المبهجة, وصل إلى ذروة مصالحة الماضي التي كانت شاقة عليه منذ زمن بعيد.

سارت قدماه على غير هدى وكأنه يتبع لا شيء سوى ألفة المكان وجد نفسه أمام بيت رنا استطلع البلكون الذي كانت تطل منه وقد بدى عليه آثار الزمن وجد حبل الغسيل مترهلًا وطبق الدش الصغير متدليًا إلى الأسفل ويعلو السور كم هائل من تراب الزمن اطمأن قلبه أن حبه القديم لم يعاود الزيارة مرة أخرى إلى أرض الوطن أو احتاج هذا الشعور كي ينفي كون رنا عادت مرة أخرى ولم تهفُ إلى لقائه

تقدم بخطوات بطيئة إلى داخل العقار للبحث عن عم عمران بواب العقار العجوز، فلم يجده ولكن وجد زوجته تجلس مكانه تمسك بطفلة صغيرة وتضفر شعرها الأسود الجميل

ابتسم إلى الطفلة وألقى السلام وسألها بلهفة عن عم عمران

أخبرته أنه توفي منذ ما يقرب عامين, سافر إلى موطنه الأصلي أسوان التي أراد أن تكون محطته الأخيرة أو معراجه إلى الملاكوت الإلهي

بدى عليه علامات الأسى وأخرج من جيبه ورقة فئة مائة جنيه وأعطاها للطفلة الصغيرة

شكرته السيدة وسألته عن معرفته بعم عمران

أجابها بأنه كان مندوب إحدى شركات التأمين القريبة من المكان وأنه كان يأخذ قسطًا من الراحة بجوار زوجها الطيب الذي كان يتفنن في صنع كوب الشاي له

أقسمت عليه أن ينتظر وسوف تصنع الكوب بنفسها وفاءً لزوجها شكرها وأخبرها أنه على عجلة من أمره لكنها ألحت عليه أن يبقى

جلس دعبس على الدكة الخشبية للبواب الذي كان هو الشخص الوحيد الذي يسرد له الحكايات عن فتاته الجميلة, تنهد دعبس وتذكر عشرة أعوام أو أكثر مضت لمح شريط حياته في عجالة ومحطات حياته الرئسية الشغل والزواج والإنجاب ووفاة العجائز

حتى عم عمران
رائحة الشاي تخللت أنفه ومدت السيدة له الكوب فقام كي تجلس مكانها ولكنها رفضت وجلست بجانبه على الدكة الخشبية القديمة
سألته ماللك يا بني وشك اتغير ليه كدا من ساعة ما سبتك كنت بتضحك دلوقتي اتهميت
ابتسم وأخبرها أنه يضحك من دوران الزمن
مصمصت شفتها وقالت كله بيهون يابني دا حتى العمر بيهون
أخذ رشفة من الكوب وأشعل سيجارة وسألها
هيا لسة شقة أستاذ أبو العزم مقفولة
تعجبت السيدة من معرفته بأحد سكان العمارة فأخبرها أنه كان عميله في شركة التأمين ولا يعلم شيئًا عن حالهم منذ وفاته
أخبرته أنهم استردوا الشقة المحجوز عليها من قبل البنك وجاء رجل كبير وذو هيبة ويتحدث العربية بصعوبة (ففطن أنه خال رنا) وأعطى عم عمران المفتاح لأي ظرف وأخبره بالحفاظ على الشقة حين العودة ولم أرَ وجهه مرة أخرى إلى أن جاءت الهانم الصغيرة ساعة الدفنة
انتاب دعبس القلق وأصابه توتر ملحوظ فحاول أن يتماسك وأن يدع السيدة تسترسل في الكلام
فسألها وكأنه يؤكد كلامها ليس أكثر

هي الهانم مرات أبو العزم بيه توفيت
أخبرته أن هذا من أكثر من ٣ سنوات وأنها لم تكن تريد أن تدفن في بلاد الغربة وأوصت بدفنها في مقابر الأسرة بالإمام الرفاعي وأردفت كلنا هنموت يا بيه
سألها دعبس مراوغًا وكأنه يعلم ليعرف أكبر كم من الأخبار
والهانم الصغيرة رنا هانم معاها كام عيل آخر مرة شوفتها كانت معاها ولد
مشاء الله يا أستاذ دي معاها كمان على الواد دا بتين زي القمر طالعين خوجات لأبوهم إللي هو أصلًا ابن خالها
لكن حضرتك هو اسم حضرتك إيه
نهض دعبس من مكانه وكأنه اكتفى بما سمعه ليبدد ما تبقى له من وهم في أن رنا بالتأكيد لم تنساه, وقد تكون عزفت أيضًا عن الزواج وتصارع أيامها ندمًا وشوقًا للقائه في حالة مجردة من الخيال الكاذب الذي يصيب من فقد حبه كنوع من العزاء لنفسه بأن الحبيب السابق بالتأكيد خاسر.
أخبرها أنه اسمه محمد وأن عليه الذهاب الآن ليلحق بعمله ووضع كوب الشاي آخر ما تبقى له في محراب حبيبته الغائبة على الدكة وألقى السلام عليها ورحل
ردت عليه السلام ونادت الفتاة الصغيرة وأكملت تصفيف شعرها وبعد خطوتين من سيره نادت عليه مرة أخرى

أستاذ أحمد أستاذ محمد, فنظر لها دعت له وقالت (إن شاء الله يابني ربنا هيعوض عليك)
لم يفهم الدعاء لعلها فطنت بذكائها الفطري أني الحبيب المجهول أو لعلي كنت أتسم بالغباء في أسئلتي المباشرة وادعائتى ولكن الآن لا شيء يهم
فشاور لها وألقى السلام (سلام عليكوا يا حاجة)
شعر دعبس أن الألم الماضي كان يجب أن تكون لتترك لنا الذكرى والنستولجيا التي تعطي طعمًا للحياة حتى ولو تركت ألمًا ينزغك دومًا بمرور العمر وأن رنا في المكانة حبيبته السابقة ولكن في الحقيقة هي جزء من قدره كإنسان.

* * *

مدخل طويل في عمارة أنيقة بحي المعادي الراقي, يقف منادي السيارات ويلمح د سامي قادم من بعيد فيرفع يده لتحيته في أدب ويأخذ مفتاح سيارته ويركنها في المكان المخصص له, وقف حارسو الأمن احترامًا لدخول د سامي المركز, ابتسمت فتاة الاستقبال وفتح له الساعي باب المكتب, دخل د سامي إلى مكتبه في عزة وشمم خلع جاكت البدلة وعلقه على شماعته المخصصة ونظر من شباك المكتب ولمح نور شمس ساطعًا فابتسم
كان يدرك أنه في يوم من الأيام بالتأكيد سوف تبتسم له شمس

الصباح, أزاح كرسي المكتب الجلد وجلس ونظر إلى الأمام, ضق الساعي على الباب بهدوء ووضع كوب النسكافيه وانصرف, فتح د سامي اللاب توب وأخذ يقرأ المراسلات القادمة إلى صندوق البريد الإلكتروني

وصلته الرسالة المهمة التي كانت ينتظرها وتعلن عن قدوم الطبيب الصيني المتخصص في علاج الصداع النصفي بالإبر الصينية الذي ألح عملاء المركز في طلبه, وعدة رسائل أخرى تحتوي على السير الذاتية لاختيار طاقم الأطباء المساعدين له

أجل النظر في السير الذاتية إلى بعد صلاة الظهر وهم بجولة في طرقات المركز للوقوف على النظام الذي وضع خطته بنفسه..., يا سبحان الله بهذا التسبيح الذي يحوي ضمنيًا التعجب مما وصل إليه حدثته نفسه وتذكر قول الله تعالى (إنما يُوفى الصابرون أجورهم بغير حساب) شتان ما بين سامي الأمس واليوم أصبحت لا أخاف من عيون الجيران ولا أحتجب في غرفة ضيقة ما أجمل مواجهة العالم بالنجاح وصلت الآن إلى ما كنت أحلم به وأكثر

أنا د سامي علم الدين المدير العام لأول مركز طبي في القاهرة للعلاج باستخدام الخبرة الصينية وهو المشروع الأول للشراكة المصرية الصينية في مجال الطب للقطاع الخاص..... يا الله إعلان صغير في جريدة وإصرار أمي على الذهاب والتقدم للوظيفة والقدر أن الشرقاوي هو المدير الإقليمي للمشروع بالتأكيد إنها

من تدابير الله الذي عوض عبده الفقير بعد طول الصبر الحمد لله............
تليفون د سامي الآن لا يهدأ من الرنين ليل أو نهار... استقبال وفود صينية في المطار وعقد مؤتمرات طبية وإعلام ومقابالات صحفية ونجاح يتبعه الآخر وشهرة وافتتاح فرع جديد في مدينة نصر.... سناء شديد من القائمين على المركز ودعوة د سامي للتكريم في الصين للمجهود الواضح.
.... لم يدرك أحد ما كان يشعر به د سامي من إحساس النصر الذي يملأ دنياه بأكملها.... استغرب كل من حوله التغيرات الملحوظة التي طراءت على حاله... سيارة جديدة موديل السنة أفخر البدل استبدل الموبيل القديم بآخر حديث وحمل اللاب توب الذي لم يعد يفارقه... يتحدث اللغة الإنجليزية باستمرار الآن وقد انتهى من افتتاح الفرع الجديد واختار طاقم الأطباء بعناية وتأكد من سير العمل وطلب أجازة لالتقاط أنفاسه بعد عامين من الدوام على الوظيفة دون انقطاع حتى في الأجازات الرسمية كان دائم الحضور
طابا كانت واحة الهدوء بالنسبة له وإعادة ترتيب الأفكار اختار فندق جولدن بيتش ذا الربوة المرتفعة ليتثنى له رؤية الشاطئ والجبال, وصلت السيارة اللموزين التي استقلها من المطار إلى الفندق.... صعد إلى الغرفة وضع حقائبه وأغلق الباب, أخذ دش

ساخنًا وارتدى ملابسه الداخلية فقط وأغلق هاتفه المحمول بعد أن طمأن والدته على وصوله وفتح جهاز الاب توب وأدار أغاني السيدة فيروز, استلقى على الأريكة في بلكون الغرفة ونظر إلى البحر والجبال أشعل الغليون الذي اشتراه منذ أكثر من ٢٥ عامًا في رحلته الأولى إلى لندن والذي كان يخجل دائمًا من إشعاله أو بالأحرى لا يمتلك ثمن تبغه وأخذ نفسًا عميقًا منه في امتنان شديد وقال بصوت عالي ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر)

سبع عجاف مضت والآن تلاشى الألم والحصار النفسي وتوقف جلد الذات لم يعد للمهدئات قيمة, أشرق وجه أمي وصغرت أعوامًا.... امتلأت ثلاجة المنزل بالخيرات وارتاح والدي من مشاوير الحياة اليومية المتعبة استطعت بفضل الله أن أعوض ما فقدت من نجاح وليس على علم عندي ولكن بتوفيق الله وقدره وتمسكي بفرصة إثبات الذات, نعم اجتهدت ولم يضع الله أجري وكأن دموع عيني التي طالما أزرفتها لم تذهب هباءً

 الآن أنا أفضل حالًا من كثير من الأصدقاء وكأن الله أخر كل ما تمنيته ثم أفاض علي الرزق فجأة لدرجة أنني غير مستوعب تمامًا سرعة العمل والنجاح عامين الآن لم أشعر بهما..

ما أقسى أيام الانتظار والفشل وكأن اليوم بمائة أو أكثر.... طويل ليل الوحدة بل في بعض الأحيان كنت أشعر بأنها جند من جنود

الله يأدب بها عباده ولكن لم يفهم هذا المعنى عن الله الكثير والشعور الأقصى الذي لا أجد له مرادفًا للتعبير عنه أو اختصاره هو امتلاك مقومات النجاح مع عدم وجود الفرص مطلقًا, لم أعد أقلب صفحات النتيجة بألم منتظر التغير ويعاندني الصبر بل نسيت تلك العادة ولا عودة لها...

.. كونت مجموعة من الصداقات الجديدة لا تعلم عن أيام الماضي شيئًا ولم أعد أحتاج للاختباء من نظرات المحاطين أو من تملص أصدقاء العمر من رنين هاتفهم باسمي, الكل تخلى عني مع العلم أني لم أكن في حاجة مادية منهم ولكن خيل لهم ذلك, كم كنت واهمًا عندما عدت إلى الوطن يمتلكني الحنين إلى دفء الأصدقاء وسرعان ما تبدل الحال مع أغلبهم وكأنني كبير الحاقدين

لم أنسَ عندما أخفى مني أحدهم أولاده في مناسبة اجتماعية كما يفعل النساء خوفًا عليهم أن تصيبهم عيني كما اعتقد,انتابني حينها أقسى شعور بالألم وكأني امرأة عاقر وبلغت من الكبر عتيًا ولكن الحمد لله اكتشفت الآن بعد طول الرحلة إجابة السؤال الوجودي لمراد الكيال

فمعنى الوجود يختلف باختلاف المراحل العمرية، ففي الشباب كان معنى وجودي هو اجتياز البحار بحثًا عن الأسفار والمتع والخروج عن النمطية والمألوف, وبعد العودة كان معنى وجودي هو ضحكة أبي وشعور أمي بالأمان, وفي السنين العجاف كان معنى

وجودي تحقيق العبودية وما شغفت به وتعلمته من جميع الأديان فكان المعنى معنويًا أكثر من أي شيء فهو صبر وتحمل وجلد وحسن ظن بالله إلى أني أتى الله بالفرج بعد الامتحانات المتتالية في كوني عبد

أشعر الآن بالراحة الداخلية التي طالما بحثت عنها ولم أجدها........

سوف أبدأ من الآن استمتاعي بالحياة بشكل جديد وألعب دور البطولة الذي راوغني مرارًا...... شعر بلسعة برد لذيذة ممزوجة بنشوة انتصار ومع انتهاء دخان الغليون أرتمي في أحضان السرير وغاب في نوم سهل وعميق وصوت السيدة فيروز يتهادى في عذوبة (حبيتك والشوق انقال)

* * *

في ليل خريفي جميل تسللت الذكريات إلى دعبس خلسة, واحدة تلو الأخرى وكأنها سارق لطيف فكل منا لديه حائط صلب من الواقع الذي يمنع خياله من الجموح ويجبر عقله وتفكيره على أن أحلامه مجرد عبث سنون عمر مضت وليس لها وجود الآن وذلك لعجزه عن تحقيقها ومساعدة نفسه على التأقلم والتئام مع الواقع الحالي

ولكن سحر الأحلام على فترات يداعب خيالنا وأيضًا مجرد التفكير فيها يشعرنا بنوع من النشوة, نشوة أننا بشر وليس تروسًا في آلة

الزمن, سحب دعبس من درج المكتب كشكول أزرق اللون مدون به أول تفاعله مع الورق كشاعر

تصفح سريعًا أبيات الشعر والأغاني المكتوبة بخط واضح وكأنها تؤرخ له كإنسان يتفاعل مع الواقع ويعبر عن نفسه في أبيات شعرية ابتسم واقتضب وانشرح وهو يراجع كتاباته داخل أوراق الكشكول الصفراء, سأل نفسه هل كتابة الشعر كانت موهبة فعلًا أم أنها طريقة وجدها للتعبير عن حاله وما بداخله في وقت ما

وجد أنه آخر ما كتبه كان منذ أكثر من ٥ أعوام قبل الزواج وتحمله للمسؤولية, أحس أنه مسجون في أيام متشابهة تكرر نفسها برتابة, حاول أن يكتب.... ولكنه شعر أن القلم يزن أطنانًا ولم يستطع, فأغلق الكشكول وجلس صامتًا وشرد قليلًا

وبادره خاطرة أو شعور أو تبرير لعدم قدرته على الكتابة الآن ففي الماضي كنت أحمل أحلامًا كثر ولكن أنا الآن شخص مختلف صنعت لنفسي قالبًا أو بالأحرى صنعت الحياة لي قالبًا فتوقف قلبي عن الانفعال وتعاظم دور العقل المتبلد الذي يفكر في العيش ولقمته وماتشات الكورة والمنزل ومتطلباته والوجبات الاجتماعية وتوزيع الابتسامات الباهتة على الأصدقاء المزيفين والجمعيات وما أدراك ما الجمعيات التي أصبحت قدرنا فمعظم البيوت لا يستقيم حالها الاقتصادي إلا بتلك الوسيلة المجحفة

أحس بغضب شعر أن ميدو صديقه المتمرد لديه كل الحق فيما يفعله الآن, إنه يجري وراء ما يشعره أنه إنسان ولذلك تمرد واغترب في كهف معزول عن الآخرين حتى لا يتشبع بخصال العوام.. عندما استهزأ بفكرته التي شرحها له واتهمه أنه مرفه كان في الحقيقة يدافع هو عن استسلامه للظروف

ليتني أستطيع أن أرجع إلى الخلف لبعض من الوقت وأعيد التفكير ولكني اتخذت معظم قراراتي تحت وطأة لحظات اليأس حتى الزواج ولكن ما يجعل لحياتي معنى هو عمر طفلي الصغير الذي أتمنى من كل قلبي أن يصنع لنفسه قدرًا مختلفًا مليء بالإنجازات وتحقيق الأهداف

لم يستطع دعبس الاسترسال في أفكاره أكثر من ذلك وسمع صوت أكياس تسحف على الأرض وبكاء طفل ورنين هستيري على جرس الباب فهم مسرعًا كي يفتح

إذ بريهام عائدة للتو من زيارتها الأسبوعية لوالدتها تحمل في يدها أكياس بلاستيكية كثيرة وفي اليد الأخرى طفله الصغير وفي نفسها حديث الأم للابنة الذي في الغالب يؤرق المنزل لمدة يومين على الأقل

استقبلها بود وألقى عليها السلام... فعبثت في وجهه وبدأت في مناوشات للشجار

لا يريد الآن أن يخرج من حالة الحنين والتأمل التي قلما يختلسها

لنفسه لينأى بها عن الدنيا ويشعر بالخصوصية ولكنها صاحت في وجهه دون مقدمات

محضرتك قاعدلي في البيت قال إيه بتريح وسيبني أنا والواد نضرب دمغنا في الحيط ونتشحطط في المواصلات

كأننا مش همينك ولا الواد دا ابنك

أحس دعبس أنه في دوامة لا يستطيع فيها أن يرجع إلى الخلف أبدًا, فسكت وأخذ الجريدة وتوجه بها إلى غرفة النوم كي يهرب من تداعيات الأحداث وهذا حاله دومًا

يعلم جيدًا أنه اذا ترك نفسه لانفعالته قد يخسر الكثير وعلى راسهم ريهام فيؤثر الابتعاد عنها عند الغضب لانه لا يتحملها كثيرا فى لحظات السعادة

هرعت إليه ريهام وأمسكت بالجريدة التي يتفحصها وجذبتها من يده كي ينتبه لحديثها

بدأ دعبس في رفع صوته هو الآخر (مانا هعمل لحضرتك إيه هو أنا لازم كل أسبوع آجي معاكي هو كشف دكتور دي حاجة تقرف مانا متنيل طول الأسبوع بشقى علشان حضرتك تتبسطي)

على أساس إيبه يعني مسكني في قصر وجايبلي خدامة.... مانا كمان شقيانة زيك بالظبط في البيت وتربية الواد ولسة)

لسة إيه يا ريهام.................................. ونظر لها مستغربًا ومتحفزًا أيضًا وهم بالدخول أسفل الغطاء وطلب منها أن تطفئ

نور الحجرة كي يأخذ قسطًا من النوم
ولكن أصرت ريهام ألا تترك المشاجرة تنتهي هكذا
المرادي مش هتهرب مني
وكأنها حالة انتفاض لبركان ثأر عايزة أعرف اتجوزتني ليه أنا مش عايشة مع جوزي أنا عايشة مع ضل راجل عمرك محسستني إنك بتعمل حاجة من قلبك إنت مين إنسان باهت بتعمل الواجب في كل حاجة وعمري محسيت إنك بتعمل حاجة من قلبك إنت مييين قولي اتجوزتني ليه وإنت جواك مش مقتنع
وهي المرة الأولى التي تجذبه فيها من هدومه ولكنه أزاح يداها لينام فجذبته بعنف أكثر حتى أنها غرزت أظافرها في رقبته فتألم والتفت إليها وصفعها على وجهها بكل قوة
فبكى ابنه تحول دعبس إلى شيطان أخذ في السب والركل والضرب بكل شيء وأي شيء تطوله يده واستمر ابنه في البكاء وأصاب دعبس نوبة من الهياج وكأنه ينتقم من نفسه وزوجته وحظه وكل شيء
لم تستطع ريهام ترجمة ما يحدث أخذت ابنها في حضنها تحتمي به من هذا الغول فاقد العقل وجلست في آخر الردهة أسفل ساعة الحائط التي كانت تدق بشدة هذه المرة وكأنها هي الأخرى متوترة متسارعة كضربات قلبها الآن
انتهى من تكسير كل شيء ورمقها في مكانها فأسرع إليها وأمسك

الساعة وهم أن ينهال بها على رأسها
فصرخ ابنه بشدة وأصيبت ريهام بالإغماء
صراخ الطفل هو الشيء الوحيد الذي جعله يتوقف عن العنف
نظرات الطفل المذعورة له ممسكًا بالساعة جعلته يستفيق من غيبوبته الشيطانية
شعر دعبس بخوف شديد على ابنه وزوجته الملقاة على الأرض
أخذ الولد من الأرض ورفعه عاليًا حاول تهدئته دون فائدة وضعه على سريره, وحاول جذبها من يدها ولكنها كانت فاقدة تمامًا للوعي فحملها إلى السرير واهنة وجرى إلى التسريحة وأحضر زجاجة الكولونيا وحاول إفاقتها عن طريق استنشاق الرائحة فشهقت واستردت الوعي وتكلمت بصعوبة
إنت أكيد رميته من الشباك هو فين الولد وأخذت في البكاء وتحاملت على يدها بضعف شديد وجلست القرفصاء وعينها تبحث عن ابنها في كل مكان حتى وجدته بجوارها ملقى على سريره ويصرخ بشدة فأخذته في حضنها وحاولت تهدئته
كابوس لا تريد ساعته أن تنتهي أو هي احتفالية لمجموعة من الشياطين ترقص في المنزل الآن
دعبس أصابه حالة من الوجوم الشديد أخرج كل ما عنده من غضب وطاقة وبدأ بالكاد يستوعب الحدث وريهام ساكتة تمامًا تهدئ من روع الصغير حتى هدأ

بحث دعبس عن علبة السجائر وجدها بجانب صور البلكونة فأشعل واحدة ووقف صامتًا حالة من عدم الفهم أو الوعي أو الاستيعاب, لأول مرة في حياته يرفع يده على فتاة بكل هذا العنف وكأنه ينتقم لشيء

أنهى السيجارة تلو الأخرى ودخل إلى غرفة النوم هاله منظر ريهام, وجهها أصابه ورم وكدمات من شدة الصفع وكحل عينها تحول إلى سحابة سوداء تمطر مطرًا أسود حزينًا لا يتوقف فجلس أمامها وبكى لم يبكِ في حياته هكذا حتى في وفاة والده

أحيانًا يبكي الإنسان بكاء عمر حبس فيها دموعه كان محتاجًا أن يبكي فحتمية البكاء الآن لا لاستعطاف ريهام ولا لشيء آخر فقط أراد أن يخرج كل ما بداخله بكى حبيبته وأباه وأحلامه وروحه الحبيسة ودوامة حياته التي يعتقد أنه مجبر عليها في كل شيء

رق قلب ريهام لبكاء دعبس الشديد فهي لم تعتد أن ترى زوجها بهذا الضعف وتعلم تمامًا أنه صاحب شخصية نرجسية تنكر الفشل دائمًا وتبرر لكل أخطائها

قامت في إعياء وجلست هي الأخرى بجانبه وضعت يديها الضعيفة على كتفه احتضنته شعرت بسخونة أنفاسه وصراخ روحه الحبيسة حاولت أن تحتويه مسحت دموعه الغزيرة وتمتمت بكلمات تهدئ من روعه

ولكن بلا جدوى لم تشعر بدموعها هي الأخرى التي انسابت

لحال زوجها التي عشقت نرجسيته وكبرياءه لا تريد أن تراه ضعيفًا مهزومًا

نعم الأنثى لا تريد أن ترى لحظات عجز حبيبها بل تتألم لذلك مهما كان سبب بكائه حتى ولو كان هو الجاني والماجن والمجنون, نسيت تمامًا ركلاته وصفعاته وانتبهت فقط لحاله الواهن فقامت وأحضرت منشفة من الدولاب وبللتها بالماء وأخذت في مسح وجهه ورأسه وقرأت آيات الذكر الحكيم (المعوزتين وقصار السور وأخذت ترقيه)

ومع صوتها الحاني وهي ترقيه شعر أنها أمه التي لم تحنُ عليه في الصغر وليست فقط زوجته نعم هي أقصى درجات الاحتواء فقدرتها على استيعاب ما وراء الشجار من ضغط نفسي كبير في حالة من نكران الذات وهنا تتجلى عبقرية الإحساس لدى الأنثى فطريًا فهي تستطيع أن تستجلب مشاعر الأمومة والحبيبة والابنة في آن واحد

فقبل يدها واعتذر وقبل رأسها وكتفها وصدرها بل أنه قام من مكانه وجلس تحت قدمها ممسكًا بها كطفل صغير فنزلت له على الأرض وأخذت رأسه تقبله وفمه وجبينه ووجهه وقالت له كلمة لم يعتد سماعها منذ أعوام لململت بها شتاته (إني أحبك) لخصت تلك الكلمة قدرتها على استيعاب الموقف

أخبرته أن كل شيء يهون في الدنيا وأنها من الممكن أن تتحمل أي

شيء سوى أن تراه دائمًا يتمنى بقلبه وحتى إن لم يبح قدرًا مع غيرها
سارحني هل ما زلت تحبها
نظر لها دعبس منكسرًا وأجاب لا ولكني أعشق ذكرياتي معها وبكى في حضن ريهام صامتًا

* * *

إطلاق ميدو لشعره (بوني تيل) منعه من زيارة عم سيد الحلاق مدة ثلاثة أعوام متتالية, وحنينه إلى صوت هذا الرجل العجوز دفعه لحمل الزهور والذهاب به إلى صالون الحلاقة الذي وجده مغلقًا على غير العادة, توالت زيارة ميدو إلى المكان أكثر من مرة على فترات متباعدة وأصابته الدهشة من استمرار إغلاق الصالون وعند سؤال بائع الأحزمة الجلد في الجهة المقابلة للمحل أخبره أنه يأتي بين الحين والآخر يقف أمام باب المحل ينظر إليه كأنه يحدثه ويرحل في أسى دون القيام بفتحه واستطرد قائلًا أصبح الحج سيد غريب الأطوار، وعندما يحاول أحد مبادلته الحديث لا تجد منه أي ردة فعل سوى كلمة واحدة (هي دي النهاية) ويهم بالانصراف في حالة من الهذيان
تحتم على ميدو زيارة الحاج سيد الذي احتل مكانة الأب الروحي له بعد فقدانه والده, وتذكر زيارته في حي العجوزة مع والده

أبان الطفولة خلال فترة نقاهة الحاج سيد من مرض أصابه وارتباط تلك الزيارة شرطيًا مع قطعة الشيكولاتة الكبيرة التي أهداها له عم سيد صديق والده الطيب التي جعلت محبته تتسلل إلى قلبه طفلًا يدرك ببراءته الأشخاص الجيدين

بعد سؤال المارة وصل إلى العمارة التي يقطنها عم سيد وسأل البواب ليقطع ما بداخله من شك

هو الحاج سيد بخير

سؤال بسيط لبواب عمارة من شخص عادي ولكن المشاعر شيء مختلف تمامًا ضربات قلبه زادت وهو ينتظر رد البواب وما بين السؤال والجواب كثير من الخوف والترقب

أيوة يا بيه بس بقالوا يجي ثلاث شهور مابينزلش بس مين حضرتك

شعر ميدو بارتياح وتنفس الصعداء وأخبرة أنه أحد زبائنه القدامى الذي استشعر القلق من غياب الحاج سيد, سأله ميدو مستوضحًا

طب هو عيان

لا يا باشا دا بخير بس مبينزلش من ساعة ما هاني ابنه سافر وبطيبة قلب وتعاطف من البواب

اطلعله يا بيه وقام البواب بتسجيل رقم الدور القاطن به الحاج سيد في ترحاب وهو يتمم بكلمات (واللهي لسة الدنيا بخير)

وصل ميدو إلى الدور الرابع وضغط على جرس الشقة التي تحمل رقم ٣٦

دقائق معدودات وفتح عم سيد الباب في وهن وفوجئ أن الطارق هو ميدو, اختلطت مشاعره ما بين الفرحة والاندهاش ولكن الحزن هو البطل بين المشاعر فاحتضن الحاج سيد ميدو وبكى نوبة بكاء عارمة وكأنه ينتظر من يخفف عنه أحزانه وبأنفاس متقطعة

اتفضل نورت يا ميدو يابني, الدنيا لسة بخير اختفت كلمات الترحاب أمام الدموع التي غلبت الرجل بل تتلاشى الدنيا كلها بجانب دموع العجائز

اهتز ميدو من دموع الرجل ولكنه تركه يخرج كل ما بداخله فهو يعلم أن البكاء يريح النفس, جلس بجوار الرجل حتى انتهى وقبل جبينه وأخبرة أنه ذهب إليه أكثر من مرة وأردف أنه ليس حلاقه فقط بل أنه بمنزلة والده الروحي ويعز عليه اختفاؤه المفاجئ

التقط عم سيد أنفاسه وقام ليحضر مشروب التحية إليه, فأقسم ميدو بغليظ الإيمان أنه لا يريد شيئًا وتفحص ميدو وجه عم سيد المرهق وهي المرة الأولى التي يراه فيها بهذا العجز, أين الشياكة وابتسامة الوجه ورائحة بكوربان كل تلك الأسئلة في داخله ولاستشعار عم سيد حالته المزرية في عيون ميدو المرتبكة,

قطع أفكاره المسترسلة بأنين أب مكلوم

(ابني هاني سابني ساب أبوه وهاجر قللي معلش يا بابا أنا لازم آخد فرصتي أنا كمان وأحاول) وانهمر في البكاء مرة أخرى, وضع يده على علبة السجائر وسحب واحدة وأشعلها وسعل سعالًا شديدًا.... حاول ميدو أخذها من يده لكنه رفض بعصبية وأردف عارف يا ميدو يابني أنا كنت معتقد إن الولد دا الوريث الشرعي ليه في كل حاجة أنا كنت بحوش وأشيل وأوفر علشانه منا معنديش غيره علمته أحسن تعليم... طول عمري كنت بخاف حد يعيره إن أبوه حلاق فكنت بحرم نفسي من كل حاجة علشان يبقى أحسن من كل صحابه من ابن الدكتور والمهندس والضابط وبعد ما تخرج من الهندسة حسيت إني أنا إللي اتخرجت كنت هطير أنا وأمه الله يرحمها بس في الآخر قللي أنا همشي من البلد كلها قلتلوا طب المحل بصلي وقالي أنا باشمهندس مش حلاق

شفت العيااااااااااااااال

أنصت ميدو جيدًا حاول أن يدافع عن هاني من أجل التخفيف على عم سيد أخبره أنها مشكلة جيل يعتقد أن السفر هو حل لكثير من الشباب لتحقيق أحلام

فابتسم عم سيد وأردف طيب والأب يا ميدو يابني مش ليه حق برضوا مين يبرني في كبري أنا دلوقتي لو مت محدش هيعرف عني حاجة صح

حاول الحاج سيد أن ينهي حديثه المؤلم عن ابنه العزيز الذي عايره في نهاية المطاف بمهنته وتركه ورحل وكأنه يحمل من القسوة والأنانية ما أنساه حنان أبيه طيلة عمره, وسأل ميدو وهو يحاول أن يبدو هادئًا ومتماسكًا

المهم قوللي يا بني إنت الحاجة عاملة إيه ولسة متجوزتش لحد دلوقتي لييه وإزاي شغلك

حكى ميدو له عن رحلته باختصار وأنه الآن بلا عمل ويدرس عمل مشروع ثقافي ولكنه أكثر ارتياحًا الآن منذ تعرفه على نفسه واكتشافها من جديد

اندهش الحاج من قدرة ميدو على المخاطرة وفكر في كل كلمة قالها ميدو, كان ينظر له نظرة مفعمة بالتقدير أخبره أنه بطل ولو حتى أمام نفسه وأنه اختفى معنى البطولة في الحياة إلا في أفلام السينما فقط وأن فكرة تقديم فن للناس أو إذاعة أو شيء يلتمس الرقي الثقافي للمجتمع هو أشد الأهداف نبلًا

هم الحاج بالوقوف ثم شرد قليلًا وأشعل سيجارة أخرى وطلب من ميدو الاستماع لما سوف يمليه عليه دون أي نوع من المقاطعة أو النقاش

ميدو يابني أنا هطلب منك حاجة ولازم تسمع كلامي أنا بعت كل حاجة كانت عندي وخدت فلوسها وحتطهم في البنك وهبيع الشقة دي كمان بس المحل إنت هتاخده ولازم تاخده هننزل

نسجله بكرة في الشهر العقاري
قاطعه ميدو لم يسمع منه أي شيء وأسكته بكلمة واحدة ابقى اعمله حتى دار خيري للقطط والكلاب على روحي
سكت عم سيد لدقائق وقال أنا هرجع أموت في بلد أبويا هقعد مع أختي تخدمني هناك هسبلك رقمي تشأر عليا
بس المحل دا يفضل كدا ميروحش للغرب أبدًا وابقى اكتب على اليافتة (لكل بداية نهاية)
قاطعه ميدو (ربنا يديك الصحة يا حج سيد وتنزل تنور محلك تاني)
الأقدار يابني أقوى من كل شيء يمكن أبوك جه يحلق عندي في الستينيات علشان السبب دا وإذا كنت إنت شاب وسيبت شغلك علشان تلاقي نفسك يمكن أنا برضوا لما تاخد مني المحل ألاقي فضللي حاجة من نفسي دي مش خدمة ليك دي خدمة ليا أنا
أخبر عم سيد ميدو أنه سوف يتنازل عن حقه في المحل (خلو الرجل) وكما كان يريد أن يسجل المكان باسم هاني ولده سوف يفعل معه ذلك ولكن عليه دفع ثمن تغيير العقد باسمه لوكيل أعمال أصحاب العمارة النسونجي الذي لا يهمه فقط سوى جمع المال لصرفه على الساقطات وأنه يستطيع إنهاء الأمر بمبلغ خمسين ألف جنيه وعليه تدبيرها في أقل من أسبوع
انتهت المقابلة بحديث سار

شعر ميدو أن الأقدار تساعده لم يكن يحلم مطلقًا بعرض سخي كهذا تأكد أن البداية أصبحت قوية الآن استعلم عن رصيده البنكي بعد أن عاش سواحًا في بلاد الله يتعلم ويسافر ويدرس فوجد أن ما تبقى له يفي ويزيد إجمالًا عن المبلغ المطلوب فقام بسحبه دون تردد وأبلغ الحاج سيد باستعداده لإتمام شراء المحل وبالفعل في جلسة في بار اللاريزونا انتهت الصفقة وتم تحويل عقد إيجار المكان إلى صاحبه الجديد

تجرع الحاج سيد عدة زجاجات من البيرة وأخبر ميدو أنه جلس منذ زمن بعيد في هذا المكان يحتسي كمًا من الخمور ويضحك بشكل هستيري كان يوم وفاة والدته التي كان شديد الارتباط بها وجلس حوله مجموعة من الأصدقاء في أسى من حاله فكيف بمن فقد أمه أن يضحك هكذا ويتجرع الخمر واستطرد

لا يعلم أحد منهم أني كنت أقصد ما أفعله كنت أريد أن أنسى تمامًا فقدي لأمي كي تستمر حياتي كشاب يتحسس طريقه إلى المستقبل أما الآن فأنا العجوز الذي لا يتأثر بالخمر مطلقًا أو قل لا أحمل مستقبلًا يتحتم عليه نسيان الماضي لتكملته

نظر لميدو بعين أصابهم الإرهاق والاحمرار وبصوته الرخيم الخشن

عارف يا ميدو يابني اليتم الحقيقي هو يتم الأم هو الأب عمل إيه أنا عاملت إيه لهاني قصدي الباشمهندس هاني وانهمرت

الدموع من عينه بغزارة
ارتبك ميدو وحاول تهدئة فأخبره أن يتركه لزرف الدموع على ولده المهاجر ثم قام وخبط كفيه بقوة فحضر النادل فطلب منه إحضار زجاجة بيرة استلا بل زجاجتين وجلس على كرسيه ونظر إلى ميدو ضاحكًا
مبروك يا ميدو يبني والعقد أهو وطز في البشمهندس هاني
ضحك ميدو وقام بوضع العقد في طياته وقام بتسجيله في اليوم التالي في الشهر العقاري ورفع قضية صحة توقيع كإجراء احترازي
عاد الآن الرجل المسن إلى بلدته منهيًا حياته وكفاحه في المحروسة، وهو القادم إليها في ستينيات القرن بشنطة قماش
أنهى عم سيد كل مصالحه في القاهرة وعرج المرة الأخيرة إلى المحل لملم أشياءه من المكتب وهم بأخذ صورته من على الحائط فمد ميدو يده نحوها (معلش سيبهالي) فبكى الرجل منفعلًا ولم يستطع ميدو أن يحبس دموعه هو أيضًا
لم يكن يعرف أن القدر سوف يضعه في هذه التجربة لم يستطع أن يقول لعم سيد لا
شعر أن رحيل هاني ابنه أفقده كثيرًا من توازنه وأنه رأى في ميدو ملامح الابن البار الذي يطيع الأب في خريف العمر وأنه شعر أن الحاج سيد اطمأن أخيرًا على كفاحه المتمثل في صالون الحلاقة عندما تركه في حوزة أحد الشهود على تاريخ نضاله.

مع صباح كل يوم جديد أتحسس استقالتي المكتوبة منذ أول يوم التحقت به في هذا المكان, لا أستطيع أن أطارد أشباح الأحلام التي تداعب خيالي في أني خلقت حرًا وليس حبيس ثواني حبيسة دقائق رهينة ساعات
أنظر من نافذة المكتب عندما يعتريني الملل وأحسد عصفور شباكي البني الذي يهز رأسه في شمم وينتظر التقاط رزقه في ثقة ودون خوف ويعود ليجلس مكانه هادئًا لا يفكر في رزق الغد وينام ساعة الغروب هادء البال
لماذا لم أخلق عصفورًا لا يحمل هموم البشر فمنذ ان اصبحت ابا وان احمل هما لا علاقه له بشخصى وهو الخوف من الغد والقلق

على المستقبل ففي الماضي لم يكن يعتريني الخوف قط فقد كنت بمفردي واعتقدت في الماضي أني تأهلت نفسيًا إلى الغد حتى وإن كان يحمل منغصات ولكن مع تحمل أسرة كفلتها أنا طوعًا أصبحت أخاف, كل أملي أن أستطيع أن أنجح في هذا التحدي الذي كان محطتي الأخيرة بعد إخفاقات كثيرة في الحياة وأحمد الله أني وفقت إلى هذا الدور بالرغم من صعوبته

أحاول أن أقلع عن التدخين توفيرًا للنفقات ولكني لا أستطيع عجزت أمام هذا الكيف الذي أجد فيه ملازي وصحبتي ولكن تأثرت صحتي كثيرًا في الفترة الأخيرة مما استدعى ذهابي إلى الطبيب الذي حذرني من الاستمرار في تلك العادة بنفس الشراهة سوف يؤول إلى موتي السريع

الديزل والسندباد والكنشرتو كلها ملامح من شخص لا يشبهني تمامًا الآن كان صرحًا من خيال فهوى

أنا أستاذ دعبس رئيس الحسابات في هذا الكيان أغلب تعاملاتي مع الأرقام فقط وأتجنب الحديث مع البشر وليس العيب فيهم بالطبع ولكن كل العيب في شخصي لاعتقادي أني أهم من كل من حولي من الزملاء الذي ينصب حديثهم في الغالب عن وصفات الأكل الجيدة, والأدوية العلاجية التي تحسن الآداء الجنسي داخل الفراش, أو هو نوع من نرجسيتي البائدة التي لم أستطع التخلص منها كليًا أو قد يكونوا بالفعل سخفاء

أستاذ وليد السنان يحكي تفاصيل علاقاته الحميمة مع زوجته داخل الفراش ويستمتع بالشرح المفصل وأسئلة الحاضرين الذي يتجسد أمامهم رجل في قمة الفحولة والذي يستطيع إمتاع زوجته حد البكاء من فرط اللذة وزوجته ليست إلا مهوسة جنسيًا, وفي الغالب بعد كل حديث مطول عن فراش الزوجية, يصاب بوعكة صحية ويتهم الزملاء بالحسد ولا يرتدع عن تلك العادة الذميمة التي احتقره بسببها.

وحسن علي محمود المتخصص في فنون الطهي والوجبات الصحية والسمن البلدي والنباتي وزيت الزيتون حتى تشعر وكأنك تتحدث إلى سيدة ترتدي سترة (مريلة) ويدها ملطخة بمعجون الطماطم (الصلصة) كم أكره الرجل الذي لا يعلم عن معنى الرجولة شيئًا والمتشدقين بمساعدة الزوجات في المنزل

أعشق الرجل ديكتاتوري في المنزل وليذهبوا مناصروو حقوق المرأة إلى الجحيم... هذا أنا ولكن سرعان ما تضيع تلك الديكتاتورية أمام مصروفات المعايش الغالية التي أكابد كل شهر من أجل الوفاء بها وأشعر أنها ديكتاتورية الأسبوع الواحد, فالرجل بلا مال يصاب بشرخ وجداني ونفسي

قهوتك يا بك واللهي باشا ابن بشوات

هكذا ينعته عم مدبولي الرجل العجوز عندما يضع فنجان القهوة أمامه, يغيب دعبس تمامًا عندما تصل رائحة القهوة إلى أنفه

والتي اشتراها خصيصًا من بن عبد المعبود بباب اللوق, يختار أغنية يا دنيا يا غرامي من ملف الأغاني خاصته على جهاز الحاسب الآلي ويشعل سيجارته ويضع ساقًا أعلى الأخرى ويبدأ في احتساء قهوته مع صوت عبد الوهاب

لا يعلم دعبس لماذا عبد الوهاب مع القهوة هل هو ارتباط شرطي أم عادة ترسخت في ذاكرته من موروثات أحياء وسط المدينة التي هام بها عشقًا وعصفت به الأقدار إلى عشوائية المدينة

أنهى يومه في العمل وهرع إلى المنزل يصارع الشوارع المزدحمة، وكل ما حوله يدعوه إلى تدخين معدل أعلى من السجائر يوميًا

طرق باب المنزل كالعادة، فهو لا يحب استخدام مفتاح الباب وكأنه ضيف أو زائر ولكن لم تفتح ريهام سريعًا كعادتها, طرق الباب مرة أخرى بعصبية، ولكن لا مجيب فهم بإخراج مادلية المفاتيح ودخل المنزل في عصبية شديدة ينادي على ريهام

ريهام ريمو

لا من مجيب فتش عنها في أرجاء المنزل وجد كل شيء مرتبًا بعناية كالعادة حتى الطعام تم طهيه وجاهز للتحضير

استعجب كثيرًا من عدم وجود ريهام داخل المنزل وأخرج هاتفه واتصل بها فوجد هتفها خارج نطاق الخدمة، انتابه عصبية شديدة شعر أن هناك شيئًا ما يجري واستسلم للهواجس

جلس على مقربة من الباب منتظرًا وأشعل سيجارته تخيل حياته

بلا ريهام وابنه الصغير فارتعب من فكرة فقدهما حتى ولو كابد كثيرًا من المعاناة, فحياته الآن أصبحت مستقرة، زوجة حسناء وذرية صالحة والمنزل بدونهما خواء بالفعل لا ندرك قيمة ما في اليد إلا في حالة فقده هكذا حدثته نفسه وتعجب إذا كان هذا إحساسه الآن عندما شعر أن المنزل خويا, فلماذا دائمًا يجلد ذاته ويدعي أنه مكبل ويحن إلى العزوبية بل من أين تأتي تلك الهواجس السوداء التي تلاشت تمامًا عند شعوره بالوحدة مرة أخرى

بالفعل حققت شيئًا في الحياة على الرغم من أن طموحي لنفسي كان دائمًا لا حدود من الثراء إلى الشهرة إلى تحقيق الذات ولم يكتب لي سوى هذا الحال والحمد لله إني انتبهت لما تبقى لي من عمر لم أعد أستغرب من الدنيا فأكثرنا وسامة تزوج أكثر النساء دمامة وأكثرنا خيبة في التعليم أصبح مهندس بترول مشهورًا وناجحًا وأكثرنا خجلًا أصبح ممثلًا سنمائيًا يواجهه الآلاف من البشر، سبحان الذي رزق ولكن لا يحمل القلب إيمانًا بالقدر الذي يؤهله لاستيعاب حكم الله

لم أكن يومًا متدينًا قط، ولكني عندما أنظر إلى حالي وأشعر أني أصبحت موظفًا وزوجًا وأبًا ونسيت الماضي بكل آلامه وفرحه أحمد الله أنني لم أتتدلَ من سقف غرفتي أو أجنح إلى الجنون وفي خضم تحليله للموقف سمع أزيز الباب وصوت عمر ابنه

يلهو فقام سريعًا وفتح الباب
وجد ريهام تبتسم وتحمل في طيتها كيس تحاول أن تخفيه عن أنظاره
سألها بعنف أين كنتِ ولماذا لم تخبريني بخروجكِ من المنزل وجذب الكيس من يدها وألقى به أرضًا في غضب شديد
ردي بسرعة
لم تتحدث ريهام بل دخلت إلى غرفة النوم وقامت بغلقها بإحكام
أخذ في الصياح بشكل هستيري
أنا لما آجي لازم ألاقي مراتي مستنياني يا هانم ومتخرجش تحت أي ظرف انطقي كنتي فين
لا ردة فعل منها تمامًا وآثرت الصمت بينما أخذ هاتف المنزل في الرنين
رد دعبس بعصبية فوجدها حماته التي ألقت عليه السلام بود وسألته عن إذا كانت الهدية أعجبته
اندهش دعبس ولكنه تظاهر بمعرفة الأمر وأخبرها أنها أعجبته كثيرًا ودعا لها بطول العمر سألته عن ريهام فأخبرها أنها تأخذ حمامًا وسوف تعاود الاتصال بها حين الخروج
هدية إيه
أمسك دعبس بالكيس الملقى على الأرض وتفحصه فوجد فيه رابطة عنق شديدة الأناقة وكارت تهنئة وتهادت عيناه على

الكلمات الرقيقة التي أخذ في قراءتها صامتًا
حبيبي أحمد كل سنة وإنت طيب ويارب يدوم علينا الصحة والستر ويخلي ابننا الجميل وإللي في الطريق
حبيبتك ريهام
عندما تفهم دعبس الموقف انتابه سعادة غامرة فسبب خروج ريهام من المنزل هو أن تحمل لي مفاجأة بعيد ميلادي الخامس والثلاثين الذي نسيته شعر بقمة الحرج والأسى
فوقف على باب الحجرة وناداها بأدب واعتذر عما بدر منه من سلوك وعصبية
فلم تجب اعتذر مرة أخرى ولكن في تلك المرة سمعت منه كلامًا قلما جاد به
ريهام أنا لما جيت ملقتكيش في البيت حسيت بالوحدة إنتي كل حياتي وأنا بحبك جدًا يا أم ولادي
هناك أشياء في القلب من الممكن أن لا يعلم عنها شريك الحياة شيئًا سوى في لحظات الاعتذار,لم تستوعب ريهام رقة دعبس المبالغ فيها في تلك اللحظة وتمنت أن يعيد كلامه مرة أخرى فلأول مرة يبوح بكل المشاعر تلك دون أن تطلبها منه
ففتحت الباب واحتضنته وهي تهنئه بعامة الجديد
فضمها في حنان وقبلها وحمل ابنه عمر وداعبه
أخبرته أنها تحمل له مفاجأة أخرى وهي تلقيها اتصال من

عمها المهاجر إلى الخليج منذ زمن تحدث معها عن احتياجه إلى محاسب في شركته بمرتب مجزي يدير شؤون شركته هناك ويكون أمينًا وبمنزلة ابن له يستطيع الاعتماد عليه ليتفرغ هو في افتتاح فرع جديد للشركة في الشرق الأقصى

ها إيه رأيك يا حبيبي فرصة بقى نستريح من الأقساط والجمعيات ونقدر نشتري بيت في مكان أجمل وهنكون مع بعض ونعلم أولادنا في ظرف أحسن

فكر دعبس في كلامها لوهلة ولمعت عيناه ولم يبدِ إجابة سواء بالرفض أو القبول

ها يا حبيبي إنت بتفكر, فرد عليها بابتسامة (الغدا يا ريمو أنا جعان)

تم تغيير اللافتة وتحويلها إلى اللون الأزرق الداكن لكي تتماشى مع الزي الجديد للعاملين بالمركز, كعادته يتفقد كل شيء بداية من النظافة إلى الأمن ولا ينسى التدقيق على عم سيد بتلميع المراية الداخلية للمركز بشكل جيد, يتفقد المرضى بود شديد ويحاول الإجابة على كل الاستفسارات الخاصة ببرامج العلاج غير المألوف لدى الكثير منهم لاعتماده على مجموعة من العقاقير والأعشاب صينية المنشأ صعبة الفهم.

يقف دائمًا في وسط الردهة الرئسية للمركز وتتهافت عليه الأسئلة ويتحرك وراءه كثير من الأطباء الصغار, إحساسه الداخلي بالذات

يفوق كل الحدود ولكن سرعان ما كسر روتين اليوم العادي صوت ضجيج شديد في الخارج وصراخ موظفة الاستقبال نتيجة لصفعة قوية

هرع د سامي إلى الخارج وحوله الأطباء وبعض المرضى ليتفقدوا ما بالخارج

وجد عددًا كبيرًا من الرجال يرتدون الزي المدني ويحملون أجهزة اللاسلكي وتظهر الأسلحة من جانبات ملابسهم

بروح مدير المركز والشخص المسؤول

سأل بحدة (هو إيه إللي بيحصل إنتوا مين)

وجد يدًا تشده من البلطو الأبيض للوقوف أمام أحدهم (يعني إنت مش عارف إحنا مين يا روح أمك)

روح أمي أنا د سامي مدير المركز (واللهي طب يا سيدي.... إحنا مباحث الغش التجاري إيه بقا دا إللي إنتوا عاملينو بتغشوا الناس جايبين شوية صينيين وعاملين فيها مركز علاج فين رخصة مزاولة المهنة وتصاريح وزارة الصحة والدخلية يا سيادة المدير وتصاريح العمل بتاعت شوية الأجانب دول وأشار بيده إلى الأطباء الصنيين المكومين على الأرض)

يا فندم دا مشروع شراكة بين مصر والصين المفروض بدعم من وزير الصحة نفسه والقنصلية الصينية في مصر)

المفروض دا عند المكوجي يا حبيبي هاتوهم كلهم وشمعوا المركز

دا بسرعة
احكم أمين الشرطة قبضته على ذراع د سامي وقام بإدخاله بعنف داخل الميكروباص وجلس أمامه الأطباء الصينيون مذعورين وسألوا د سامي ماذا يحدث, طمأنهم أنه سوف يستطلع الأمر فقام بالاتصال بالشرقاوي المدير الإقليمي لفروع المركز وصديق الجامعة القديم وأبلغه بما حدث في ذعر, وكان رد الشرقاوي أن يطمأن ويترك له التصرف فالأمر سوف ينتهي في غضون ساعات قلائل
وصلت سيارة الشرطة إلى قسم ثاني المعادي أحاط الأمناء والعساكر بالحضور وأدخلوهم إلى القسم في صفوف منتظمة وصل أيضًا مجموعة من المقبوض عليهم في جرائم تلبس واشتباه وفعل فاضح في الطريق العام ووقفوا أيضًا في نفس الصفوف وبدأت مقطوعة من العزف على وجوه الحاضرين وأجسامهم دون تفرقة صرخ أحدهم إحنا ناس محترمة جذبوه إلى الأرض وداسوا عليه بأقدامهم فيما يدعى التشريفة ذهول تام من الدكتور سامي ووجوم وكأنه في كابوس واستدعى عقله الباطن مشاهد فيلم إحنا بتوع الأتوبيس
لم يزل واقفًا في الصف يرتعد إلى أن سمع أوامر الضابط (أمين خالد لم من ولاد الكلب دول بطايقهم والموبيلات وأي حاجة تانية معاهم وارميهم في الحجز بسرعة الحكمدار هيمر بعد ساعة

اتحرك)
بدأوا أمناء الشرطة في تنفيذ أوامر الباشا مدعومة بكثير من السباب والصفع. رمقه الأمين خالد يرتدي روب الطبيب الأبيض فلم يلمسه وتركه منفردًا)
(إنت دكتور المركز صح.... أجابه د سامي في فزع بالإيجاب)
طب طلع ٢٠٠ جنيه علشان متدبهدلش...... إنت هتبصلي لخص لرميك معاهم) أخرج حافظة نقوده وأعطاه ما يريد أخذ البطاقة وذهب بها إلى الضابط المسؤول وتبادل معه الحديث بنوع من الاستعطاف, ثم استدار وأخذ د سامي من يديه وأدخله حجرة مغلقة تحتوي على مجموعة من الأوراق وكأنها أرشيف وأغلق عليه الباب وطلب منه عدم التحرك حتى يأتيه مجددًا)
ارتباك ومشاعر إحباط تتصاعد, أصوات الأقدام ترهبه, لم يعد يتحمل هذا الكابوس فكر في فتح الباب والهروب ضغط بقوة على أوكرة الباب فلم يفتح وكان محكم الغلق تذكر أنه على مدار حياته لم يدخل قسم شرطة سوى للسجل المدني فقط بل أنه كان ينأى بنفسه عن الدخول في اي مشكلة حتى يتجنب هذا الموقف, أدار عينيه في المكان يبحث عن كرسي للجلوس عليه لم يجد سوى المكتب ذي الملفات الكثيرة والأتربة أزاح الملفات وجلس فكر في أن يخلع البلطو الأبيض حتى لا يتسخ ورجع عن الفكرة وعاتب البلطو الأبيض

إنت السبب منعتني عن أشياء كثيرة ومنحتني القليل حافظت
عليك فرميت بي في أقسام الشرطة ليتني كنت أي شيء آخر ولم
أرتدك لطختني كما ألطخك أنا الآن, أضعت من عمري الكثير
للحفاظ عليك واحترامك والآن أنا سجينك.... والمرة الوحيدة التي
لم تخلف وعدك معي ومنحتني ما كنت أريده أصبحت حبيس
أدراجي كالفئران,, صورة أمه تزاحم حديثه بل تتزاحم مجموعة
من الصور وكأنها تشاركه لحظات المحنة دون أسباب
.. سمع وقع أقدام تقترب من الباب فوقف منتبهًا من حالة
الوجوم.... وجد أمين الشرطة يصطحب سيدة في أواخر الثلاثينات
من يدها ويدخلها نفس الغرفة ويغلق الباب سريعًا
الصمت يسود المكان والأوجه تتفحص بعضها البعض..... عدم
ظهور علامات الذعر على وجهها أصابه بالدهشة بينما البلطو
الأبيض الذي يرتديه أصاب فضولها
أخرجت علبة سجائرها الجلد من شنطة يدها الديور وأشعلت
سيجارتها وابتسمت في وجهه وقالت تدخن يا دكتور::::::
أخذ منها السيجارة بيد مرتعشة.... رفض أن تشعله السيجارة
وطلب منها أن تعطيه القداحة
قام بإشعال السيجارة وأعطاها القداحة مرة أخرى لم يحاول أن
يبدأ معها أي نوع من الحديث أراد أن يكمل حديث النفس
الذي لم ينتهِ قط

طب مش تقوللي اتفضلي اقعدي وضحكت ضحكة عالية
نظر لها نظرة أصابها الوهن.... وقام من مكانه
اتفضلي بس خدي باللك المكتب مترب
ولا يهمك إيه يعني هيا جت على المكتب.... صمتت للحظات ثم أردفت
مش هقولك السؤال البايخ إيه إللي جابك هنا بس إنت شكلك تعبان أوي يا دكتور
أخذ نفسًا من سيجارته ثم أجاب........ آه تعبان عارفة من إيه ومن وساخة البلطو وغاب في ضحكة مكتومهكلبكاة وأردف
تخيلي البلطو ده وسخني أوي وبدأ في سحب سيجارة من علبة السجائر الموضوعة أمامه دون استئذان وحكى لها مقتطفات من مشاوير الحياة التي عاندته كان يريد أن يترافع عن نفسه أمام أحد وكأن خصمه هو الحياة
تعبيرات وجهها كانت تتغير من الفرح إلى الحزن إلى الدهشة وكأنها تشاهد فيلمًا شيقًا ودخان السجائر يزداد ويتراقص حولهما في مشاهد الفرح وينحني في مشاهد الحزن وانتبهت إلى مضى أكثر من ٣ ساعات ولم يغلق د سامي فمه وكأنه يريد أن يصدر له أحد الحكم على زمانه الغادر
لاحظت قرب انتهاء علبة السجائر عند سحبها أخرى جديدة
اعتذر د سامي عن تدخينه بشراهة واستباحته لعلبة السجائر

البكر
آسف خلصت سجايرك
ولا يهمك أنا هطلب الأمين خالد يجيب واحدة تانية وأخرجت الموبيل من حقيبتها اندهش د سامي (إنتي سابوللك الموبيل)
ابتسمت وقالت (يا باشا الفلوس بتعمل كل حاجة ما أنا برضوا دفعت ٢٠٠ للأمين علشان أقعد هنا)
إنتي بتيجي كتير بقى..... نظرت له بحدة لييه شكلي رد سجون ولا إيه
أنا آسف مش قصدي... وسكت د سامي عن الكلام ونظر في ساعة يده وجدها قاربت على الثانية صباحًا
دخل الأمين خالد إلى الحجرة وسألهما ببجاحة (حد عايز حاجة من برة)
أجاب د سامي أنا عايز أعرف أنا هيعملوا فيا إيه وأنا هنا لييه وعايز تليفوني أرجوك وهاتلي علبتين سجاير وعلبة عاصير أناناس وأي أكل خفيف
رد الأمين خالد في سخرية هو حضرتك طالع رحلة طب إيدك على ٣٠٠ جنيه ١٠٠ هجبلك الحاجة و٢٠٠ علشان أدخلك الموبيل وأدار رأسه إلى السيدة الجالسة فوق المكتب وإنتي يا شرويت هانم تأمري بحاجة فهزت رأسها بالنفي فخرج سريعًا وأغلق الباب

نظر لها د سامي نظرة مودة وتفحص وجهها مرة أخرى عينان يشع منهما تحدي وعناد ولونهما بني فاتح نفس لون الشعر المنسدل على كتفيها. تضع ساقًا فوق الآخر غير مبالية بالموقف ملابسها الأنيقة يدل على أنها من طبقة راقية بالإضافة إلى طريقتها في الكلام واستخدامها بعض الكلمات الفرنسية يضفي عليها نوعًا من الجاذبية كريحة عطرها الأخاذ

خلاص يا د صورتني طب إيه رأيك مترسمني إنت عايز إيه وأخرجت من حقيبتها قلم أنسولين

استغرب د سامي وتهاوت أسئلته عليها (إنتي عندك سكر... إنتي هنا ليه... إنتي جميلة وشيك أوي.. إنتي مين)

ابتسمت له ابتسامة رضا وأجابت أنا واحدة فيها كل إللي إنت قولته وأعادت عليه الكلام

أنا شرويت عندي سكر عالي كمان حلوة زي مكل الناس شيفة وأنا شايفة إني عادية جدًا

أنا يا د سامي هنا علشان أنا خبطت واحد بعربيتي وأنا سايقة ومرديتش أهرب وأول مرة أخش قسم بس متوصي عليها جامد من ناس مهمين أنا صاحبة جاليري المحروسة, الحالة الاجتماعية مطلقة أو منفصلة أو موصمة بوصمة عار مع إني خريجة جامعة أمريكية وبعزف عود وكمان بريلينة ووقفت على أناملها كراقصي الباليه.... وهي تعرض على النيابة زي حضرتك كدا الصبح ومن

فضلك سيبني أنا عايزة أناجي ربنا شوية

الجراءة وقوة الشخصية والغرابة والجمال جعلته يتوقف عن الكلام ولكن لم يستطع التوقف عن النظر لها وهي تناجي الله بخشوع الزاهدين.

* * *

غريبة تلك الحياة ولكل مجتهد نصيب مع كل الخوف الذي اعتراني عندما بدأت في فكرة ترك العمل والبحث عما أريد أن أفعله وقطعت مشوار الحياة حتى تجاوزت الثلاثين بقليل ولكن مع كل محطة توقفت عندها من حياتي، تعلمت شيئًا

من فتى خجول شديد الارتباط بأمه ومنخرط كامل الانخراط في حياة القطيع إلى متمرد ولكن بشكل إيجابي وكأنني كنت أبحث عن الحقيقة، فوجدتها

دخل ميدو إلى صالون الحلاقة وأغلق الباب خلفه وجلس على كرسي الحلاقة يهندم أفكاره ويرتبها بعناية وتخيل حلمه الذي سوف يكون

ففي الطابق العلوي، سيكون المسرح الصغير وهو عبارة عن ميكرفون يرتكز على قاعدة خشبية عريضة وأعلى نسبيًا من سطح الأرض بما يتسنى للحضور الجلوس على الأرض بعد فرشها بنوع من الكليم الذي يعكس الثقافة المصرية الأصلية

سوف أجعل كل ما في هذا المكان يتجلى فيه الشخصية المصرية حتى الديكور والحوائط سوف تملأ بلوحات الشباب راغبي عرض لوحاتهم بمقابل نسبة من البيع

وسوف يقوم المسرح باستضافة كل فرق الهواة من كل الأطياف سواء في الغناء أو التمثيل أو إلقاء الشعر والميلودرما وأردف أنه سوف يقوم باستضافة كبار الكتاب والمثقفين والأدباء لعمل ندوات توعية وتثقيف لمن يرغب

نزل إلى الطابق الأسفل بواسطة السلم الخشبي الذي يحدث أزيزًا محمودًا ومحببًا إلى نفسه, وبدأ في تخطيطه وأشار إلى حوض غسيل الشعر الذي فكر في أن يتخلص منه مطلقًا للاستغلال مساحته في عمل بار صغير لتقديم المشروبات لرواد المكان وبجانبه مكتبة كبيرة تحوي جميع الكتب وفي الجهة المقابلة سوف أقوم باستغلال الحائط للمعروضات اليدوية التي يقوم الشباب بصنعها من الجلود والخشب

أما هنا وفتح ميدو الغرفة التي كان يستخدمها الحاج سيد كمخزن سوف يكون المرسم صباحًا وحجرة تعليم دروس الموسيقى ليلًا

جلس ميدو على كرسي عم سيد خلف مكتبه وشعر بنوع من امتنان شديد لهذا الرجل

ففكر أن يسمي المشروع باسمه ولكنه وجد أن اسم(سيد) لا يمكن أن يكون عنوان لمركز ثقافي، ففكر في أن يكتب ما فعله

معه عم سيد من إحسان في لوحة كبيرة داخل المركز تحكي قصة الرجل باختصار ويقوم كل ما يزور المكان بكتابة تعليقه أسفل اللوحة كنوع من تخليد ذكرى عم سيد حتى في غياب الرجل

قام ميدو بالاتصال بمكتب هندسي مشهور لعمل الديكورات اللازمة للمكان وتجهيزه للعمل في أقصى سرعة وبالفعل وقع العقد معهم وأعطاهم جزءًا من المبلغ المطلوب

كل شيء يجري سريعًا الحركة وانتشار العمال في المكان أعطوا له حياة بعد فترة طويلة من كآبة المكان وكأنه في حالة حداد على فقدانه صاحبه الأصلي, وبدأت ملامح المكان في الظهور وقلب ميدو يمتزج فيه الفرح بالقلق المستقبلي

عادت مريم في الظهور مرة أخرى بشدة ارتدت البنطلون الجينز وفكت حجاب رأسها وأصبحت أرتدي قبعة (كاب) طيلة الوقت وبدأت بالفعل في استلام الطابق الثاني وجمعت كل رسومها وبدأت في توزيع الرسومات في جنبات المكان وكأنها راقصة باليه تتحرك بكل لطف ورقة وهي تشعر بانسجام تام مع روح المكان وفي خضم السعادة التي يشعر بها ميدو ومريم

وقفت سيارة الشرطة أمام الصالون ونزل منها ضابط يحمل رتبة نقيب

دخل إلى الصالون وحده وطلب القوة المرافقة له التوقف في الخارج

سأل عن صاحب المكان، وعيناه تصور كل تفاصيل المكان صغيرة وكبيرة وتسمرت عيناه عند آلات العزف المجمعة داخل غرفة تعليم الموسيقى

ذهب ميدو في رهبة يستطلع الأمر وبدت عليه علامات الارتباك بينما توقف العمال عن العمل مستطلعين الأمر

صافحه الضابط وطلب هويته وعقد المحل

نظر في العقد ودقق فيه وسأله (حضرتك مش المفروض دا صالون حلاق)

أجابه ميدو بالإيجاب

فأردف الضابط أمال إيه كل دا

حاول ميدو أن يشرح فكرته للضابط الذي جلس يستمع على الكرسي وانتابته مشاعر السعادة حتى وإن حاول إخفاءها أخبره الضابط بمنتهى الأريحية أنه كان يعزف الساكس وأتقن العزف عليها وأن الفضل يرجع إلى خاله المهاجر إلى كندا الذي كان شديد الحب لأغاني البلوز الأمريكية

استغرب ميدو ونظر للضابط متفحص وجهه ببطء

فطن الضابط لما يدور في خلد ميدو فأشعل سيجاره

طبعًا إنت واخد على الضباط إنهم بيفتروا على الناس ويشتموا وكدا

بصراحة أغلبيتهم يا فندم

لا يا باشا أنا إنسان زيك بالظبط كمان بفهم في الفن وسحب آلة الساكس من مكانها وقام بعزف صولوا من الأغنية الفرنسية الشهيرة الليل الهندي, أجاد في العزف حتى قام ميدو بمصافحته وصفق الحضور في استغراب على موهبة الضابط الفذة, بدى عليه السعادة وعرف ميدو بنفسه وطلب منه أن يعطيه فكرة من الممكن أن تسهم في نجاح مركزه الثقافي

انتبه ميدو وقام بالتركيز في كلام عمرو بك ضابط الشرطة الذي اقترح عليه تعليم الأطفال فن الباليه كنوع من الحصص الأسبوعية كما يتم في المركز الثقافي الروسي, علامات الامتنان لهذا الرجل بدت واضحة، طلب منه ميدو أن يساعده في إنهاء تراخيص المركز وفي اليوم التالي اصطحب عمرو بك ميدو وأنهى له جميع التراخيص واطمأن بنفسه على قانونية الأوراق وكأن الحظ حالف ميدو حتى النهاية.

وفي يوم الافتتاح وقف ميدو بجانب عم سيد الذي جاء خصيصًا كي يحضر الافتتاح وأخذ يكبر (الله أكبر) عندما شاهد صورته وقصته مع ميدو والثناء عليه من الجميع عبر كلماتهم الرقيقة, بينما وقفت مريم في ثقة بجانب باكورة أعمالها وبإمضائها الخاص أسفل كل لوحة رسمتها, وتمت إزاحة الستار عن اسم المكان الذي كان مفاجأة للجميع

بيت ليلى للثقافة والفنون

اليوم ولدت من جديد، لم أكن أشعر أني سوف أحقق النجاح كان يساورني الشك دائمًا في طريقي الجديد وحقيقته وسؤال يلاحقني في تلك الرحلة وهو

هل بالفعل تحقق الأحلام

نعم تتحقق الأحلام

بهذه الكلمات أنهى ميدو حديثه أمام مجموعة كبيرة من الشباب الحضور وأصدقاء رحلة العمر, كان وجهه مشرقًا وجميلًا, انتشرت الموسيقى التي قام بعزفها مجموعة من الشباب الهواة عبر أرجاء المكان, ورفع أمه عاليًا أمام الحضور مباشرة واقتنص كلمات في مديحها غاية في البلاغة, مما جعل جميع الحضور في غاية التأثر وفي نهاية كلمته بعد أن قبل يد أمه, قام عازف الكمان بعزف مقطوعة النهر الخالد وأمسك يد والدته التي شاركته الرقص في بهجة انتصار وعدسات الصحافة والمصورين تلتقط الصور وفي حديث مصور سألها المحاور بماذا تشعرين بعد نجاح ابنك وفكرته فكانت إجاباتها في قمة البلاغة

اليوم ولدت رجلًا يشبه أباه.

* * *

سيارة ترحيلات كبيرة الحجم وضباط قوات خاصة يرتدون الزي الأسود والنظارات الشمسية ويتبادلون أطراف الحديث وأعينهم

على الأمناء وهم ينظمون صفوف العساكر..... وجوه منتظرة خروج المتهمين من القسم بعضهم يبكي والآخر غير مبالي وكأنه تعود الموقف, سيارات ملاكي مختلطة بسيارات الأجرة تقف في عشوائية أمام القسم وبائع شاي أما نصبة صغيرة بجوار القسم يلتف حوله مجموعة من أفراد الأمن يحتسون الشاي وشاويش يعطي التحية ويفسح مكان لركن سيارات الضباط
يخرج د سامي من باب القسم منحني الرأس وفي يده رفيق الرحلة لص السيارات, نظارته الطبية لم تخفِ كم مشاعر الحزن الواضح في عينيه, يتعثر في المشي فيجري رفيقه الجديد بعنف, وصل إلى السيارة رفع رأسه فوجد الشمس ساطعة وكأنها تريد أن تفضحه رفع يده المكبلة بالقيود نحو أشعة الشمس فانعكس لمعان القيد على وجه الحضور شاهد أمه وأباه المنتظرين أمام القسم وبجوارهما الشرقاوي وفي الخلف وجد عبير ورفاق الجامعة ومانيلا وعم شوقي المكانيكي ومسؤول وزارة الخارجية وجرس الفسحة وعلم مصر ودلافين البحر, وجد نفسه صغيراً يرتدي زي الكشافة
فابتسم للحقيقة والخيال وبكى
هرع إليه الشرقاوي ونادى عليه (متخافش يا سامي دول ولاد لذينا مبيفهموش حاجة أنا جي وراك ومعايا ٣ محامين وكل المطلوب وإن شاء الله ساعتين وتكون على مكتبك)

لم ينتبه إلى ما قاله الشرقاوي وسأله سؤالًا وحيدًا (إيه إللي جاب أمي هنا يا شرقاوي) لم تمنحه سيارت الترحيلات فرصة للرد وانطلقت مسرعة وعواء صفيرها يعلن لكل الناس عن هذا الأمر الجلل

وصل إلى النيابة وصعد ومعه كل المتهمين إلى سطح مبنى النيابة وفي أيديهم الأصفاد, تحسس وجوه المتهمين فلم يجد شيروت زميلة الغرفة لعلها كانت حلمًا أو نتاج الخيال فقط كنوع من الحيل الدفاعية أو لعلها هذيان إرهاق يوم طويل, هكذا قال لنفسه ولكنه عندما أخرج علبة السجائر من جيب البلطو وجد القداحة خاصتها فتأكد أنها حقيقة وليست حلمًا

دخل إلى وكيل النائب العام وجده شابًا صغير السن دمس الخلق طلب منه الجلوس واستمع إلى المحامي الذي قدم له بعض الأوراق التي نظر فيها سريعًا ثم أملى على سكرتيره

أمرنا نحن هشام الأحمدي وكيل النائب العام بإخلاء سبيل سامي علم الدين من سراي النيابة بضمان وظيفته... اصطحبه الشرقاوي إلى الخارج وقام بإعطائه إجازة مفتوحة لحين ترتيب الوضع القانوني للمركز

وصل إلى المنزل دخل تحت الدش الساخن واستسلم لانهمار الماء على جسمه كان يشعر بالتعب الشديد والآلام المبرحة في الساقين نتيجة الوقوف مدة طويلة على قدميه, أراد أن يصرخ بأعلى صوته

ويلعن الحظ ويوم ميلاده ولكنه فاجأه خيال لم يكن يراوده من قبل قاومه ليستسلم إلى صوت الحزن بداخله ولكن صورتها وهي تأخذ قلم الأنسلين وطريقتها في الجلوس جعلته يرتجل عنوان ليومه الحافل فكان شرويت حلم ليلة عصيبة

استحق د سامي بعد تلك الحادثة إلى إجازة وبسبب توقف المركز مؤقتًا عن العمل سنحت له الفرصة في البقاء في المنزل عدة أيام, عاد مرة أخرى إلى الجلوس في البلكون واتباع الجدول القديم ولكنه ليس لإهدار الوقت بل لاستمتاع ببراح المنزل النفسي مجددًا نشرت شجرة الكافور رائحتها في الأجواء كما تفعل كل خريف, فاستنشق د سامي الهواء بقوة وأخذ يحرقه في صدره شهيقًا وزفيرًا وتفحص الشجرة التي لم يغلبها قط دوران الأيام

أشعل سيجارته وأحس أنه يفتقد شيئًا ما مهمًا في حياته الآن بعد أن استقر إلى حد كبير وجد أنه لا يزال يريد شيئًا غائبًا

ضحك في نفسه وتذكر كلامه أنه يستطيع أن يتخلى عن أشياء في مقابل السلام النفسي، تخيل نفسه تزوج بشكل عادي منذ سنوات وأصبح أبًا, صاحب كرش كبير وهم أكبر وأولاد كثيري المطالب, وجد نفسه تمرد على شكل الحياة التقليدية وأراد أن يعيش هو حياته كما تراءى له لكنه أحس بقدر من الأنانية

نعم أنت أناني هكذا قال لنفسه ولما لا لو أنك سرت في الطريق دون اعتراض من البداية لأصبحت الآن أبًا تعيش لأولادك وترى

فلذات كبدك تكبر أمامك وتقف بجانبك عندما ترد إلى أرذل العمر
كما أنت فاعل الآن مع والديك أو زوجة تحس بك وتشاركك
لحظات الفرح والطرح
ولكن لا فائدة الآن سوى النظر في المستقبل ومحاولة تحقيق ما
تبقى لك من أحلام, أنا بالفعل أريد من يشاركني استقراري الآن
أنا لست أنانيًا ارتباطي بأي شخص من البداية لكان هو الأنانية
بعينها كيف ترتبط لتزيد همومًا أخرى بهمومك
قاطعه نداء أمه (سامي,, سامي يا بني)
هرع إليها كالعادة ليلبي نداءها أشارت إلى صدرها أنه يؤلمها
هرع إلى شنطته بنية اللون ليحضر سماعته ورجع لها وجدها
تلبي نداء ربها حاول معها قام بالضغط على صدرها ليعيد القلب
إلى الحياة، ضغط بقوة عرق جبينه, لكنها أسلمت الروح إلى بارئها
صرخ بقوة..... أميييييي
ترتيل قرآن وفود من المعزيين يدخلون وآخرون يهموا بالانصراف
وقف د سامي يتلقى العزاء وبجواره والده العجوز والشرقاوي
لم تبكِ العين بينما القلب منفطر حالة وجوم على وجهه وسوال
بداخله أتستحق الحياة
شهور معدودة وتكرر هذا المشهد مرة أخرى ولكن غاب الأب
من متقلين العزاء
وجد نفسه وحيدًا بمعنى الكلمة حتى نداء والدته الوهن وإزعاج

والده بتقليب أوراق الكتب لم يعد له وجود أحس بخوف رهيب كان يراوده ولكنه أجله كما كان يؤجل كل شيء والآن هو حقيقة لا محالة من مواجهتها

دخل إلى غرفة والديه وسؤال أتستحق الحياة يلح عليه تفحص الغرفة ببطء وجد قصة حياة تعلن عنها أركان الغرفة

شباب محبون في نزهة على نيل الخمسينيات أسرة صغيرة في بداية الستينيات رحلتهم إلى الخليج في السبعينيات، وفرح أخته في التسعنيات وركن الأدوية والعقاقير الطبية ضريبة الرحلة

لمح ماكينة الخياطة الأنتيكة التي ورثتها أمه عن أمها، فأخذها وخرج من الغرفة وأغلقها

ارتدى الترنج الأصفر والكاب وكأنه حن إلى أيامهما وأخذ سيارته ومعه ماكينة الخياطة وغاب في شوارع المعادي بحثًا عن شيء ما وسرح في كلمتها

أنا شرويت عندي سكر عالي كمان حلوة زي مكل الناس شيفة، وأنا شايفة إني عادية جدًا

وصل إلى جاليري المحروسة وجدها تمسك ريشة وتنفض التراب عن لوحة قديمة وفي يدها الأخرى سيجارتها وتستمع إلى أغاني فرنسية رقيقة

ناداها شرويت أنا د سامي،،،

،،ابتسمت إنت عرفت توصلي أنا كنت حاسة إني هشوفك تاني

اتفضل يا سامي ومدت إليه يدها وأمسكت بيده في حميمة صديق قديم وأدخلته عالمها الصغير
استأذنها د سامي لبرهة، فاستغربت ارتباكه
حمل د سامي ماكينة الخياطة ووضعها أمامها وهو يلتقط أنفاسه المتعبة
أنا جبتللك هدية عزيزة أوي عندي اتفرجي, أذهلها شكل الماكينة ذات النقوش الجميلة وأخذت تتحسسها كطفل رضيع.... وضع يده على كفها ونظر لها قائلًا تفتكري يا شرويت أتستحق الحياة

* * *

عندما يتحول الحلم الترحال الجميل في الطوف حول العالم من أجل التعرف على أماكن جديدة لم تكتشف إلى حتمية للسعي إلى مستقبل أفضل وفرص جديدة أيضًا للعمل خارج الأوطان التي اكتظت بأهلها حيث لا سبيل لمتعة المعرفة، ولكن لجني أموال تؤمن ما تبقى من العمر ورفاهية مبتدعة وأسلوب جديد للعيش من خلق البشر ما أنزل الله به من سلطان
العرض في مجمله سخي للغاية، فهو يؤمن السكن له ولأسرته والتأمين الطبي الكامل علاوة على التأمين الاجتماعي والانتقالات من مكان العمل وإليه
ولكنه حسم أمره تحت وطأة التطلع إلى الأفضل وتحقيق الأمان

المالي والاجتماعي لابنه الصغير الذي أوشك على الالتحاق بالمدرسة في هذا العام وفتاته الصغيرة التي تحملها زوجته وهنًا على وهن نسى أو تناسى أن المادة لم تكن هي المشكلة الأكبر في حياته، فلم السعي في جني الكثير منها فضلًا عن وجود ما يكفيه

ولكن التصلب الذي أصاب شرايين حياته في مجموعة من الأفعال المكررة التي لا يوجد فيها سوى الرتابة والجمود دفعه إلى القبول على سبيل المغامرة والاكتشاف الذي يعشقه

اكتشف دعبس أن حياته هي عبارة عن فيلم سينمائي لا دخل له فيه, فكل مجريات حياته في بشر صادفهم أو مواقف تعلم منها وحياة أو موت هي داخل إطار الفيلم لكي يسعد يجب أن يكون مشاهدًا لهذا الفيلم بكل رضا إلى أن ينتهي

وجد أن أكثر فصول حياته نزقا كان دور في حياة آخر وكأننا أبطال في قصص البعض والبعض أبطال داخل قصص حياتنا

لملم دعبس أشياءه واستعد للرحيل لا يعلم إذا كانت بداية جديدة أم نهاية أم حالة مزدوجة تغلق فيها صفحات حياة متشابكة مع صفحات جديدة تفتح

هاتف كل أحبائه واعتذر لكل من أخطأ في حقه طاف بسيارته قبل القيام ببيعها كل أماكن ذكرياته أخذت عيناه تلتقط صورًا للأماكن التي شهدت نضاله الإنساني واحتضنت عيناه الأماكن (جاردن سيتي, مصر الجديدة, ميدان علاء الدين وباب اللوق)

وصل إلى فيلا الكيال
ونظر صامتًا بتفكر اعتقد أن حياتي بدأت بسؤال من صاحب هذا المكان دفعني للبحث عن جواب أو كان بمنزلة ناقوص يدق بداخلي كلما انهارت الإرادة
ملأ رائحة شجرة الكافور أنفه فأخذ نفسًا عميقًا وسار إلى الشجرة يتحسسها وكأنه يريد أن يفضي إليها بسر
اعتقد أن معنى الوجود يختلف بمرور العمر تبدله الأيام وتصهره التجارب ولكن بشرط الالتحام مع الحياة في جرأة لست نادمًا على ما مضى من حياتي وكفاني أني كنت أحاول وإمضائي أدناه يثبت أني مناضل وسوف أبقى.
وأخرج مفتاح السيارة وقام بحفر ثلاثة أحرف (د س ك) الديزل السندباد الكونشرتو وأرخ اليوم ٢٠١٠/١٠/١٠
اتجه دعبس إلى المطار يحمل في يده جواز السفر وابنه وتمشي خلفه بخطوات بطيئة زوجته الحامل ويجمل في وجدانه رضا تام عن مشروعية سفره لعله يضيف إلى ألقابه نعتًا جديدًا

تمت



01020439639